

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليـم العــالي والبحث العلـمي

جـامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعبـاس

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسـم العلـــــــــوم الإنسانية

الصراع بين الإيّالتين الجزائرية والتونسية من خلال المصادر المحلية الجزائرية والتونسية

1587 – 1830م

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر

إعـداد الطالب الباحث: عطـية محمـــــــــد

إشـــــــــراف: د/ صحراوي عبد القادر

– أ. د/مكحلي محمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	رئيسا
– د/صحراوي عبد القادر	أستاذ محاضر أ	جامعة سيدي بلعباس	مشرفا و مقررا
– د/الزين محمد	أستاذ محاضر أ	جامعة سيدي بلعباس	مناقشا
– أ. د/ دادة محمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهـــــران	مناقشا

السنة الجامعية

1435هـ- 1436هـ / 2014م- 2015م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلـــمي



جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعبـاس

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلـــــــوم الإنسانية

الصراع بين الإيّالتين الجزائرية والتونسية من خلال المصادر المحلية الجزائرية والتونسية

1587 – 1830م

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالب الباحث:
عطـية محمـــــــد

إشـــــــراف:
د/ صحراوي عبد القادر

أعضاء لجنة المناقشة:

أ. د/مكحلي محمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	رئيسا
د/صحراوي عبد القادر	أستاذ محاضر أ	جامعة سيدي بلعباس	مشرفا و مقررا
د/الزين محمد	أستاذ محاضر أ	جامعة سيدي بلعباس	مناقشا
أ. د/دادة محمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهـــــران	مناقشا

السنة الجامعية

1435هـ- 1436هـ / 2014م- 2015م


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى والديّ العزيزين متعنا الله بطول عمرهما ووفقنا إلى الإحسان إليهما

إلى جدتي

إلى زوجتي وأولادي

إلى إخوتي

أهدي هذا العمل المتواضع

شكر و تقدير

الحمد والشكر لله وحده أولا وأخيرا على فضله الذي وفقنا ويسر لنا إنجاز هذا البحث.

ومن واجب الاعتراف بالفضل والجميل أتقدم بالشكر و العرفان و أسمى معاني التقدير و الاحترام لأستاذنا الكريم الدكتور صحراوي عبد القادر على جزيل عطائه للنصائح و الإرشادات و صبره معنا. كما أتوجه بالشكر الجزيل و الثناء العطر لأستاذنا الفاضل الأستاذ الدكتور هلايلي حنيفي للمجهودات التي بذلها و الملاحظات القيّمة و التوجيهات التي قدمها لنا في سبيل العلم لإنارة دربنا.

و نوجه شكرنا إلى أساتذتنا، الذين أشرفوا على تكويننا خلال السنة النظرية، وتحملوا عناء الجهد المبذول في سبيل ذلك، فشكرا لكم أساتذتنا، ونعرب عن إمتناننا و شكرنا الوافر لأعضاء لجنة المناقشة على تحملهم قراءة هذه المذكرة و جهودهم القيّمة لتقويمها وإثرائها، و لا يفوتنا أن نتقدم بالشكر الجزيل للقائمين على إدارة مصلحة ما بعد التدرج و مكتبة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة سيدي بلعباس، والمكتبتين الوطنيتين بالجزائر و تونس والأرشيفين الوطنيين بالجزائر وتونس كذلك، ومكتبة البشير الابراهيمي و مكتبة دار الثقافة عبد الله بن كريو بالأغواط.

كما نشكر كل من ساهم في انجاز هذا البحث من بدايته إلى نهايته.

الطالب: عطية محمد

قصر الحيران في: 2015/02/19

قائمة المختصرات الواردة في البحث

1- المختصرات باللغة العربية:

الرمز	المعنى
ج	جزء
د ت	دون تاريخ
د م ج	ديوان المطبوعات الجامعية
ش و ن ت	الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
ص	صفحة
ص ص	صفحات متتابعة
ط	طبعة
ق	قرن
مج	مجلد

2-المختصرات باللغة الفرنسية:

المعنى	الرمز
Numéro	**N**
ouvrage précité	**op.cit**
Page	**P**
Revue Africaine	**R .Af**
RevueTunisienne	**R.T**
Revue de l'occident musulman et de la méditerranée	**R .O. M. M**
Tome	**T**
Volume	**V**

المـــــقدمة

كان و لا يزال موضوع العلاقات بين الدول ميدانا خصبا للدراسات، يستقطب الكثير من الباحثين، وتعد العلاقات السياسية أساس العلاقات الأخرى كالعلاقات العسكرية و غيرها، فبوجودها و متانتها تقوى روابط العلاقات الأخرى و العكس صحيح، لذا فدراسة العلاقات العسكرية يتطلب دراسة الأوضاع السياسية في أي بلد كان ودراستها تزيل الغموض الذي يكتنف طبيعة العلاقات و أسرارها.

1- الأهمية العلمية للموضوع:

يكتسي موضوع البحث في الصراع بين الإيالتين الجزائرية و التونسية إبان العهد العثماني أهمية بالغة في تاريخ الجزائر الحديث خاصة و تاريخ تونس و الدولة العثمانية عامة، فظهور الأخيرة بمنطقة المغرب الإسلامي مع مطلع القرن السادس عشر ميلادي أدى إلى تغيير نواح كثيرة من الحياة، و صنع مصير أجيال متعاقبة من البشر، كما أعاد رسم الخارطة الجيوسياسية للمنطقة، و أضفى على العلاقات فيما بين الكيانات السياسية المتجاذبة للسيطرة عليها نمطا خاصا، خصوصية هذه العلاقات كانت قد اتسمت بالصراع الطويل.

وإستراتيجية الدولة العثمانية قامت على الحرب ضد الإسبان و المتعاونين معهم، فالمعركة بالنسبة لهؤلاء كانت معركة بقاء، حيث كان لها ذلك بعد ضم أجزاء هذه المنطقة عبر مراحل، وبالمقابل أنهت الاحتلال الإسباني لها، ولكن في زمن غير يسير. و عندما استتب لها الأمر، كان الحراك السياسي في ولاياتها يسير في الاتجاه المعاكس فما لبث أن ظهر الصراع فيما بين هذه الولايات، حيث طغى هذا الحدث على مستوى علاقاتها طيلة العهد العثماني تقريبا، و خاض حكام الولايات غمار هذا الصراع في معظم الفترات بواسطة الجيش الإنكشاري، الذي يكون قد تم اشغاله عن وظائفه الأساسية التي بُعِثَ من أجلها أول مرة، و المتمثلة في حمايتها من الخطر الأجنبي، حتى خارت قواه، فضلا عن إقحام بعض القبائل التي لها صلة مباشرة بالعلاقات في هذا الصراع.

كان هناك حرص كبير على الحد من هذا الوضع في مرات عدة من لدن الدولة العثمانية، و عملت جاهدة لتلافيه، قصد توحيد الجهود ضد المتربصين من الأعداء، ولكن جهودها لم تكلل بالنجاح إلا نادرا، فنزوات القائمين على الولايتين كانت أقوى بكثير من مبادرات سلاطين آل عثمان، أو كبار وزرائهم. يضاف إلى ذلك ضغوط الدول الأوربية، عندما وجد قناصلتها في هؤلاء خير أذن صاغية، بعد أن انتقلت مراكز القوة من الشرق الإسلامي إلى الغرب المسيحي، و قطعت أوربا شوطا كبيرا من التطور و التقدم في مجال العلوم و تقنيات الملاحة التي وظفتها في عمليات السيطرة، ولكن ليس قبل أن يبلغ الضعف في أجهزة حكم الدولة العثمانية مبلغه وينتقل تدريجيا إلى ولاياتها.

2- دوافع اختيار الموضوع:

لا ريب أن الموضوع يكتسي أهمية علمية مما يجعله محل اهتمام الدارسين والباحثين، وهو لا يخرج عن إطار العلاقات، لذا سعينا لفهم الصراع بالوقوف على أسبابه و مراحله وصولا إلى نتائجه، وهذا ما دفعنا لاختيار الموضوع ومن دواعي ذلك نذكر:

1- مَيْلُنَا إلى هذا النوع من الدراسات التاريخية، والرغبة الملحة في الاطلاع على ما كتبه مؤرخو الدولتين بشأن العلاقات السياسية والعسكرية المتشنجة بين الإيّالتين الشقيقتين، و الوقوف على الأسباب الحقيقية المفضية إليها ونتائجها المختلفة، على الرغم من طول فترة الحكم العثماني الواحد لها.

2- تشجيع أستاذنا المشرف على الخوض في مثل هذه المواضيع التي تتعلق بتاريخ البلاد المغاربية إبان الحكم العثماني لإنارة القارئ بما كان يعانيه أسلافنا من صعوبات في الحياة، ربما كانوا في مأمن عنها لو أداروا شؤونهم بأنفسهم.

3- عثرنا على معلومات تشير إلى أنه كانت هناك حروب دائمة بين الجزائريين والتونسيين أثناء الحكم العثماني لهم في كتابين وهما: كتاب أوراق في تاريخ الجزائر للأستاذ الدكتور هلايلي حنيفي وكتاب الجزائر وأوربا للأمريكي وولف جون. ومن ثم أعطتنا هذه الإشارات وميض أمل للانطلاق في التفكير الجدي لبلورة الفكرة حتى تكون عنوانا صالحا للبحث المراد دراسته.

4- حَثْ ونصح زميل لنا يملك عددا لا بأس به من المصادر عن الموضوع بضرورة المضي قدما في هذا النهج، وهذا طبعا بعد عرض الفكرة على أستاذنا المشرف.

5- توفر المصرادر المحلية الجزائرية والتونسية على حد سواء، وإسهابها في الحديث على الخلاف بين الإيّالتين العثمانيتين الذي ما فتئ يتطور إلى صراع دام، أنهى حياة كم من حاكم كانت نفسه تتوق للظفر بحكم إحدى البلدين، ولكن رغبته تلك كانت سببا في نهاية حياته.

6- لا زال الموضوع بكرا و ينقصه البحث والتنقيب، فالدراسات التي أجريت لم تتكلم عنه مباشرة وإنما كان قضية لا تعدو أن تكون قضية هامشية، وعلى الرغم من ذلك فقد قمنا بدراسة الموضوع من زاوية محددة.

7- الرغبة في القيام بهذه الدراسة للخروج من الطابع العام للعلاقات الذي ألفه القراء، و إبراز جزء محدد من طبيعة العلاقات بين الإيّالتين.

3- الإطار الزماني و المكاني للبحث:

حددنا الإطار الزماني للبحث بداية من عام 1587م تاريخ تغيير الدولة العثمانية للنظام السياسي بإيّالة الجزائر، من نظام البايلربايات إلى نظام الباشوات، وما ترتب عنه من فصل تونس وطرابلس عنها، حتى عام 1830م تاريخ احتلال فرنسا للجزائر، وقد حرصنا على الرجوع للفترة السابقة لهذا الإطار، من بداية القرن السادس عشر ميلادي، ليتسنى للقارئ فهم الموضوع والإحاطة به من بعض جوانبه، كالظروف الداخلية والخارجية للجزائر و تونس.

وفيما يخص الإطار المكاني فيشمل الرقعة الجغرافية للإيّالتين الجزائرية والتونسية آنذاك.

4- أهداف البحث:

توخينا من الدراسة بلوغ الأهداف التالية:

1- الوقوف على أوضاع الجزائر وتونس خلال القرن السادس عشر ميلادي.

2- التعرف على الأسباب المفضية للصراع بين الإيالتين العثمانيتين.

3- تتبع المراحل المختلفة للصراع و تحديد نتائجه.

4- تعزيز مجهودات الباحثين في هذا المجال.

5- المساهمة في إثراء الدراسات التاريخية حول الجزائر و تونس إبان الحكم العثماني.

5- الإشكالية:

لدراسة الموضوع أثرنا بعض الأسئلة، وحاولنا الإجابة عليها، لعلنا نستوفي بها جوانب البحث و منها:

- كيف كانت ظروف الإيّالتين الجزائرية والتونسية أثناء القرن السادس عشر ميلادي؟ و ما هي الأسباب التي أدت إلى الصراع بينهما ؟

- ما هي مظاهر الصراع ومراحله المختلفة؟

- كيف عالجت الدولة العثمانية هذا المشكل؟ و إلى أي مدى نجحت في إنهائه؟

6- المنهج المتبع في البحث:

بعد أن ارتسمت لنا صورة واضحة عن البحث ، بدأنا في معالجة الإشكالية بصياغة الموضوع وفقا للمادة المتوفرة، و اتبعنا في ذلك المنهج التاريخي التركيبي، الذي يقوم على استغلال الوثائق المختلفة و المصادر التاريخية و المقارنة، وصولا إلى مرحلة التركيب و الاستنتاج. ما فرض علينا ضرورة البحث في جملة من القضايا ذات الصلة.

7- الخطة المعتمدة:

إن الإجابة عن هذه التساؤلات اقتضت تقسيم هذا البحث إلى مقدمة، وثلاثة فصول، يتكون كل فصل من عناصر و العناصر بدورها من فروع، وأنهينا الدراسة بخاتمة، أتبعناها بعدد من الملاحق المختلفة ثم الفهارس.

تطرقنا في المقدمة إلى الأهمية العلمية للموضوع، ودواعي اختيارنا له، ثم حددنا الإطار الزماني والمكاني، بعدها طرحنا الإشكالية و بيّنا المنهج المتبع في البحث و أردفنا ذلك بتوضيح الخطة المعتمدة، كما عرفنا ببعض الدراسات السابقة التي تناولت محطات معينة من البحث و المصادر والمراجع الهامة، و أخيرا ذكرنا الصعوبات التي واجهتنا في عملية البحث.

أما الفصول فكانت كالآتي:

الفصل الأول بعنوان: أوضاع الجزائر وتونس خلال القرن 10هـ/ 16م، وهو بمثابة فصل تمهيدي للدخول إلى صلب الموضوع، وقد اضطرتنا المادة العلمية التي جمعناها و الإطار الزماني إلى تقسيم البحث بهذا الشكل ومنه قسمنا الفصل الأول إلى العناصر التالية:

1- أوضاع الجزائر خلال القرن 10هـ/ 16م تطرقنا فيه إلى أوضاع المغرب الأوسط قبيل تأسيس الإيّالة، و الإحتلال الإسباني لسواحله، لأنه من الأسباب الرئيسية لقدوم العثمانيين، و تحريرهم لتونس.

2- أوضاع تونس خلال القرن10هـ/16م، أوضحنا من خلاله ظروف الدولة الحفصية في آخر أيامها، وكيف كانت محلا لمختلف التجاذبات السياسية.

3- العلاقات بين إيّالة الجزائر وتونس 1574-1587م: حاولنا أن نوضح العلاقة بين الإيّالة الجزائرية وتونس الحفصية ثم مع تونس العثمانية، وظروف فصلها عن إيّالة الجزائر، مع وفاة العلج علي باشا 1587م.

أما الفصل الثاني فوسمناه بـ: مظاهر الصراع بين الإيّالتين الجزائرية و التونسية 995هـ/1587م- 1117هـ/1705م.

لم نجد ولا مظهرا واحدا للصراع قبل معركة السطارة1037هـ/1628م، ما عدا إشارات إلى أنه وقعت معركة عام 1614م ولكننا لم نجد معلومات كافية حولها، لذا حاولنا توضيح الأسباب الأولى التي أفضت إلى ظهور الصراع و يحتوي الفصل على العناصر التالية:

1- الصراع بين باشوات الجزائر ودايات تونس: أستهلينا العنصر بتبيان أسباب التوتر المختلفة، ثم قيام التمرد ضد البلوكباشية، الذي كان هدفه قطع تدخل الجزائر، وتطرقنا للاتفاقية الخاصة برسم الحدود1614م، ثم معركة السطارة.

2- الصراع بين دايات الجزائر و البايات المراديين: طغت على أحداث هذا الفترة الحرب بين الأخوين محمد و علي.

3- الصراع ضد البايين مراد الثالث و إبراهيم الشريف، حيث اتسم عهد الأول بنقل المعارك إلى التراب الجزائري ونهاية حكمه كانت خاتمة لحكم الأسرة المرادية، ثم عودة الصراع بين الجزائر و الباي إبراهيم الشريف.

و الفصل الثالث عنوانه: مظاهر الصراع بين الإيالتين الجزائرية والتونسية 1117هـ/1705م- 1246هـ/1830م. تضمن ثلاثة عناصر أساسية وهي:

1- الفتنة الحسينية الباشية: تعد أهم حدث طغى على مستوى العلاقات بين الإيّالتين وتدخل الجزائر فيها، في النصف الأول من القرن الثامن عشر ميلادي، الذي أدى إلى تنصيب علي باشا بايا مقابل تنفيذ شروطها.

2- سياسة علي باشا و ابنه حمودة تجاه الجزائر، لم تشهد العلاقات بين الإيالتين أي توتر في القرن الثامن عشر، حتى بداية القرن التاسع عشر ميلادي، حيث بدأت المواجهات بين الطرفين، متخذة أشكالا أخرى كظهور الحرب البحرية، وتدخل الدولة العثمانية للصلح عدة مرات آخرها كان سنة1821م.

3- موقف إيّالة تونس من احتلال فرنسا للجزائر: قسمناه إلى فرعين، الأول يخص موقف أهالي إيّالة تونس من قضية الاحتلال و هو قصير، أما الفرع الثاني يتضمن موقف حسن باي المؤيد للاحتلال الفرنسي للجزائر.

و أخيرا توصلنا إلى الخاتمة التي ضمناها مجموعة من الاستنتاجات كنا قد توصلنا إليها أثناء عملية البحث، يلي الخاتمة عدد متواضع من الملاحق و التي حرصنا على عدم الاكثار منها خشية الافراط فيها و الوقوع في اختلالات قد تعيب البحث.

8- التعريف بأهم مصادر ومراجع البحث:

جذبت أحداث الصــراع المرير و الدائر بين الإيالتين السابقتـين الذكر اهتمام أكثر من واحد من الباحثيــن و المؤرخين، فقد تخللت أحداث الصراع كتبهم العديدة التي أثـروها بالوصف و التحليـل ولكن ما كتب لا يخرج عـن إطار العلاقات السياسية والعسكرية و شيء قليل عن الجوانب الأخرى، وأسهبوا في ذكر تفاصيل سلسلة تلك المعارك الدموية بين الحكام، ولم يقتصر الاهتمام على مـؤرخي الدولتين فقد شد انتباه بعض الأوربيين. ومن الدراسات التي تطرقت لموضوع بحثنا مذكرة لنيل شهادة الماجستير في تخصص التاريخ الحديث والمعاصر للطالبة حصام صورية بعنوان " العلاقات الجزائرية التونسية خلال القرن الثامن عشر ميلادي، معهد التاريخ، جامعة وهران، السانية، 2004م.

وهناك أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث للأستاذ الدكتور بن خروف عمار المعنونة ب" علاقات الجزائر السياسية مع تونس في عهد الدايات 1671-1830م" قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة دمشق 1996م، و هي غير منشورة، ولكننا للأسف الشديد لم نتحصل على الأطروحتين.

كما أن كتاب أوراق في تاريخ الجزائر للأستاذ الدكتور هلايلي حنيفي؛ قد تضمن جزءا كبيرا من تاريخ العلاقات بين الإيالتين، بدءا من تاريخ ضم تونس للدولة العثمانية حتى تاريخ الغزو الفرنسي للجزائر عام 1830م. أما ما كتبه الأوربيون عن الموضوع فهناك دراسة قيّمة أجراها روسو ألفونسو"Rousseau Alphonse " ترجمـان و قنصل فرنسا بتونس، حيث ساعده منصبه للقيام بهذا العمل، و عنوانها" Les Annalles Tunisiennes" وقد ترجمها إلى العربية الوافي محمد عبد الكريم، حيث تناولت بالدراسة جزءا هاما من موضوع الصراع، و لقد كانت استفادتنا كبيرة من هذه الطبعة المترجمة.

ومما يجب الإشارة إليه، أن هذه الدراسات وفرت لنا مادة تاريخية هامة ساعدتنا في إنجاز هذا البحث، كما أرشدتنا لعدد كبير من المصادر التي كنا نجهلها و بذلك وفرت علينا وقتا كبيرا في عملية البحث عنها.

إعتمدنا على مجموعة من المصادر لكون البحث يرتبط بها كما هي مبينة في العنوان، والمصادر هذه تصنف إلى أقسام منها الوثائق الأرشيفية والمؤلفات المخطوطة و المطبوعة، بالإضافة إلى عدد من المراجع باللغتين العربية والأجنبية وبعض الدراسات الأخرى، كالمقالات التي لها صلة بموضوع العلاقات العسكرية بين الجزائر وتونس من أواخر القرن السادس عشر إلى غاية نهاية الثلث الأول من القرن التاسع عشر ميلادي.

I – الوثائق:

عندما بدأنا عملية جمع المادة العلمية وجدنا عدة وثائق مخطوطة تخص الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر خاصة في القرن السادس عشر والتاسع عشر الميلاديين، وهي المتمثلة في وثائق دفتر مهم عبارة عن مراسلات بين سلاطين الباب العالي و بايلربايات الجزائر بشأن تحرير سواحل المغرب الإسلامي من الاحتلال الإسباني، وخاصة تحرير بجاية وتونس، التي بينت حرص هؤلاء على تطهير و حماية البلاد الإسلامية من أي خطر قد يلحق بها.

أما وثائق خط همايون فهي عبارة عن مراسلات بين السلاطين ودايات الجزائر وحتى بايات تونس في بداية القرن التاسع عشر ميلادي، نصت في مجملها على إرادة حكام الباب العالي لإنهاء الصراع بين الإيّالتين.

كما أننا عثرنا أثناء تفحصنا لبعض ما يزخر به الأرشيف الوطني الجزائري، على رسالة هامة من الصدر الأعظم العثماني، مؤرخة بعام 1816م تبين محاولات الدولة العثمانية التي كانت تقوم بها لإقامة الصلح بين الطرفين المتصارعين، إضافة لرسائل أخرى تحصلنا عليها في الأرشيف الوطني التونسي و أرشيف المكتبة الوطنية بالجزائر وتونس كذلك.

II– باللغة العربية:

1– المصادر المخطوطة:

وجدنا أثناء عملية البحث عدة مخطوطات تخص تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، خاصة في القرن السادس عشر ميلادي، ولكنها لم تخدم موضوع البحث بطريقة مباشرة والاستفادة منها كانت قليلة، وهي مخطوط رقم 1626 بالمكتبة الوطنية الجزائرية "الزهرة النائرة فيما جرى في بلاد الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة"ل: التلمساني محمد بن محمد عبد الرحمان، وهناك مخطوط كذلك برقم 1623 بعنوان الخبر عن قدوم عروج رايس إلى الجزائر و قدوم أخيه خير الدين". كما وجدنا ثلاثة مخطوطات بالمكتبة الوطنية التونسية، الأولى ل: المنوي محمد الفراتي الصفاقسي، تاريخ عروج رايس و أخيه خير الدين بمدينة الجزائر، رقم 0231، والثانية ل: ابن أحمد محمد الطاهر، ذكر طرف ولاية المرحوم السيد صالح باي أمير بلد قسنطينة، رقم 00263، و الثالثة ل: ابن عبد العزيز حمودة بن محمد بعنوان الكتاب الباشي في جزئه الثاني غير المحقق تحت رقمA.MSS-18666 ، لأن الجزء الأول كان قد حقق من طرف المؤرخ ماضور محمد .

2- المصادر المطبوعة:

- غزوات عروج وخير الدين لمؤلف مجهول، تعريب نور الدين عبد القادر، يعد مصدرا هاما لتاريخ الجزائر في بداية القرن السادس عشر الميلادي و قد حصلنا على هـ ذا المصدر الهام بشق الأنفس و بالصدفة فقط، بعد أن فقدنا الأمل تماما في العثور عليه ، و يعود هـذا إلى طبعته القديمة. يؤرخ الكتاب لدخول العثمانيين إلى الجزائر، و محاولاتهم الحثيثة لتحرير سواحل المغرب الاسلامي، كانت استفادتنا منه كبيرة حيث غطى لنا جزءا هاما من الفصل الأول خاصة فيما يتعلق بالعلاقات الأولى بين الدولة الحفصية و إيّالة الجزائر في السنوات الأولى من تأسيسها.

- مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار: حققها الدكتور المدني أحمد توفيق، يعد هذا المصدر بحق شاهدا لتاريخ الجزائر العثماني في النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي، ويحتوي على أحداث غزيرة أفادتنا في موضوع البحث هذا، في فصله الأخير ولازمنا طيلة إنجازه، وقد كان سندا رئيسيا للمقارنة بما كتبه مؤرخو الدولة التونسية.

- تاريخ بايات قسنطينة: لمؤ لف مجهول، و هو في الأصل مخطوط حققه الدكتور حساني مختار من جامعة الجزائر على الرغم من صغر حجم الكتاب إلا أنه يحتوي على أحداث مميزة لتاريخ بايات قسنطينة، لكونها عاصمة بايليك الشرق، المحاذي للإيّالة التونسية، وشكل محور الصراع الدائر بينهما آنذاك.

- تقيدات ابن المفتي: لابن المفتي حسين بن رجب شاوش، هذا الكتيب على الرغم من حجمه الصغير، أفادنا كثيرا في بحثنا، لأنه يوضح بصفة كبيرة مجريات الصراع بين الإيّالتين، ويذكرها بوضوح وتطابق مع ما ورد في بعض المصادر الجزائرية أو التونسية، غطى بعض الأحداث في البحث في القرن الثامن عشر حتى نهاية حكم حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية.

- إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان: يتكون من ثماني أجزاء في أربع مجلدات لمؤلفه التونسي ابن أبي الضياف أحمد الذي ولد عام 1219 هـ/1804م، كان مولعا بكتاب الخلاصة النقية للباجي المسعودي على عكس الكتاب الباشي لمؤلفه الشيخ ابن عبد العزيز حمودة، وعلى كل فإن هذا الكتاب يؤرخ لتونس في فترة طويلة جدا، تبدأ من الفتح الإسلامي إلى غاية أواخر القرن التاسع عشر ميلادي تاريخ وفاة المؤلف 1291هـ/1874م وعلى الرغم من معاصرته لفترة قصيرة من زمن فترة البحث، إلا أنه يعد مصدرا هاما لا يمكن لأي باحث في تاريخ تونس أثناء حكم الأسرتين المرادية و الحسينية و علاقاتها الخارجية خاصة مع الجزائر وأوربا، أن يستغني عنه.

وقد أفادنا كثيرا في الفترة من منتصف القرن الثامن عشر حتى نهاية الفترة قيد الدراسة، في جزأيه الثاني والثالث من المجلدين الأول والثاني. فيما يخص مظاهر التقاتل على السلطة بتونس الذي كان يؤدي إلى تدخل الجزائر وبالتالي قيام الحرب بين طرفي السلطة، وحتى العلاقات مع فرنسا كون الأخيرة كانت ترتبط مصالحها الاقتصادية بالإيّالتين أكثر من أي بلد آخر.

- الخلاصة النقية في أمراء إفريقية: لـ المسعودي الباجي أبي عبد الله الشيخ محمد المولود 1225هـ/1810م، وقد عاش زمن المؤرخ ابن أبي الضياف أحمد، والكتاب عبارة عن مختصر للأحداث التي جرت في تونس منذ الفتح الإسلامي إلى تاريخ وفاته 1297هـ/1880م، اعتمد على تصنيفها وفق حكم الدايات و البايات المراديين ثم الحسينيين، يتميز بصياغة جيدة و أسلوب سهل وبسيط.

استفدنا من هذا المؤلف أكثر من أي كتاب آخر، ذلك لأنه تضمن كل الأحداث التي مثلت مظاهر الصراع وأسبابها، بما فيها جزئيات التناحر على السلطة في تونس و المفضية إلى الاستنجاد بالجزائر، وهو ما لم نجده في غيره على الرغم من أنه يعد مصدرا بالدرجة الأولى للفترة الحسينية.

- المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي: لمؤلفه ابن يوسف الباجي محمد الصغير، الكتاب عبارة عن أربعة أجزاء ويعد أهم مصدر لتاريخ الأسرة الحسينية على الإطلاق في تونس، فقد شد انتباه أحد الفرنسيين وقام بترجمته إلى الفرنسية، يدرس جل ما يتعلق بخصائص حكم الحسينيين في تونس، لذا فقد استفدنا من الجزء الثاني أكثر.

- نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار: لمؤلفه مقديش محمود بن سعيد الصفاقسي المتوفى عام 1228هـ/1814م، وهو في جزأين تحصلنا على الجزء الأول من مصلحة المؤلفات النادرة بأرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، غير أنه لم يفدنا كثيرا، على عكس الجزء الثاني المتوفر و الذي خدمنا في الفصلين الثاني و الثالث، ويأخذ على الكتاب أنه يتشابه كثيرا في ذكر الأحداث مع المؤلفات الأخرى و خاصة كتاب الخلاصة النقية.

- المرآة: لخوجة حمدان بن عثمان ، ينتمي إلى أسرة جزائرية عريقة، لها باع طويل في إدارة أمور الإيّالة، ولد المؤلف عام 1773م، وبحكم مكانة والده الفقيه و خاله الحاج محمد، أمين السكة، تَكوّنَ حمدان أفضل تكوين في عصره ومنه برزت شخصيته المؤثرة في الأوساط الجزائرية، يعد من أهم شاهدي العيان للأحداث التي عرفتها الإيّالة بداية القرن التاسع عشر، خاصة تلك المتعلقة بالصراع الجزائري التونسي و الاحتلال الفرنسي، وعليه استفدنا كثيرا من هذا الكتاب في الفصل الثالث في شقه المتعلق بسياسة حمودة باشا والموقف التونسي من الاحتلال الفرنسي للجزائر.

- تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي 1792- 1873م: للمؤلف فايست أوجين (Vayssettes (E ترجمة نور صالح، تقديم شيبان عبد الرحمن، يعد مصدرا هاما لتاريخ الشرق الجزائري في أواخر العهد العثماني، فالكتاب يزخر بمعلومات عجز عن ذكرها بعض المؤرخين، لأننا لم نجدها في كتب أخرى كما يتميز بذكر أدق التفاصيل في زمن زادت فيه أطماع فرنسا لاحتلال الجزائر بعد توتر العلاقات بينهما من جهة وبين الجزائر وتونس من جهة ثانية.

3- المراجع:

- محمد عثمان باشا داي الجزائر(1766-1791م): للدكتور المدني أحمد توفيق، على الرغم من أن الكتاب يخص ترجمة شخصية الداي محمد بن عثمان، إلا أنه يحتوي على تفاصيل مختصرة و مهمة تخص كل حكام الجزائر منذ عهد البايلربايات حتى تاريخ وفاة الداي محمد. وقد أفادنا كثيرا في معرفة تفاصيل بعض فترات الحكم التي شهدت الصراع.

- أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني: للأستاذ الدكتور هلايلي حنيفي، تضمن الكتاب فصلا مهما من تاريخ الإيّالتين منذ تحرير تونس عام 1574م حتى تاريخ احتلال فرنسا للجزائر، وهذا الفصل معنون بـ: " فشل تجربة الوحدة بين الجزائر والمغرب وتونس خلال العهد العثماني"، يتضمن المحطات الكبرى في الصراع بين الإيّالتين، إضافة للتحالف بين تونس والمغرب لضرب الجزائر. وعليه كان هذا الفصل بمثابة الإطار العام لسير عملية البحث، كما أحالنا على بعض المصادر التي تخدم الموضوع التي كنا نجهلها.

- سياسة حمودة باشا في تونس 1782- 1814م: للدكتور التونسي رشاد الإمام، كتاب مهم ضمنه صاحبه كل الأحداث التي نشبت في عهد الباي المذكور بين الإيّالتين، والتي تعد الأخيرة في سلسلة الصراع المرير بين الإيّالتين وذكرها بالتفاصيل والجزئيات، في حين اكتفى بذكر أحداث أخرى دون حيثياتها، لأنه كان يركز على سياسة حمودة باشا وشغله الشاغل للتخلص من التبعية للجزائر.

- خلاصة تاريخ تونس: للمؤلف حسني عبد الوهاب حسن، تضمن أحداثا لم نجدها في العديد من المصادر التونسية، كقضية الحدود بين الإيّالتين ومعركة السطارة ما عدا في الوثائق الأرشيفية، على الرغم من أن الكتاب يؤرخ لتاريخ تونس منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية حكم الأسرة الحسينية.

- موجز تاريخ الجزائر 1500- 1830م: للدكتور بوعزيز يحي يحتوي الكتاب في جزئه الثاني على كل الأحداث المتعلقة بتاريخ الجزائر العثمانية، لذا فقد لازمنا طيلة مراحل البحث، وخاصة في الفصل الأول، كما يحتوي على قائمة لكل حكام الجزائر إبان الفترة الحديثة.

– الحوليات التونسية منذ الفتح العربي إلى احتلال فرنسا للجزائر كتاب للمستشرق البارون ألفونسو روسو، الذي عملت عائلته في السلك الديبلوماسي أكثر من أي عائلة أوربية أخرى لحبها وشغفها بالعمل القنصلي، نقلها عن الفرنسية ونقحها وحققها وضبطها بأمهات المصادر التونسية وقدمها بدراسة نقدية، الدكتور محمد عبد الكريم الوافي.

يؤرخ الكتاب لفترة طويلة تمتد من 1535م حتى 1830م، يعد هذا أهم مرجع ساعدنا في عملية البحث، ولازمنا طيلة مراحله، يحتوي على معلومات جد قيّمة، حرص محققه على مقارنتها بكل ما ورد في المصادر التونسية الواردة في حواشيه خاصة كتاب إتحاف أهل الزمان لابن أبي الضياف، يحتوي على كل الأحداث الخاصة بالحروب بين الإيّالتين و أورد أحداثا لم تذكرها المصادر أو أحجمت عن ذكرها، أوردها بالتفصيل وذكرٍ لجزئياتها وحيثياتها.

– الأتراك العثمانيون بشمال إفريقيا: لمؤلفه سامح عزيز ألتر، ترجمه الدكتور محمود علي عامر، يعد من أهم المراجع التي اعتمدنا عليها، في الفصل الأول خاصة، يؤرخ لفترة طويلة من تاريخ الجزائر العثماني، والكتاب يحتوي على أحداث كثيرة تخص موضوع البحث، نظرا لضخامته فهو يفوق 700 صفحة، و يشير إليها المؤلف بوضوح، ولكنها على الرغم من ذلك تبقى سطحية.

III– باللغة الأجنبية:

أولا– الوثائق المنشورة:

لقد نُشرت الكثير من الوثائق التي تخص تاريخ الإيّالتين الجزائرية والتونسية في الفترة المدروسة سواء في المؤلفات أو المجلات التاريخية التي كانت الاستفادة منها كبيرة وهي:

– مجموعة الوثائق التي نشرها بلانتي أوجين (Plantet (E، و منها الجزء الثالث من القسم الأول بعنوان مراسلات بايات تونس وقناصل فرنسا مع البلاط الفرنسي ما بين سنتي (1770-1830م).

- Correspondance des Beys de Tunis et des consuls de France avec la cour, (1770-1830), Paris, Ancienne Librairie, 1899.

وقد نشرها في ثلاث مجلدات مابين 1893-1899م بباريس، حيث استفدنا من الجزء الثالث فقط وهو يغطي فترة هامة من تاريخ الصراع بين الإيالتين بعد اعتلاء حمودة باشا للعرش الحسيني و التحول من المواجهة البرية إلى البحرية.

إضافة لذلك الدور الذي كان يقوم به هؤلاء القناصل في تأجيج الصراع، وتدعيم طرف على حساب آخر ولم تكن مهمة التمثيل الديبلوماسي إلا أمرا ثانويا بل كان التجسس ونقل الأخبار هو شغلهم الشاغل، كما تبين إحدى المراسلات أن القناصل كانوا يرافقون الجيش التونسي إلى أرض المعركة وينقلون أخبارها لأسيادهم، وهذا كي تتخذ الإجراءات المناسبة للحفاظ على المصالح.

أما القسم الثاني فعنوانها مراسلات دايات الجزائر مع بلاط فرنسا (1579- 1700م).

-Correspondance des Deys D'Alger avec la cour de France, (1579-1700).

تخدم هذه المراسلات بالدرجة الأولى تاريخ الجزائر في جانب علاقاتها مع فرنسا، وقد خدمتنا في قضية الامتيازات الخاصة باستغلال المناطق المرجانية، لأن هذه القضية مشتركة بين الإيّالتين.

ثانيا– المصادر:

_ De Paradis (Venture), Tunis et Alger au XVIII siècle.

كتاب هام جدا يتناول تاريخ تونس والجزائر خاصة في القرن الثامن عشر ميلادي، لأن صاحبه كان مترجما في القنصلية الفرنسية بتونس في السنوات 1780- 1786م ثم عين مترجما بقنصلية فرنسا بالجزائر ما بين سنتي1788- 1790م. استطاع في ظرف وجيز أن يكتب تقارير تحتوي معلومات كثيرة ودقيقة تخص تونس والجزائر بحكم منصبه، جمعها الفرنسي " جوزيف كوك " " J.Couq" ونشرها بالعنوان الذي أوردناه أعلاه. أفادنا في الفصل الثالث لكونه مصدرا ألف في مرحلة حرجة من تاريخ العلاقات بين الإيّالتين وهو لا يشير إلى الصراع مباشرة ولكن يوضح الظروف العامة ومظاهر الحياة في البلدين.

-De Haedo (Fray Diego), Histoire des Rois D'Alger.

كتاب مهم جدا لكتابة تاريخ الجزائر في العهد العثماني ، فمن غير الممكن أن يدرس باحث ما في هذه الفترة دون الاستعانة به. قام بترجمته عن الإسبانية الفرنسي دو غرامون(De Grammont)، استعنا به في الفصل الأول دون غيره من الفصول، لأن المؤلف كان أسيرا بالجزائر خلال القرن السادس عشر.

ثالثا– المراجع: من أهمها.

-Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830).

يعد الكتاب من أهم المؤلفات الأجنبية والفرنسية على الخصوص لتاريخ الجزائر العثماني، حيث يدرس الشق السياسي و العسكري أكثر من أي جانب آخر، وقد خدمنا في الشق المتعلق بتحرير تونس.

هذا ونشير إلى أننا استعنا بمجموعة من المقالات المنشورة في المجلات كالمجلة الإفريقية، حتى وإن لم نجد بها مقالات خاصة بالصراع إلا واحدة، و مجلة الأصالة والمجلة التاريخية المغاربية، الصادرة بتونس عن مؤسسة عبد الجليل التميمي للبحث العلمي، ونذكر كذلك استفادتنا من بعض المذكرات التي تتناول بعض جوانب البحث.

9- الصعوبات التي اعترضتنا في إنجاز هذا البحث:

واجهتنا عند إنجاز هذا البحث المتواضع جملة من الصعوبات والعقبات، ولا يكون البحث بحثا إلا إذا تعرض صاحبه إلى مثل هذه المتاعب، ولا تقاس الأعمال بالمصاعب، ومن الصعوبات المعترضة نذكر ما يلي:

- طبيعة الموضوع المتعلق بالعمل بالمصادر، و التي من بينها المصادر التونسية، مما دفعنا إلى السفر إلى تونس، ولكن ضيق الوقت و التكاليف المرتفعة حالا دون الوصول إلى نتائج جد إيجابية.

- ضيق الوقت لإنجاز هذه المذكرة، فعام واحد للتطبيق غير كاف، خاصة وأن لدينا مسؤوليات كبيرة ملقاة على عاتقنا، منها التدريس بالثانوي خاصة الأقسام النهائية، ومتطلبات الأسرة، إضافة إلى عدم الاستقرار.

- عدم توفر المصادر و المراجع باللغة الأجنبية، تخص موضوع الدراسة، وما توفر منها فلا يخدم الموضوع بصفة مباشرة فضلا على صعوبة الترجمة التي كانت تواجهنا، والشيء نفسه ينطبق على المجلة الإفريقية.

- صعوبة المقارنة بين الأحداث التي وردت في المصادر الجزائرية وتلك التي وردت في المصادر التونسية، فالبحث عن كل حدث يستغرق وقتا طويلا، وهناك أحداث تذكرها مصادر ولا تذكرها المصادر الأخرى والعكس، مما أجبرنا على الاستعانة بالمراجع.

- تعذر علينا الحصول على بعض المصادر، والرسائل الجامعية، التي لها صلة مباشرة بالموضوع.

- صعوبة الحصول على المادة العلمية الموجودة في الأرشيف، لعدة أسباب منها ضيق الوقت والطريقة التي يتعامل بها الأرشيف الجزائري في تقديم عدد قليل من الوثائق على عكس الأرشيف التونسي.

الفصل الأول

أوضاع الجزائر وتونس خلال القرن10هـ/16م

وبوادر الصراع بينهما

أولا- أوضاع الجزائر خلال القرن10هـ/ 16م

ثانيا- أوضاع تونس خلال القرن 10هـ/ 16م

ثالثا- علاقات إيّالة الجزائر بتونس 1518- 1587م

تمثل الأحداث التي شهدها المغرب الإسلامي، في بداية القرن العاشر الهجري، السادس عشر ميلادي، وضعا خاصا مهد لظهور العثمانيين بالمنطقة، و بعد أن استقروا بمصر، أصبحوا قريبين جدا من هذه الأرجاء، ولكن تواجدهم في هذا الجزء الضيق من شمال إفريقياكانت تتهدده مخاطر جمّة، لعل أبرزها الإحتلال الإسباني و الكيانات السياسية القائمة. لذا فالبحث عن قاعدة أخرى لتوسيع تواجدهم كان أمرا ملحا، وهكذا وقعت أنظارهم على مدينة الجزائر التي اتخذوا منها قاعدة لهم.

وفرت هذه القاعدة من خلال موقعها الإستراتيجي الذي يتوسط تقريبا الساحل، فضلا عن ما تزخر به من ثروات ظروفا ملائمة لحماية سواحل شمال إفريقيا، من الخطر الإسباني، الذي كان يهددها باستمرار، وحتى من الإعتداءات التي كانت تشنها القوى الأوربية من حين لآخر، كما ساهموا في نجدة مسلمي الأندلس بنقلهم إلى بلاد المغرب غير البعيدة عبر سنوات متعددة.

فالتواجد العثماني بالجزائر أثّر على استقرار الدولة الحفصية بتونس، ذلك لأن ملوكها قد بلغوا درجة كبيرة من الضعف فخافوا على زوال ملكهم، لذا فقد استنجدوا بالإسبان لتقويض التواجد العثماني ليس بالجزائر فحسب بل حتى بشمال إفريقيا، و لم تسلك هذه الدولة هذا النهج بمفردها فالدولة الزيانية تعاونت معهم أيضا أي مع الإسبان خصوصا أنهم كانوا قريبين منها بوهران و المرسى الكبير المحتلتين، و هذا خوفا على سلطتهم من الزحف العثماني المتجه نحو الغرب و تعدت حالة الخوف هذه إلى السعديين كذلك على ملكهم، لذا سيحاولون التحالف مع الحفصيين و حتى الزيانيين للقضاء على العثمانيين، هؤلاء لم تكن قوتهم ليستهان بها لهذه الدرجة فقد قضوا على ممالك عديدة في الشرق.

تمثلت قوة العثمانيين بالمغرب الإسلامي في تواجد الإخوة برباروس في بادئ الأمر، من خلال أسطولهم الصغير الذي سيكون له شأن كبير في البحر الأبيض المتوسط، و المئات من الجنود الإنكشاريين، و مهما يكن من أمر العثمانيين و تواجدهم بالحوض الغربي للمتوسط فإن الأوضاع العامة بالجزائر و تونس على الخصوص طغت عليها أحداث الصراع العسكري الدائر بين العثمانيين إنطلاقا من الجزائر و الإسبان و حلفائهم من الحفصيين و الزيانيين طيلة القرن السادس عشر ميلادي تقريبا.

تصادم الدولتين الإسبانية و العثمانية في كم من موقعة زاد من عزيمة الأخيرة لفرض وجودها على أرض الواقع، و ذلك بعثمنة طرابلس الغرب و تونس على التوالي، و تصفية الاحتلال الإسباني من معظم سواحل شمال إفريقيا، و لم يتسن لها ضم مملكة السعديين بأقصى المغرب، هذا ما أضفى على المنطقة نمطا جديدا من الحكم تجلّت معالمه أكثر مع نهاية القرن.

أولاـ أوضاع الجزائر خلال القرن 10هـ/16م:

سقطت دولة الموحدين عام 668هـ/ 1269م، بعد أن حكمت أجزاء واسعة من شمال إفريقيا و الأندلس لفترة طويلة من الزمن، وقامت على أنقاضها ثلاث دويلات بالمغرب. و هي الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى و دولة بني عبد الواد بالمغرب الأوسط، و الدولة المرينية بالمغرب الأقصى. هذه الدويلات كانت متناحرة فيما بينها و كثيرا ما تغيرت حدودها الجغرافية و السياسية نتيجة لحالة الشد و الجذب فيما بينها، وخاصة الدولة الزيانية، لموقعها الوسط بين الحفصيين و المرينيين فضلا عن الضعف الذي أصابها منذ فترة.

1- أوضاع المغرب الأوسط نهاية القرن 15م و بداية القرن 16م:

مرّ المغرب الأوسط بمرحلة حرجة في تاريخه، خاصة مع نهاية القرن الخامس عشر و بداية القرن السادس عشر الميلاديين. تمثلت في التدخلات الأجنبية المتكررة في شؤونه الداخلية، من طرف الحفصيين في الشرق، و الوطاسين ثم السعديين في الغرب [(1)]. و لم يصل الوضع إلى هذا الحد بل تعداه إلى السيطرة أحيانا على عاصمة ملك الزيانيين تلمسان، و الحالة هذه أدت إلى تردي أوضاع بلاد المغرب الأوسط في جل المجالات و من مظاهر هذه الأوضاع نذكر ما يلي:

1. أ- سياسيا: يعد من أهم المظاهر التي تؤثر بشكل مباشر في مختلف مناحي الحياة الأخرى، و من أبرز الخصائص السياسية نذكر:

1- ضعف الدولة الزيانية، التي تراجع حكمها عن الكثير من المناطق و لم يتعد أحيانا أسوار العاصمة تلمسان حيث كان المتنافسون على الملك لا يجدون صعوبة في إعلان الحرب على السلطة القائمة [(2)]، و حتى قسنطينة فهاتين العاصمتين القديمتين في غرب المغرب الأوسط و شرقه، قد اعتمدتا على نفسهما في تسيير شؤونهما و لم تكترثا كثيرا بما يجاورها من أحداث فقد قاومتا أي هجوم خارجي لإخضاعها بنجاح ولكن ليس في كل مرة [(3)].

2- خضوع بعض أنحاء بلاد المغرب الأوسط لزعامات محلية، و التي كانت غالبا لا تدين بالولاء لأحد. و بذلك أصبحت هذه البلاد تشكل مجموعة من الكيانات السياسية المتطاحنة فيما بينها، فمثلا بلاد الزواوة خضعت لإمارة جبل كوكو، و مدينة الجزائر و ضواحيها تولى حكمها الثعالبة [(4)].

---

(1) الزبيري محمد العربي، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر 1985م، ص22 .

(2) المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492– 1792م، مج5، عالم المعرفة ن ت، الجزائر 2010م، ص63 .

(3) وولف جون ب، الجزائر وأوربا 1500- 1830م، ترجمة سعد الله أبو القاسم، دار الرائد، الجزائر 2009م، ص36.

(4) شوفاليه كورين، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، 1510م - 1540م، ترجمة حمادنة جمال، د م ج، الجزائر 1991م، ص 5.

3- ظهور التحرشات الإسبانية على سواحل المغرب الأوسط، حيث احتل هؤلاء المرسى الكبير عام 1505م ثم باقي الموانئ تباعا[1]، و بذلك ظهر كيان سياسي جديد (الإسبان) بالمنطقة مما جعلها كالفسيفساء سياسيا[2].

1. ب – اقتصاديا: نذكر منها:

1- انتشار الفقر بين القبائل لفقدها مصادر الرزق و التي من أهمها قطعان الماشية حيث كانت تسيطر على مناطق رعوية واسعة و سلبت منها نتيجة حالة الحرب الدائمة.

2- رفع الضرائب من طرف الحفصيين و الزيانيين أو حتى المرينيين لأنها تكاد تكون مصدر التمويل الدائم، و هذا كإجراء انتقامي نتيجة خضوع أو مساندة بعض القبائل لأحد أطراف النزاع.

3- فقدان موانئ حيوية كانت تنطلق التجارة منها و إلى أوربا، و كذا نحو باقي موانئ المغرب الإسلامي الأخرى مثل ميناء المرسى الكبير و ميناء هنين[*] و بجاية وغيرها.

1.ج – اجتماعيا: نذكر منها:

1- تفشي الفقر بسبب فقدان الأراضي الزراعية و الرعوية و المواشي، التي كانت بحوزة القبائل الضعيفة و المحايدة غير القادرة على الدفاع عن نفسها، و كثيرا ما أقحمت في خضم الصراع، الذي ميز هذه الفترة.

2- تفاقم المجاعة لسيادة الجفاف، و الطبيعة الصحراوية القاسية، للكثير من المناطق الجنوبية للمغرب الأوسط.

3- انتشار الأمراض التي كثيرا ما حصدت أرواح العديد من ساكني القرى، لانعدام العناية الصحية وقلة الأطباء وكثرة الحروب و الفاقة.

4- الهجرة السرية خوفا من الحروب و انتقام القبائل المتعاونة مع أطراف النزاع بالمغرب الإسلامي، أو حتى مع الإسبان بوهران و معاونيهم كقبائل بني عامر [3].

---

(1) التلمساني محمد بن محمد بن عبد الرحمن، الزهرة النائرة فيما جرى ببلاد الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة ، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1626، ورقة3.

(2) Julien (Charles André), Histoire de l'Afrique du nord de la conquête arabe a 1830, Alger, Société nationale de l'édition ét de la distribution, 2eme édition, 1980, p250.

(*) يقع بسواحل تلمسان بالمغرب الإسلامي. أنظر: الحموي ياقوت أبي عبد الله ، معجم البلدان ، مج5، دار صادر ، بيروت 1977م، ص419.

(3) المشرفي عبد القادر، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق وتقديم ابن عبد الكريم محمد، دار مكتبة الحياة للنشر والتوزيع، بيروت، د ت، ص14.

2- التحرشات الإسبانية على سواحل المغرب الأوسط:

عرفت شبه جزيرة أيبيريا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ميلادي أحداثا، كان لها بالغ الأثر على الوجود الإسلامي بالأندلس، ثم بالمغرب الإسلامي. فبعد الزواج الملكي بين إيزابلا ملكة قشتالة و فرديناند ملك أراغون عام 1469م، تم تضييق الخناق على المسلمين لمنعهم من أداء شعائرهم الدينية. و لم تكتف الدولة الناشئة بهذا العمل بل أكملت السيطرة على الإمارات الإسلامية التي بدأت السيطرة عليها منذ القرن الحادي عشر ميلادي باحتلال طليطلة عام 476هـ /1083م[1]، و بذلك تكون مملكة غرناطة التي كان يحكمها بنو الأحمر آخر معقل إسلامي يتم احتلاله عام897 هـ 1492م، لتبدأ معه معاناة هذه الفئة من المسلمين[2].

و مهما يكن من أمر فقدان ملوك الطوائف لإماراتهم الواحدة تلوى الأخرى، فإن هذه الوضعية شجعت إسبانيا و البرتغال على مد سيطرتهم خارج شبه الجزيرة، و عليه ستكون بلاد المغرب هي الخطوة الثانية و الهدف المنشود تحقيقه و بأي ثمن. فقد عمدت الدولتان لعقد اتفاقية ثوردي سيلاس(Tordesillsas)[3]، لتقسيم مناطق النفوذ بشمال إفريقيا، وكان ذلك عام 1494م. فبدأت إسبانيا باحتلال سواحل المغرب الشرقية انطلاقا من حجر بادس[*]، و طلبت من البابا "إسكندر السادس" [**] أن يسمح لها بالتوسع في أراضي تلك البلاد [4]، أما البرتغال فاحتلت الجزء الغربي انطلاقا من نفس النقطة (حجر بادس) باتجاه الغرب و الجنوب على طول الساحل الغربي للقارة الإفريقية. وهكذا ستجعل إسبانيا من سواحل شمال إفريقيا مناطق عسكرية للإنطلاق و احتلال نقاط بعدها، لعلها تحقق هدفها للسيطرة على البحر المتوسط.

سمحت هذه الاتفاقية لإسبانيا و البرتغال بتحديد مناطق الاحتلال لكل منهما، و ساعدت إسبانيا خاصة فيما بعد على تتبع آثار الموريسكيين الفارين بدينهم من بلدهم الأندلس ، و حتى مَنعهمْ من النزول في أماكن تواجد الإسبان بالمغرب في المناطق القريبة من مدينة وهران ، حيث تم ترحيل أعداد كبيرة من هم للمناطق المجاورة بمساعدة القبائل المتعاونة معهم، لذا سنجد أن هذه الفئة المغلوبة على أمرها ستحاول الانتقام بانضمامها إلى صفوف الجهاد البحري وتقديمها مختلف أشكال الدعم للبحارة المسلمين ضد العدو الإسباني المشترك.

---

(1) أبو راس الناصر محمد بن أحمد، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، تقديم و تحقيق غالم محمد، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثربولوجيا الاجتماعية والثقافية، الجزائر 2005م، ص 134.

(2)حتامله محمد عبده، موسوعة الأندلس و المغرب العربي، ط1، مج4، ج2، دار المدار الثقافية، البليدة (الجزائر) 2009م، ص 751.

(3) للمزيد أنظر: الجمل شوقي عطاء الله، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، ط1، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1977م، ص77.

(*) مدينة مغربية تقع بالقرب من مدينة الحسيمة و اسمها القديم "فاليز". أنظر: وولف جون، المرجع السابق، تهميش ص26.

(**) و هو البابا الرابع عشر بعد المائتين للكنيسة الكاثوليكية عين على رأسها عام 1492م حتى وفاته. أنظر: بيشي رحيمة العلاقات السياسية التونسية الاسبانية في أواخر الدولة الحفصية 1494 – 1574م، مذكرة ماجستير غير منشورة، المركز الجامعي غرداية، الجزائر2012م، تهميش4، ص33.

(4) المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص 72.

كان المرسى الكبير هو أول ميناء يحتله الإسبان في المغرب الأوسط، عام 910هـ/ 1505م كما سبق وذلك لإيجاد ميناء مناسب ترسو به السفن الإسبانية، و من ثم عملوا على احتلال باقي موانئ المدن الأخرى على طول الساحل الشمال الإفريقي، و بعد أربعة سنوات تقريبا و بدافع الحقد الديني من الأسقف خيمينيس "Ximenès" و غيره استطاعوا أن يحتلوا، كخطوة ثانية وهران عام 1509م، التي لم تسقط نتيجة التعصب الديني فحسب بل لعدم تكافؤ القوة بين الطرفين و خيانة اليهودي قابض المكوس المدعو أش بقوا، رغم أنه من المطرودين من إسبانيا و اشترى حاكم المرسى الكبير ذمته بذهب كبير[1]، و بعدها تم احتلال بجاية و طرابلس الغرب و غيرهما. لقد أحدث عنف الهجمات الاسبانية و المعاملة القاسية و الخشنة للسكان المحليين حالة من الرعب على طول الس واحل بشمال إفريقي ا و لمدة طويلة من الزمن [2]. مما أدى إلى نزوح سكانها نحو المناطق الداخلية عبر مراحل، خوفا على أنفسهم و ممتلكاتهم، لعلهم يجدون أماكن آمنة بعيدا عن أعين الأعداء، و لحسن حظ هؤلاء فالمحتلين لم يستطيعوا توسيع مناطق نفوذهم بعيدا عن الساحل، الذي تمثل مراسيه نقاط مباشرة للإبحار نحو أوربا.

و مما يلاحظ أن هذه الهجمات كانت تغذيها النزعة الصليبية من طرف الأساقفة أحيانا و من لدن الباباوات أحيان أخرى، هذا و نشير إلى أنه كثيرا ما أمرت الكنيسة الكاثوليكية بجمع الأموال لشن هذه الحملات، فمثلا تم الأمر بضرورة الاستمرار بدفع ضريبة (CRUSAD)[3]، لتمويل ملوك إسبانيا وقواتهم في حربهم ضد شعوب إفريقيا المسلمة[4]، و في مثل هذه الحملات كانت الحاجة تتطلب أموالا ضخمة و عدد كبير من الرجال و الأمر نفسه بالنسبة للدول و الأقاليم المدافعة عن نفسها.

جاء الدور بعد احتلال وهران على بجاية، الواقعة إلى الشرق من مدينة الجزائر و كانت خاضعة للأمير عبد الرحمن الحفصي لأن حدود الحفصيين كانت تصل إلى هذه المناطق. و يبدو أن الأمير كان في خلاف مع ابن عمّه عبد الله، هذا الأخير تغلب على الأول و جز به في السجن، إن هذا التقاتل على السلطة لم يكن وليد الساعة و إنما كان منذ مدة، و الأمر كذلك بالنسبة لدولة بني زيان في الغرب، وعليه فان التنافس على السلطة في دويلات المغرب الإسلامي كان الصفة الغالبة في هذه الفترة بالذات، خاصة و أنه يوجد من كان يستنجد بالإسبان والبرتغال لاعتلاء العرش، مما زاد من أطماع هؤلاء في البلاد التي تحولت إلى مناطق احتلال شبه دائم يصعب إنهاؤه بأي شكل[5].

---

(1) المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص100.

(2) وولف جون، المرجع السابق، ص26.

(3) Braudel (Fernand), Les Espagnole et L'Afrique du Nord de 1492 à 1577, Alger, R. Af, n°69, 1928, p201.

(4) المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص 72.

(5) المرجع نفسه، ص108.

أراد الإسبان من خلال احتلال بجاية أن يضعوا مدينة الجزائر بين فكي كماشة، ل تسهل عليهم السيطرة عليها، خاصة و أنهم قد أمنوا قواعدهم الخلفية، باحتلال المرسى الكبير و وهران، وكذا مساندة بقايا حكام الزيانيين لهم. و لكن للأسف ما جرى سابقا في وهران و بجاية نجده قد تكرر في مدينة الجزائر من أمور خدمت مصالحهم ولكن بطريقة محزنة أكثر وتثير الشفقة أيضا، فقد أرسل أعيان المدينة وفدا رسميا ، للقائد الإسباني في قلعة بجاية بيدرو نافارو"Pedro Navarro" (*)، للاعتراف بسيادة إسبانيا على المدينة، كما قبلوا بدفع ضريبة سنوية هذا والأخطر من ذلك تنازلهم على جزيرة صغيرة كانت تحمي الميناء، و قد بنى فوقها القائد العسكري الإسباني حصن الصخرة الذي أطلق عليه اسم البنيون (Pégnon) أو قلعة الصخرة.

كان المدفع الإسباني يهدد المدينة و يتحكم فيها من على بعد ثلاثمائة متر تقريبا، و عليه فقد تمكن الإسبان من فرض تنفيذ الاتفاقية الخاصة بدفع الضريبة. وهكذا زادت عزيمتهم لاحتلال المزيد من السواحل فقد خططوا لاحتلال تونس، فبدأوا أولا بالسيطرة على طرابلس الغرب عام 1511م، و بذلك تكون هذه الدولة قد تحكمت في نصف دائرة من الأرض كانت تراقبها بواسطة مواقع عسكرية محصنة عبر أعالي ساحل الشمال الإفريقي (1).

و مما يلاحظ على الانتصارات التي حققها الإسبان بسهولة في بعض المرات، إن لم نقل في كلها كانت نتيجة عوامل متعددة منها:

أ- ضعف دويلات المغرب الإسلامي و خاصة الدولة الزيانية المتنازع أمرائها على السلطة، هذا علاوة على حالة التنافر بين أتباعها(2).

ب- الخيانة التي كثيرا ما لعبت دورا بارزا في فتح أبواب المدن على حين غرة للإسبان، ليس فقط من قبل اليهود بل حتى من قبل ضعاف الأنفس من العرب الذين تُشترى ذممهم بالأموال و الذهب.

ج - قوة الحملات الإسبانية و تنظيمها المحكم وتسليحها الجيد بأسلحة حديثة مقارنة بضعف الجيوش العربية غير المنسجمة لتعدد قبائل شمال إفريقيا.

د- إضفاء صفة القدسية على الحرب التي يخوضها الإسبان بإفريقيا بدعم من الكنيسة الكاثوليكية، التي تعد المحرك الروحي لها فضلا عن تدعيمها بالأموال كما ذكرناه سابقا.

(*) قائد عسكري إسباني قاد حملتي احتلال المرسى الكبير1505م، ووهران 1509م رفقة الأسقف خيمنيس. أنظر: جون وولف، المرجع السابق، ص26.

(1) سبنسر وليام، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب و تقديم زبادية عبد القادر، دار القصبة للنشر و التوزيع الجزائر 2006م، ص 35.

(2) خوجة حمدان بن عثمان، المرآة، تعريب و تحقيق الزبيري محمد العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982م، ص 94.

(3) Berbrugger (Adrien), Le Pégnon d'Alger ou les origines du Gouvernement Turc en Algérie, Alger , Imprimerie Hasnaoui, 2013, p25.

3- إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية:

قام الإخوة برباروس[*] بدور بارز في صد الهجمات الإسبانية، و يعود الفضل للأخ الأكبر عروج في توجيه اهتمام إخوته إلى ميدان الجهاد البحري؛ حيث استهل نشاطه اليومي ربانا للسفينة التي كانت تعمل في تصريف المصنوعات الخزفية التي يصنعها أبوه يعقوب. وذلك بعد أن ازدهرت صناعته في الجزر القريبة من مثلين (مدلي)، حيث كان يعمل مع أخوه إلياس الذي يشتهر بالتروي و الحنكة في آرائه على عكس عروج الذي كان مندفعا و سريع الانفعال [1]. و عروج حسب هايدو الإسباني هو أول من حمل اسم برباروس، كما كان أول حاكم تركي على أرض و مدينة الجزائر [2]. و لكن فيما بعد و في زمن وجيز جدا سيشتهر خير الدين الذي كان اسمه خضر كقائد عسكري للأسطول البحري الذي سيجد له مكانة في البحر المتوسط، و يدخل الرعب في نفوس الأوربيين خاصة سكان السواحل الشمالية للمتوسط كفرنسا و جنوة و البندقية.

3.أ – الإخوة برباروس في الحوض الغربي للمتوسط:

يورد صاحب كتاب إفريقيا الإسباني مارمول كاربخال في قضية انتقال الإخوة إلى الحوض الغربي للمتوسط أن عروج بعد الهزيمة التي لحقت به على أسوار مدينة بجاية و انسحابه منها، أراد أن يمتلك ميناءا يكون قريبا من بجاية و يجعل منه قاعدة لانطلاق عملياته البحرية، فصوب أنظاره نحو مدينة الجزائر، التي كانت تحت حكم سالم بن التومي الذي لم يكن خاضعا لحكم تلمسان. ولما علم الأخير بنية عروج بقتله هرب إلى متيجة، غير أن عروج كتب إليه كتابا و أعطاه عهد الأمان، ولكن بعد رجوعه قتله عروج وعلق جثته على باب المدينة عبرة، وبذلك يكون عروج قد أكمل خطته المبيتة و الرامية إلى السيطرة على المدينة [3]، و من ثمة السيطرة على الحوض الغربي. ولكن المشهور أن الإخوة بعد هزيمتهم في بجاية اتخذوا من جيجل قاعدة لهم قبل مدينة الجزائر، بعد أن كانوا بحلق الوادي وبذلك انتقلوا إلى الحوض الغربي للمتوسط و تبقى الحقائق غير واضحة دون العثور على دلائل دامغة، ومهما كان أمر الانتقال فإن تواجد الإخوة بغرب المتوسط أدى إلى إقامة قاعدة دائمة لهم بمدينة الجزائر و الانطلاق منها لعمليات الجهاد البحري ضد سفن الدول الأوربية.

(*) الإخوة بربلووس: و هم عروج، خير الدين، إسحاق و إلياس تختلف الآراء حول أصل هذا اللقب (برباروس)، فهناك من يقول أن عروج لقب به وهو من اسم بابا عروج وهناك من يقول أن خير الدين هو صاحب اللقب، غير أن جل الكتابات تتفق في أن اللقب يقصد به أصحاب اللحاء الشقراء . أنظر: مجهول، الخبر عن قدوم عروج ريس إلى الجزائر و قدوم أخيه خير الدين، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم1623، ورقة 6.

(1) المصدر نفسه، ص9.

(2) De Haedo (Fray Diego), Histoire des Rois D' Alger, traduit et annoté par H-De Grammont, Alger, Adolphe Jourdan libraire, 1881, p3.

(3) مارمول كاربخال، إفريقيا، ج3، ترجمة حجي محمد وآخرون، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط 1989م، ص ص5- 7.

3.ب- الإخوة برباروس في مدينة الجزائر:

يوجد من يورد بأنه لم يكن هناك إجماع بين سكان مدينة الجزائر حول قضية الاستنجاد بعروج، في البداية أثناء تواجده بجيجل، فبعض الأهالي رأوا أنه من الحكمة مواصلة دفع الضريبة للإسبان و لا يمكن الدخول في مغامرة لا تحمد عواقبها و على رأسهم شيخ المدينة سالم بن التومي الذي تم ذكره سابقا، ويفسر ذلك نتيجة خوفه من انتقام الإسبان غير البعيدين عن المدينة . والطرف الثاني يرى أنه من الضروري طلب مساعدة الإخوة للتخلص من الحامية الإسبانية التي بنيت عام 1510م على الجزيرة[1]، و كذا الضريبة التي أثقلت كاهلهم، فضلا عن استعادة الحرية [2].

و فيما يخص سبب مجيئهم إلى مدينة الجزائر خلافا لما ذكره مارمول كاربخال، أ نه سيطر النصارى على سواحل المغرب[3]، و كانت شهرة الإخوة قد اخترقت الآفاق بغزواتهم على سواحل أرض النصارى الأوربية، و بعدها انصب اهتمامهم على الحوض الغربي للمتوسط للسبب السابق، و في إحدى المرات رسا الإخوة بأسطولهم الصغير بمدينة الجزائر، فرغبوه م أي أهلها في المبايعة بالملك عليهم لإنقاذهم من اعتداءات الإسبان، و لضعف دولة الزيانيين بتلمسان و الحفصيين بتونس لطلب مساعدتهم، على الرغم من امتناعهم على الانضواء تحت حكم أي منهما لفترات متقطعة و طويلة من الزمن.

و بين هذا الرأي و ذاك فإن استنجاد أهالي المدينة موجود من خلال الرسالة التي بعثوا بها إلى السلطان العثماني سليم الأول(1512-1520م)، عندما كان في القاهرة، يشرف على عملية تنظيمها بعد ضمها للدولة عام 1517م. ومهما يكن الأمر فإن مدينة الجزائر كان ملوك تلمسان و إفريقية يتداولون الحكم عليها سابقا فتكون لمن غلب، و مرة يتغلب عليها مشايخها إلى أن دخلها الأتراك [4]، و على رأسهم عروج عام 1516م و كان باستقباله كبار القوم و الأعيان و وجهاء المدينة و أعداد كبيرة من أهاليها ، و رحبوا به ترحيبا حارا و وعدوه بالوقوف إلى جانبه[5]، في التصدي للأعداء من الداخل والخارج، و هكذا دخل الإخوة إلى مدينة الجزائر دخول الفاتحين وعما قريب سيجعلون منها عاصمة أكبر إيّالة في شمال إفريقيا و تستحق أن يطلق عليها اسم المحروسة بعد تحطيم قلعة الإسبان ببرج الفنار كما سيأتي.

---

(1) DeVoulx (Albert), La Marine de la régence d'Alger, R.Af, n°13, septembre, 1869, p389.

(2) بوشنافي محمد، مساهمة عروج بن يعقوب في مواجهة الخطر الإسباني على المغرب الأوسط، 1512 - 1518م، مجلة عصور، العدد 5/4، جامعة وهران، الجزائر جوان 2004م، ص279.

(3) الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و إسبانيا و فرنسا، ج1، تحقيق بوعزيز يحي، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر 2008م، ص 249.

(4) أبو راس الناصر، المصدر السابق، ص ص 163-160.

(5) سامح عزيز ألتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشما لية، ترجمة علي عامر محمود، ط1، دار النهضة العربية، بيروت1989م، ص51.

قام الإخوة ب تنظيمات بعد تركيزهم على حماية المدينة مما أدى إلى خشية ا الإسبان على نفوذهم بمدينة الجزائر و من ثمة وجودهم بالقلعة، حيث اتفقوا مع مجموعة من الرياس المحليين بغية توجيه ضربة شديدة و قاضية تنهي سيطرة الإخوة على المدينة، كما تحالفت معهم بعض الأعراب و حاكم تلمسان و أرسلت إسبانيا حملة قوامها عشرة ألاف جندي إلى ا المدينة لمحاصرتها، وعلى إثر ذلك إستعد عروج و من معه من الجند ا لإنكشاريين و المهاجرين الأندلسيين الذين احترقت قلوبهم من ظلم ا لإسبان بالأندلس يومئذ و بعض القبائل و الأهالي للتصدي للحملة، بعدها اصطدم الطرفان في قتال دامي و مستميت انتهى في الأخير بهزيمة ا لإسبان هزيمة نكراء، حيث أغرقت معظم سفنهم ماعدا السفينة الكبيرة التي كان يمتطيها القائد العسكري ديقو دي فيرا لابتعادها عن مجال القصف[1].

فكر الإخوة بعد إحكام قبضتهم على المدينة ، في ضم تلمسان عاصمة الزيانيين و لكن قبلها كان عليهم تطهير مدينة تنس، سبيل وصولهم إليها و التي يحكمها أمير زياني متعاون مع ا لإسبان، حيث كان لهم ذلك في شهر جويلية من عام 1517م. وبينما كان عروج هناك ينظم شؤون المدينة حضر إليه وفد من تلمس ـان يشـكو حاكمها أبو حمو الثالث الذي اغتصب الحكم من ابن أخيه أبازيان الثالث، و تهديد الإسبان لمدينتهم و التضييق عليهم.

لم يتوان عروج في تقديم يد المساعدة و هب لنجدتهم و في طريقه سيطر على قلعة بني راشد بالقرب من معسكر و وضع بها حامية أسند قيادتها لأخيه إسحاق ليحمي ظهره، ثم أكمل طريقه إلى تلمسان التي دخلها بسهولة بعد انهزام جيش الزيانيين، وأعاد تنصيب الأمير أبو زيان الثالث من جديد، و هنا يقال أن عروج قمع أهل تلمسان بشدة و نكل بهم[2]، و ربما يكون ذلك بسبب حقده عليهم لموالاتهم ا لإسبان لذا نجدهم ساندوا الأمير الذي تآمر عليه و أسروا الضغينة له، ولم يفوتوا الفرصة للانتقام منه، فقد حاولوا أن يقتلوه، و هذا ما أدى بعروج إلى القبض على الأمير الزياني و قتله.

ولم تنته قصة ملوك بني زيان هنا فقد ذهب أبو حمو إلى وهران يطلب النجدة من ا لإسبان الذين استطاعوا أن يسيطروا على قلعة بني راشد وبذلك قطعوا خط العودة على عروج، و قتلوا إسحاق و حاصروا المدينة حيث اعتصم عروج و جنوده بمكان يسمى المشور بمدينة تلمسان عدة أيام و تم التضييق عليه، و لكنه خرج في إحدى الليالي باتجاه الساحل، غير أن عيون الأعداء كانت له بالمرصاد و كشفت أمره، و تتبعوا أثره حتى قتلوه بالقرب من بني موسى في عام 1518م[3]. و هناك أكثر من رأي حول موضع اغتياله لتعدد الكتابات و الحقائق.

لم تُثْنِ هذه الحادثة خير الدين على مواصلة حربه ضد الإسبان، وتصفية وجودهم بالجزائر على الرغم من تفكيره في مغادرة الجزائر و العودة للغزو البحري. و هكذا ظهرت فكرة إلحاق الجزائر بالسلطة العثمانية، إن لم تكن مشروعا مسبقا كما يدعي بعض المؤرخين.

---

(1) سالم أحمد، السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن 16م، نشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 2011م، ص89.

(2) أبو راس الناصر، المصدر السابق، ص ص 160- 161.

(3) بوعزيز يحي، الموجز في تاريخ الجزائر ، ج2، دار عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر 2009م، ص13.

3.ج – إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية:

حزن خير الدين على وفاة أخويه إسحاق و عروج، مما جعله يفكر في الرحيل، لكن الاعتراض عن هذا الأمر قد توالى؛ من قِبل حضر المدينة راجين منه عدم الرحيل ، وتركهم بدون وضع حد للأخطار التي تهدد حياتهم، وبذلك عدل في الأخير عن المغادرة، فاشترط عليهم دعوة السلطان العثماني لمنحه الحماية و قد جرت بعد ذلك مناقشة طويلة. و أخيرا ألح عليه الأعيان أن يرسل نائبه الموثوق به، و هو الحاج حسن إلى السلطان العثماني ليأتي من عنده بالمعونة المطلوبة، بينما يبقى خير الدين في المدينة للدفاع عنها، و لم يتأكد أمر قبول السلطان بذلك[1]، ولكن قضية الإلحاق كانت بموافقة السلطان حتما، مثلما ورد في مخطوط الزهرة النائرة التي جاء فيها عن الكتاب الذي بعث به السلطان بأنهم ممن تشملهم عنايته و تحرسهم رعايته[2].

و الرسالة المؤرخة في عام 925هـ/ 1519م، المكتوبة بأمر من خير الدين، و مما جاء فيها: " ومفاد ما يريد عبيدكم إعلامكم لمقامكم العالي هو أن خير الدين كان قد عزم قصد جنابكم العالي، إلا أن عقلاء البلدة المذكورة رفعت أيديها متضرعة إليه حتى لا يرتحل خوفا من الكفار إذ هدفهم هو النيل منا، ونحن على غاية الضعف ..." [3].

كان الغرض من الرسالة هو ربط الجزائر بالدولة العثمانية، كما تُعد هذه الرسالة شاهدا على أحوال الجزائر السياسية في العام نفسه، حيث أوضحت الكثير من الأحداث التي جعلت من خير الدين والأهالي يطلبون العون من السلطان العثماني، بالإضافة إلى الشعبية التي كان يتمتع بها القائد خير الدين وسمعته الطيبة، وأكدت الشجاعة التي تميز بها عند محاربته للإسبان، هذا فضلا عن تطبيقه للعدالة من خلال تعاليم الشريعة الإسلامية السمحاء[4].

و مهما يكن من أمر الرسالة فإن انضمام الجزائر للدولة العثمانية كان بموافقة السلطان سليم الأول، و إن كان هناك شك في الموافقة من عدمها، فكيف تم إلحاق الجزائر بسلطة الباب العالي؟ ومن أرسل الألفين جندي من الإنكشارية إلى الإيّالة لحمايتها؟ إن هذا الاهتمام بالإيّالة الناشئة أدى إلى تعين خير الدين أول بايلرباي عليها، وهي النقطة التي ارتكزت عليها السلطة العثمانية بالجزائر إذ كان حُكّامها يتم تعيينهم من طرف السلطنة . وبقي الأمر على هذا الشكل، لعدة أسباب لعل أبرزها، عدم جدوى تعين الباشاوات من قبل العثمانيين بعد أن أصبحوا مصدرا لإثارة المشاكل، و انشغالهم بنهب أموال الخزينة الجزائرية[5].

---

(1) وولف جون، المرجع السابق، ص 32.

(2) التلمساني عبد الرحمن، المصدر السابق، ورقة14.

(3) غطاس عائشة وأخريات، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر 2007م، ص 25.

(4) سالم أحمد، المرجع السابق، ص 94.

(5) ابن سحنون الراشدي أحمد بن محمد، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق و تقديم البوعبدلي المهدي، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر د ت، ص442.

4- المميزات العامة لعهد البايلربايات 1519 –1587م:

بعد إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية عام 926هـ/ 1519م، عُين خير الدين على رأس الإيّالة؛ لإدارة شؤونها حيث اتسم عهده وعهد من حكم بعده بالقوة ، لعدة عوامل أهمها طبيعة تكوين شخصية هؤلاء ومن أبرز ما ميز هذه الفئة من الحكام الذين ينتمون كلهم لطائفة رياس البحر ما يلي:

أ- قوة شخصية الرياس الذين تولوا الحكم كبايلربايات من خير الدين إلى العلج علي الذي توفي عام 1587م.

ب- تمتعهم بالاستقلالية في إدارة الحكم لثرائهم الكبير الناتج عن كثرة غنائم النشاط البحري[1].

جـ-كفاءتهم العالية أدت بالسلطان العثماني إلى ترقيتهم كقادة للأسطول الهمايوني برتبة أميرال [2].

د- اختلاف أصولهم الاجتماعية فمنهم الأتراك و الأعلاج و غيرهم.

هـ - بعضهم تولى منصب قيادة الأسطول العثماني و حكم الجزائر في الوقت نفسه.

إن هذه المميزات تركت بصماتها واضحة على العهد الأول الذي تم فيه إرساء دعائم الحكم العثماني بالجزائر وضمنت له عمرا طويلا، فاق الثلاثة قرون، رغم الهزات العنيفة التي كادت أن تقضي عليه. و من المميزات العامة لهذا العهد نذكر ما يلي:

أ- سيادة الاعتدال في الحكم الذي أدى إلى خضوع العرب و القبائل و انتشار الأمن[3].

ب- بروز البحرية الجزائرية كقوة فاعلة في أحداث البحر الأبيض المتوسط[4].

جـ - توحيد أغلب مناطق الجزائر بعد أن كان منها ما هو خاضع للزيانيين و الإسبان و حتى الحفصيين و منها ما هو مستقل و بالتالي توحيد البلاد سياسيا [5].

د- تحرير العديد من الموانئ الجزائرية التي كانت خاضعة للاحتلال الإسباني مثل قلعة الصخرة 1529م و بجاية 1555م و حتى طرابلس الغرب و تونس.

---

(1) غطاس عائشة و أخريات، المرجع السابق، ص44.

(2) وولف جون، المرجع السابق، ص70.

(3) خوجة حمدان بن عثمان، المصدر السابق، ص 112.

(4) Belhamissi (Moulay), Histoire de la marine Algérienne 1515-1830, Alger, Entreprise nationale de livre,1983, p49.

(5) بوعزيز يحي، الموجز في تاريخ الجزائر...، ص 20.

هـ- القضاء على الدولة الزيانية التي كانت في آخر مراحلها بعد أن عمرت قرابة الثلاثة قرون من الزمن، عام 1554م من طرف صالح ريّس[*] التي شكلت خطرا على التواجد العثماني بالجزائر وتعاون حكامها في الكثير من الأحيان مع الأعداء[1] .

و- اتساع الإيّالة الجزائرية جغرافيا بعد إخضاع الكثير من المناطق التي كانت مستقلة أو شبه مستقلة في الشمال كإمارة الزيانيين و عاصمتها تلمسان، و حتى قبائل الجنوب التي رفضت أن تدفع الضرائب ، و سيكون الامتناع عن دفع الضرائب هو المحور الأساسي الذي ستقوم عليه العلاقات بين السلطة العثمانية بالجزائر و هذه القبائل المتناثرة بالجنوب.

ن- ظهور التقارب الجزائري الفرنسي [2]، نتيجة للعلاقات الودية بين الدولة العثمانية و فرنسا التي منحتها امتيازات اقتصادية بالجزائر تخص صيد المرجان و التجارة خاصة منذ عام 1561م [3]، كما أن فرنسا استنجدت بالأسطول الجزائري في إحدى المرات لقمع ثورة مرسيليا، و مرة أخرى لرد هجومات الإسبان على الجنوب الفرنسي حيث قاد الريّس خير الدين الأسطول العثماني و الأسطول الجزائري إلى الشواطئ الفرنسية ، و قضى فصل الشتاء هناك بميناء طولون، عام 1543م [4].

يعتبر هذا العهد عهدا ذهبيا في تاريخ الجزائر الحديث خلال الحكم العثماني، و يعد بمثابة دعامة ثابتة للتواجد العثماني بالجزائر و حتى بشمال إفريقيا، ولم ينته أو يبدأ في التلاشي هذا التواجد إلا بعد ضعف الدولة العثمانية نفسها، في القرن السابع عشر ميلادي، أو حتى قبل هذا التاريخ، عندما توفي السلطان سليمان القانوني عام 1566م. وكانت الجزائر من خلال أسطولها البحري الذي ما لبث يتطور على عكس الأسطول العثماني بمثابة الدرع المتين للدولة العثمانية بغرب المتوسط؛ في وجه القوى المتربصة بها، و خاصة الإسبان خلال القرن السادس عشر ميلادي، ثم فرنسا في القرون الأخرى .

(*) ولد بالإسكندرية و يقال غرب الأناضول، حسب بعض الروايات. من أشهر الرياس المقربين من خير الدين، كان له تجربة طويلة في الصراعات السياسية و العسكرية التي دارت بأقطار المغرب العربي، عين بايلرباي على الجزائر عام 1552م، تميز حكمه بالقضاء على الدولة الزيانية 1554م و تحرير بجاية 1555م، كما كان له طموح بتحرير وهران و لكن القدر كان أسبق من القيام بذلك، حيث توفي عام 1556م بمرض الطاعون. للمزيد أنظر: مروش لمنور، أبحاث ودراسات عن الجزائر في العهد العثماني، القرصنة بين الأساطير و الواقع، ج2، دار القصبة للنشر و التوزيع، الجزائر 2009م، ص125.

(1) خير الدين بربروس، مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة دراج محمد، ط1، شركة الأصالة للنشر و التوزيع، الجزائر 2010م، ص103.

(2) Belhamissi (M), Marine et Marins d'Alger 1518 -1830, T 1, Alger, bibliothèque nationale d'Algérie,1996, p40.

(3) بوعزيز يحي، الموجز في تاريخ الجزائر...، ص22.

(4) وولف جون، المرجع السابق، ص 63.

5– البحرية الجزائرية:

تعد البحرية الجزائرية رمز قوة الجزائر العثمانية، ولم تكن وليدة هذا العصر، بل لها جذور ضاربة في التاريخ وتطورت عبر مرور الزمن، حتى وصلت إلى هذه المرحلة. و للحديث عنها يجب تبيين مراحل تشكلها باختصار:

5.أ– النشأة:

للحديث عن البحرية الجزائرية في القرن السادس عشر ميلادي، لابد أن نشير في البداية إلى أنها استقلت نوعا ما عن البحرية المغاربية التي كانت جزءا لا يتجزأ منها، وأصبحت قوة بحرية خاصة كان لها دور مهم في مواجهة الخطر المسيحي، منذ عهد الحماديين ثم المرابطين و الموحدين وصولا إلى حكم الزيانيين [1]. لقد ورث بنو عبد الواد الزيانيون قسما كبيرا من الأسطول الإسلامي الموحدي، عندما أقاموا دولتهم ، عام 1236م و استمرت حتى عام 1554م، و لكنهم لم يقوموا بدور مهم يستحق الذكر في ميدان الحروب والتجارة البحريتين. نظرا للضغوط الكثيرة المسلطة عليهم و على دولتهم، من طرف الحكام الحفصيين بتونس شرقا و المرينيين و السعديين بعدهم بأقصى المغرب[2].

نجد أن البحرية قد تخلت عن طابعها الجهادي الذي أُسست من أجله في البداية و أضحت وسيلة للتبادل التجاري البسيط فقط. ولكن الهجمات الأوربية وطلبات النجدة الأندلسية أدت بالبحرية إلى الا ضطلاع بدور الدفاع والحماية معا ، مما أدى بمنطقة الحوض الغربي للمتوسط إلى التحول لمنطقة صراع بين القوى الإسلامية في الشرق والمسيحية في الغرب، فبوصول العثمانيين إلى غرب المتوسط ظهرت إيّالة الجزائر التي شهدت تطورات كثيرة في كنف الدولة العثمانية 1518– 1830م، و في بداية هذه الفترة حتى بداية القرن الثامن عشر ميلادي، عرفت البحرية الجزائرية أزهى عصورها [3].

وضعت الجزائر قواعد بحرية للخدمة الدائمة و المشهورة منها كانت موانئ عنابة، دلس، بجاية، مستغانم. منذ ذلك الحين أصبحت البحرية الجزائرية الوسيلة الفعالة للدفاع عن السواحل الجزائرية فقد ظلت بجاية منذ عهد الحماديين حتى الضعف المتقدم لدولتي بني عبد الواد بتلمسان و بني حفص بتونس قاعدة بحرية هامة في الشرق على الخصوص، حتى ظهور قواعد أكثر أهمية في العصر الحديث بسبب ظهور عوامل جديدة، و تغير الظروف و الأوضاع السائدة آنذاك عما سبقها[4].

---

(1) سعيدوني ناصر الدين، ورقات جزائرية (دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني)، ط2، دار البصائر، الجزائر 2008م، ص 130.

(2) بوعزيز يحي، الموجز في تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص 140.

(3) سعيدوني ناصر الدين، المرجع السابق، ص132.

(4) المرجع نفسه، ص 131.

5.بـ– عوامل ظهورها:

هناك عوامل كثيرة أدت إلى بناء الأسطول الجزائري ، فمنها ما هو طبيعي و بشري و حتى اقتصادي إذ أنها ساعدت على نموه وتطوره في وقت وجيز، على عكس الكثير من الأمم التي عانت ولقيت عوائق كثيرة، عندما كانت بصدد بناء أساطيلها، و نذكر بعض من العوامل و منها:

1- موقع الجزائر ا لإستراتيجي المطل على البحر الأبيض المتوسط، و تعرج سواحلها التي تتوفر على خلجان مثالية لإقامة موانئ هامة.

2- الظروف الدولية السائدة في منطقة البحر الأبيض المتوسط خاصة في نهاية القرن الخامس عشر و بداية القرن السادس عشر الميلاديين كظهور النهضة الأوربية الحديثة و تطور صناعة السفن و علم الفلك.

3 – ظهور التحرشات ا لإسبانية على سواحل شمال إفريقيا ابتداءا من المغرب حتى طرابلس الغرب مثلما ذكرنا آنفا حملة دييقو دي فيرا "Diego de Verra" على مدينة الجزائر عام 1516م و حملة أندري دوريا على شرشال عام 1531م، و حملة شارلكان الضخمة على مدينة الجزائر عام 1541م[1].

4- تسامح الجزائريين مع المسيحيين مما أدى إلى دخول الكثير منهم في الإسلام ، وأصبحوا حكاما للجزائر بعد أن كانوا مجرد بحارة عاديين[2].

5- إتباع أسلوب الكر والفر في البداية بسب عدم المقدرة على الدخول في حرب نظامية ضد القوى المسيحية من الإسبان إلى البرتغاليين وفرسان القديس يوحنا [3].

6- تخليص موانئ المغرب الإسلامي من الاحتلال الإسباني، كتحرير مدينة تونس عام 1534م[4].

إن بعض هذه العوامل لم يكن لها دور بارز في تأسيس الأسطول الجزائري فحسب بل أدت إلى مساهمة الإخوة برباروس في بنائه و ارتيادهم لسواحل البلاد، حيث كانت سفنهم هي النواة الأولى لبداية تكوين البحرية الجزائرية من ناحية، و ظهور رياس لهم شهرة كبيرة من ناحية أخرى.

---

(1) De Paradis (Venture), Expédition contre Alger le prince Charles-Quint à l'assaut de la Régence d'Alger en octobre 1541, Alger, Imprimerie Hasnaoui2013, p28.

(2) سعيدوني ناصر الدين، المرجع السابق، ص133.

(3) سالم أحمد، المرجع السابق، ص 83.

(4) بوعزيز يحي، علاقات الجزائر الخارجية مع دول و ممالك أوربا 1500 – 1830م، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر2009، ص17.

5.ج – نواة تأسيس الأسطول الجزائري في القرن 16م وتطوره:

كان أسطول الإخوة برباروس يتألف في البداية من أربعة قطع بحرية بسيطة، ولكن مع مرور ال وقت ازداد عددها، فأثناء الهجوم على قلعة الإسبان ببجاية 1512م ارتفع عددها و أصبح أربعة عشر سفينة، حيث يذكر خير الدين في مذكراته أنه لما عاد إلى تونس من حملته على بجاية ، فرح به كثيرا، أهل تونس، لما رأوا أنه عاد و بحوزته أربعة عشرة قطعة بحرية [1]، و هذا العدد معتبر مقارنة بالوضع السائد آنذاك في البحر المتوسط.

و لما انضمت الجزائر للدولة العثمانية رسميا؛ تدعم الأسطول البحري بقطع جديدة [2]، محلية الصنع أولا ثم تطورت الأمور حتى أصبحت الدولة العثمانية تدعمها بالمراكب و التجهيزات البحرية و حتى بالبحارة. و فيما بعد أصبحت الجزائر تفرض اتفاقيات؛ بموجبها استطاعت أن تتحصل على كل التجهيزات البحرية و قطع الغيار و حتى الأسلحة، من دول كثيرة منها دولة الدانمارك، السويد، انجلترا، هولندا و حتى فرنسا [3]، و بذلك تطور عدد السفن البحرية الجزائرية، ففي عام 1571م بلغ العدد حوالي 50 مركبا و في عام 1580 كان عددها 35 غليوطة[*] وسفن أخرى متنوعة.

و نلاحظ أن التطور العددي للسفن بالزيادة أو النقصان، كان له أسباب و لعل أهمها نتيجة المعارك التي كانت الجزائر تخوضها في عرض البحر المتوسط، حتى وإن كان أكبرها قد حسم لغير صالح الجزائر، فإن انتصرت و غنمت يرتفع عددها، و إن كان العكس تنخفض و هكذا دواليك، إذن تطور الأسطول البحري يخضع بالدرجة الأولى للنشاط البحري و الظروف السائدة.

د– نشاط البحرية الجزائرية وتحريرها للسواحل:

لفهم دور البحرية الجزائرية في العهد العثماني و خاصة في القرن السادس عشر ميلادي، يجب معرفة الخطر الذي يشكله العدو سياسيا ودينيا[4]، فقد رد البحارة الجزائريون على العمليات الهجومية التي كان ينفذها الإسبان و غيرهم من الأوربيين على سواحل شمال إفريقيا بالمثل، مما زاد في قوة الأسطول البحري تدريجيا حيث سيكون له دور حاسم في الصراع العثماني الاسباني ثم الأوربي.

---

(1) خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 35.

(2) بوعزيز يحي، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص 19.

(3) بوعزيز يحي، الموجز في تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص 14.

(*) نوع من السفن طولها أقل من 50 مترا حمولتها متوسطة سرعتها خفيفة تحتوي على 14إلى 25 مصطبة، عدد مدافعها 20 للمزيد أكثر أنظر: بوعزيز يحي، الموجز في تاريخ لجزائر...، المرجع السابق، ص 149.

(4) Belhamissi (M), Marine et Marins, op. cit, p37.

كما تجدر الإشارة إلى أن الموريسكيين ساهموا في النشاط البحري، إلى جانب الرياس، خاصة ضد إسبانيا ولم يكن الانتقام هو السبب الوحيد الذي دفعهم إلى ذلك فحتى الحصول على الغنائم من الأموال و كل ما هو ثمين و غيره، كان له دور في دخول هذه الفئة للعمل في البحار، لأنه كان منهم الكثير من الفقراء الذين تركوا أموالهم بالأندلس مكرهين[1]، و لا يسعنا المقام لذكر كل مظاهر النشاط البحري في القرن السادس عشر ميلادي وسنكتفي بذكر أهمه و خاصة فيما يتعلق بتحرير السواحل:

1516م- استقرار عروج وإخوته بمدينة الجزائر، و رد غارة دييغو دي فيرا.

1529م- تحطيم القلعة الإسبانية و بناء الميناء الذي يعد أكثر حصانة من أي ميناء في شمال إفريقيا[2].

1541م- صد حملة شارلكان" Charles Quint"على مدينة الجزائر، التي يقال أنه رمى بتاجه في عرض البحر و قال"...من أراد أن يلبس التاج فليقدم إلى الجزائر و يأخذها..."[3].

1547م – تحرير مستغانم و انهزام الجيش الإسباني[4].

1558م- إفشال محاولة الإسبان للاستيلاء على مستغانم في المرة الثانية[5].

1569م- تحرير تونس و أخذ البيعة من سكانها للسلطان العثماني، ثم استردها الإسبان فيما بعد بشهور قليلة.

1574م- العلج علي يسترجع تونس على رأس القوات الجزائرية ، أثناء ذلك سجلت هجمات للأسطول الجزائري على السواحل الفرنسية، مالطا، إيطاليا و إسبانيا [6].

إن العمل الجبار الذي أنجزه رياس البحرية الجزائرية وعلى رأسهم صالح ريّس والعلج علي في زمن قياسي بعرض البحر الأبيض المتوسط في هذه الفترة على المستويين الداخلي و الخارجي، دون الإنقاص من المجهودات الكبيرة للإنكشارية، و فضل الدولة العثمانية، أكسب الجزائر مكانة عالمية، و قلب أمور المنطقة برمتها رأسا عن عقب.

---

(1) Laugier de Tassy, Histoire de royaume d’Alger, Paris, Edition, loysel, 1992, p69.

(2) Belhamissi (M), Marine et Marins, op.cit, p36.

(3) الغساني محمد الأندلسي، رحلة الوزير في إفتكاك الأسير1690- 1691م، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت2002م، ص75.

(4) المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص303.

(5) De Haedo (F. D), Topographie et histoire générale d’Alger, traduit, MM. Le Dr. Monnereau et A. Berbrugger,Paris, Imprime A' Valladolid, 1870, p205.

(6) سعيدوني ناصر الدين، المرجع السابق، ص 147 – 148.

ثانيا – أوضاع تونس خلال القرن10هـ/16م:

ورث الحفصيون(*) الدولة الموحدية بعد سقوطها في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ميلادي، في بلاد المغرب الأدنى أو كما كانت تسمى بأرض إفريقية، حيث حكموا قرابة الثلاثة قرون، و لفهم أسس هذه الدولة يجب أن نبين أصل الحفصيين و أسباب قيام كيانهم بتونس، ثم عوامل انحطاط دولتهم مع نهاية القرن الخامس عشر ميلادي وزوالها على يد العثمانيين بنهاية القرن اللاحق.

1- أصل الحفصيين و قيام دولتهم:

ينتمي الحفصيون أو بنو حفص إلى سلالة أمازيغية و هي قبيلة هنتانة، وتقع مضاربها بجبال الأطلس بالمغرب الأقصى، و استمدت التسمية من إسم مؤسسها الأول أبو حفص عمر الهنتاني، أحد أجداد الأسرة، و هو من رجال ابن تومرت الأوفياء زعيم الدولة الموحدية. حيث أصبح ابنه من بعده أبرز حكام الموحدين على إقليم إفريقية الذي أُرسل إليها أول مرة لإخماد ثورة ابن غانية [1]، و هكذا أصبح لهم معرفة سابقة بالمنطقة، مما ساعد على قيام دولتهم.

تأسست الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى على يد أبو زكرياء يحي بن حفص ، عام 1228م، على أنقاض دولة الموحدين التي سقطت رسميا عام 667هـ/ 1269م لأسباب عديدة لا يسعنا المجال لذكرها . وفي أواخر القرن الثالث ميلادي انقسمت الدولة إلى فرعين أحدهما حكم إقليم بجاية والآخر إقليم قسنطينة، على أن الامتداد الجغرافي لها كان يصل حتى طرابلس الغرب، ومنطقة الزاب من الجنوب الشرقي. إلا أنه في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ميلادي استولى المرينيون عليها، ولكن مع حكم أبو العباس أحمد (1370- 1394م) شهدت الدولة استقرارا كبيرا منقطع النظير. و لم تلبث الأمور كذلك ، فسرعان ما بدأت مرحلة السقوط السريع، مع وفاة أبرز الرجال الذين حكموها، و هو أبو عمر عثمان، عام 1488م[2].

تتوقف عظمة الدول عبر التاريخ على عظمة الرجال الذين يحكمونها، فتطول بذلك فترات حكمهم وتستتب لهم الأمور، ولكننا نجد بالمقابل عظماء قد خانهم الحظ، و بعضهم سبقهم القدر فيما يريدون، وآخرون جابهتهم الظروف القاسية في المجالات كلها، بما لم يتوقعوا، والنتيجة دائما واحدة و هي زوال ملكهم في أحسن الأحوال أو نهاية حياتهم.

(*) نسبة إلى أبو حفص عمر بن يحي زعيم قبيلة هنتانة ، أعظم قبائل مصمودة وأكثرها عددا و أشدها قوة، وهي أول قبيلة تابع المهدي عبد المؤمن بن علي؛ مؤسس الدولة الموحدية، للمزيد أنظر: ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (1336م – 1406م)، ج6، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت 2000، ص370.

(1) المصدر نفسه، ص 373.

(2) المطوي محمد العروسي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي و دورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986م، ص645.

2- أوضاع تونس خلال القرن 10 هـ/16م:

لم تقتصر الأوضاع المتأزمة على مجال دون آخر، لذا سنحاول عرضها كما يلي:

2.أ- سياسيا:

دخلت الدولة الحفصية في فترة غموض و فتن داخلية تكاد تكون غير منتهية، بعد وفاة الأمير أبو عمر عثمان، و ما إن بويع حفيده (*)بالسلطة، حتى ثار عليه ابن عمّه عبد المؤمن بن إبراهيم، مع جماعة من الجند (**). ودخلت البلاد في وضع غامض و أخبار متضاربة. و نستشف من خلال هذا أن الجيش كان منقسم بين م ؤيد لهذا و مؤيد لذاك، مما سيعرض الدولة حتما و هذا حال كل كيان، لأخطار داخلية و خارجية ستعجل باضمحلالها. خاصة في هذه الظروف المحيطة بالمنطقة. فقد بدأ ورثة العرش يكيدون لبعضهم بعضا، فأول سلطان سيحكم يموت غدرا نتيجة التنافس الحاد بين طالبي العرش. ونجد أن في فترة ستة سنوات حكم ثلاثة أمراء أي بداية من عام 1488م حتى عام 1494م، وهم على التوالي أبو زكرياء يحي الثالث، ثم عبد المؤمن ثم أبو يحي زكرياء الثاني (1).

نستنتج أن الدولة لم تكن في وضع تحسد عليه، وكانت تشهد تنافسا حادا على السلطة مما سيعرضها لأخطار جمة، و بالرغم من أن الفترة السابقة شهدت حالة من عدم الاستقرار السياسي ، إلا أنه بعدها قد استتب الأمر على رجل من الأسرة الحاكمة ، أراد أن يرجع الأمور إلى سابق عهدها، و هو الأمير أبو عبد الله محمد بن الحسن. الذي حكم ما يفوق الثلاثين عاما بداية من سنة 1494م حتى سنة 1525م. ويرجح حسب المعلومات المتوافرة أن تقوى هذا الرجل و اعتداله، و تطبيقه لتعاليم الدين الإسلامي وكذا حبه لفعل الخير، و قوته و شدة مراسه هي التي أهلته لبسط الأمن و الاستقرار و فرض الطاعة على رعيته. ويصفه ابن أبي الدينار بأنه كان رجلا فطنا، ذكيا، فصيحا، محبا للخير و أهله معتقدا في الصالحين(2).

نلاحظ أن طول فترة الحكم لا تبرر بأنه حكم راشد عادل. فالكثير من كان حكمهم طويل قائم على سفك دماء الآخرين، و خاصة المعارضين. فقد تخللت الفترة اضطرابات كثيرة، كان من أبرزها الحروب التي دارت بين هذا الأمير و بين الأعراب المسيطرين على الجنوب، وغالبا ما انتهت بهزيمته، كهزيمة القيروان مثلا، وهناك من يورد بأنه لم يكن كذلك و على النقيض مما أورده أبو الدينار، و نحن لا ندري من أين استقى المؤرخ هذه المعلومات.

(*) وهو أبو زكرياء يحي، و ابن ولي العهد المتوفى قبيل وفاة السلطان أبي عمر عثمان.

(**) جماعة الجند: كانت تتشكل من خليط من العرب و البربر و الأفارقة، و حتى الترك مما يصعب التحكم فيها لاختلاف أصولها الاجتماعية و كثيرا ما تكون طلباتها و تطلعاتها غير محدودة. للمزيد أنظر:نياني. ج. ت، تاريخ إفريقيا العام، مج 4، اليونسكو، بيروت 1988م، ص99.

(1) المطوي محمد العروسي، المرجع السابق، ص645.

(2) المرجع نفسه، ص 647.

و من الأمور الدالة على تردي الأوضاع السياسية في تونس إبان حكم الحفصيين ؛ خروج عدة مناطق بعيدة عن حكمهم مثل بسكرة ، قسنطينة و غيرها، حيث أعلنت التمرد وبالتالي الاستقلال ، و لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل زادت الأمور تعقيدا، لقيام الطريقة الصوفية و هي الشابية بجمع أتابع كثر و تأليب ا الأوضاع عليهم، حيث اتخذت من القيروان عاصمة لها و مقرا لانطلاق نشاطاتها ضد السلطة [1].

و نلاحظ أن حال أمراء بني حفص كحال أمراء المرينيين والوطاسيين و السعديين و الزيانيين، فقد كان من يُغلب على أمره و يُسلب الحكم من يده يضطر إلى الاستنجاد بالقوى الأوربية، وخاصة منها ا لإسبان و البرتغال ففي تونس هناك أمثلة كثيرة و لعل أبرزها استنجاد مولاي حسن بالأوربيين، عام 1542م. وعند ذهابه للمهمة حرض ابنه حميدة الحفصي على الثورة ضد الوجود العثماني غير المرغوب فيه[2]. و من الأسباب التي أدت إلى تردي الأوضاع السياسية نذكر منها:

1- ضعف شخصية الأمراء الذين حكموا في القرن الخامس عشر و السادس عشر الميلاديين.

2- ثورات الأعراب من حين لآخر، يعزى ذلك إلى أن الأمراء الأوائل لم يستطيعوا إخضاع المناطق الجنوبية كاملة.

3- القوانين التي سنها أبو عمر عثمان لورثة عرشه، كان من أبرزها تعيين أقاربه في مراكز ولاة المقاطعات، مما أثار سخط الرعية، و استغلها المعارضون له في إثارة الفتن [3].

4- استنجاد الأمراء بالدول الأوربية، و بالتالي فتح الباب على مصرعيه للتدخل الأجنبي.

5- الاحتلال الإسباني الذي أدخل البلاد في حالة من الفوضى، نتيجة لما اقترفه من سفك للدماء و نهب للثروات.

6- تردي الأحوال الطبيعية التي لم تكن بخير فقد اجتاحت البلاد موجة من الجفاف، و سادت المجاعة وانتشر الطاعون، و أصبح موقف السلطة في حرج[4].

7- تردي الوضع الإداري لضعف السلطة الحاكمة، وخضوع العديد من المناطق للزعامات المحلية كشيوخ القبائل ، التي كانت تتأرجح بين الدفاع عن مصالحها الاقتصادية و بين الموالاة من حين لآخر للسلطة المركزية اسميا[5].

---

(1) Mercier (Ernest), Histoire de L'Afrique Septentrionale, 3T, Paris, Ernest leroux, édition, 1891, T3, p6.

(2) Braudel (F), Les Espagnols et la Berbérie de 1492 à 1577, Alger, l'imprimerie Hasnaoui, 2013 ,p94.

(3) نياني. ج. ت، المرجع السابق، ص 102.

(4) هلايلي حنيفي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدى للطباعة النشر و التوزيع، عين مليلة (الجزائر) 2008م، ص43.

(5) نياني. ج. ت، المرجع السابق، ص 102.

إن هذه الأوضاع المتردية و المشاكل المتفاقمة عصفت باستقرار الدولة، فلم يستطع أحد من الحكام السيطرة على الوضع المتهالك، و هكذا فإن أفراد العائلة الحفصية رغم حكمها القائم في بعض المناطق دون أخرى إلا أنها كانت ضعيفة، و غير قادرة على اتخاذ إجراءات تحد من حالة الانهيار ، ولم تكن سيطرتها في الكثير من الأحيان تتعدى أسوار المدن التي كانت تزعم أنها تحت سلطها[1].

2.ب- اقتصاديا:

كانت البلاد التونسية في العهد الحفصي مزدهرة اقتصاديا، فالفلاحة التي تعد أهم مورد للحياة و رغد العيش لدى سكان هذه البلاد، عبر العصور ، إذ يتم إنتاج أنواع مختلفة من المحاصيل الزراعية، من أهمها الحبوب كالقمح والشعير في أقاليم الشمال، و على السواحل المنتجة للزيتون كذلك و التمور في واحات الجنوب كواحات منطقة الجريد الشاسعة.

أما الصناعة نجدها متنوعة بتنوع أطياف المجتمع الحفصي و نشيطة، فمنها الصناعة التقليدية التي كانت تسمى بالحرفية، و من أشهرها صناعة الحلي، الفخار، الصباغة و الدباغة. و منها الحديثة كصناعة الأسلحة من البنادق و البارود وبناء السفن، بالإضافة إلى صناعة السروج و السيوف ، و بتوفر المنتجات الفلاحية و الصناعية أدى إلى رواج التجارة، فهذه الأخيرة شهدت نشاطا كبيرا في الداخل، من خلال الأسواق اليومية الدائمة و الأسبوعية فهناك سوق العطارين و الدباغين و سوق خاصة بالأقمشة و غيرها.

كما كانت هناك علاقات تجارية بين دول الجوار، كطرابلس الغرب و دولة الزيانيين و السعديين وكذا دول المشرق. و لاستخلاص المداخيل من الأموال تم فرض ضرائب، على السلع الواردة بنسبة عشرة بالمائة، غير أن النظام الإداري المتبع لم يأت بثماره في الأخير ، بل على العكس من ذلك أدى إلى تسلط شيوخ القبائل، خاصة أثناء الصراع العائلي على السلطة، وكإجراء احترازي عمل الأمراء على منح إقطاعيات للقبائل العربية لتستقر عليها، في صفاقس والسهول التونسية الأخرى، و بذلك تحولت إلى مناطق رعوية، و أصبحت شبه خاوية من السكان بينما انتقلت المراكز العمرانية الكبرى إلى الساحل[2]. و هكذا فإن الوضع غير المستقر الذي ميز المرحلة الأخيرة من عمر الدولة أدى إلى نهب ثرواتها وبصفة شبه منظمة. فالانفلات الأمني صاحبته موجة من السرقة والنهب، و الاعتداء على الناس و أملاكهم، فقد نهبت الثروات من المنتوجات الفلاحية و المواشي[3].

---

(1) وولف جون، المرجع السابق، ص23.

(2) الغنيمي عبد الفتاح المقلد، موسوعة تاريخ المغرب، ط1، ج5، مكتبة مدبولي، القاهرة 1994م، ص 93.

(3) المسعودي أبي عبدا لله محمد الباجي، الخلاصة النقية في أمراء افريقية، ط2، مطبعة بيكار، تونس 1323هـ، ص88.

2.ج – اجتماعيا:

كان المجتمع الحفصي منقسما إلى عدة مجموعات قَبلية،كقبيلة الهواريين و هم من أصل بربري، يقطنون شمال البلاد، و قبائل الكعوب في منطقة سباسب الوسط، وقبائل أولاد دباب وبني علي في الجنوب، أما القبائل المستقلة وشبه المستقلة عن السلطة الحاكمة بتونس فكانت تعد بالمئات [1]، مما ساعد على اضطراب الأوضاع في أغلب الأحيان، وهناك طائفة الأندلسيين الذين توافدوا إلى تونس الحفصية فوجدوا فيها ملاذا آمنا من شر الإسبان وأعوانهم وكان منهم العلماء و الأدباء، من أمثال ابن الأندلسي الأبار، حازم القرطاجني، أبي المطرف بن عميرة و غيرهم.

رغم الحالة النفسية التي مرت بها هذه الطائفة، من جراء ما لحق بها على يد الإسبان يومئذ بالأندلس، إلا أنها استطاعت أن تندمج في المجتمع الحفصي بسهولة تامة ،كما نجدها قد حافظت على عاداتها و تقاليدها و لم تنسلخ منها، وبالمقابل استفادت البلاد من هذا الزخم في مجالات عدة أهمها الفلاحة، الصناعة والثقافة، و يقال أن بعض هؤلاء كان مغرورا مترفعا ، عن بقية سكان البلاد، نتيجة ما وجدوا من عقلية سكان شمال إفريقيا. و لكن هل كل سكان البلاد لهم عقلية واحدة، حتى يحكم عليهم بهذا الحكم. و قد مارس بعضهم السياسة، و وصل بها إلى أعلى المراتب الإدارية، و كاد بعضهم لبعض المكائد عند السلاطين، و بذلك أصبح لهم من النفوذ في الجيش والإدارة ما جعلهم قوة لا يستهان بها ليس فقط بتونس و إنما بجل البلاد التي سكنوها[2].

نلاحظ أن المجتمع لم يكن منسجما، مما صعب على السلطة التحكم فيه، و إرضاء جميع أطيافه، وتلبية كل رغباته، خاصة بعد انشغالها بالحروب ضد الإسبان ثم العثمانيين، و هذه الحروب أهلكت الكثير من أهل البلاد وخاصة الرجال منهم، أما النساء فتم سبيهن، وبذلك استبيحت الدماء و هتكت الأعراض، و أهين الدين فالمساجد حولت إلى غير مهامها، و القبور نبشت بالإضافة إلى انتشار حالات من الانتقام بسبب وقوف بعض السكان مع الإسبان أو العثمانيين و حتى الحكام الحفصيين[3].

و مما زاد الطين بلة هو انتشار الأمراض الفتاكة كالطاعون، الذي أهلك المئات من الأهالي، ولم يسلم منه حتى الأمراء في قصورهم المشيدة، فقد مات من جرائه أول أمير يحكم بعد أبي عمر عثمان ، و هو أبو زكرياء يحي الثالث، عام 1489 م[4]. و مهما يكن من أمر المرض فإن المواجهات بين العثمانيين و الإسبان في إطار الصراع الدائر للسيطرة على تونس كانت أشد فتكا.

---

(1) المطوي محمد العروسي، المرجع السابق، ص 643.

(2) المرجع نفسه،ص ص213- 214.

(3) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص 89.

(4) المصدر نفسه، ص83.

3- الصراع العثماني الإسباني على تونس:

3.أ- أسباب الصراع:

هناك جملة من الأسباب التي أدت إلى الصراع بين العثمانيين و الإسبان على تونس ، و لعلها لم تكن تقتصر على مجال واحد فقد اختلفت من مجال لآخر ، حسب الظروف التي كانت تمر بها الدولة الحفصية من جهة وأوضاع الدولتين المتنافستين عليها و حتى ظروف منطقة البحر المتوسط من جهة ثانية، و سنوجزها فيما يلي:

1- موقع تونس الإستراتيجي الفاصل بين حوضي المتوسط الشرقي و الغربي و قربها من إيطاليا عبر مضيق صقلية.

2- استنجاد بعض الحكام الحفصيين بطرفي النزاع ، مثل الرشيد الذي استنجد بالعثمانيين و مولاي حسن الذي استنجد بالإسبان.

3- بلوغ الدولة الحفصية مرحلة الشيخوخة، فلم تستطع درأ الخطر عنها و لا عن الأقاليم التي كانت تدين لها بالولاء في عهد الشباب و هذا حسب رأي ابن خلدون الذي يقول أن الدول تمر بثلاث مراحل و هي الشباب، الكهولة ثم الشيخوخة و الهرم.

4- تواجد العثمانيين بالجزائر، و تحريرهم لبجاية التي كانت خاضعة للحفصيين عهودا طويلة [1]، و سيطرة الإسبان على طرابلس الغرب، و هي مناطق محيطة بتونس و عليه كانوا قريبين جدا منها.

5- أهمية تحرير تونس بالنسبة للعثمانيين خاصة بعد ضمهم للجزائر [1]، لأنها طريقهم الوحيد إليها، فإذا بقيت تونس بأيدي الإسبان سيقطعون عليهم هذا الطريق عاجلا أم آجلا.

6- قرب تونس من جزيرة مالطا التي تعد مركزا لفرسان القديس يوحنا ، لذا كانت نقطة صدام دائم بين القوتين العظمتين، فقد تواجها في جربة أعوام 1510م - 1520م - 1560م و في تونس أعوام1535م -1537م - 1574م، و في بنزرت أعوام 1573م - 1574م [2].

7- توفرها على الثروات البحرية كسمك الساردين، السيسيل و الكالابر و غيرها، هذا ما أدى إلى التقارب الحفصي في عهد مولاي حسن و الإسباني في عهد الملك شارلكان[3].

---

(1) Dan (Pierre), Histoire de Barbbarie et de ses corsaires, Paris, Seconde édition, 1646, p77.

(2) شوفاليه كورين، المرجع السابق، ص 39 .

(3) بروديل فرناند، المتوسط و العالم المتوسطي، تعريب أبي سمرا مروان، ط1، دار المنتخب للنشر و التوزيع، بيروت 1993م، ص43.

(4)De Haedo(F.D), Histoire des Rois, op. cit, p49.

3.ب–الإخوة برباروس في تونس:

تعود الاتصالات الأولى بين الدولتين الحفصية و العثمانية إلى عهد السلطان محمد الفاتح [1]، و أَبِي عمر عثمان، حيث أرسل الأخير وفدا لتقديم التهاني بمناسبة الفتح العظيم ، يدل ذلك على أن المسلمين كانت تربطهم علاقات روحية إسلامية قبل أي علاقات من نوع آخر. وبمناسبة بداية الوجود العثماني في تونس يرجع إلى مساعدة أمراء بني حفص للإخوة برباروس الذين كانوا على مقربة من البلاد ، بجزيرة جربة التي كانوا يتخذون منها قاعدة لهم. و في الكثير من الأحيان اشتركوا معهم (أي بنو حفص) في غزواتهم.

أجزل عروج الأموال التي غنمها على أمير تونس، و طلب منه أن يمنحه مكانا يقيم فيه، فوافق الأمير على ذلك مقابل خُمْسِ الغنائم شريطة أن لا يدخل في خلاف مع سكان المنطقة، و قد منحهم مكانا في حلق الوادي للإقامة بشكل دائم عام 1513م[2]، أثبت عروج و إخوته مقدرة كبيرة في عمليات الاستيلاء على السفن. والأَسْرِ ومن أشهر ما قام به أَسْرِ السفينة البابوية (غالية رويال) و سفينة أخرى كانت معها، و أخرى عملاقة إنجليزية تحمل غنائم كثيرة جدا[3].

وغنم أيضا سفينة فرنسية محملة بألف شدادة من الملْف، و بذلك وفَى عروج بالتزامه للأمير الحفصي، حيث قدم له خمس الغنائم و عليه انتفعت الخزينة بعائدات النشاط البحري، و زادت شهرة عروج و إخوته كما أسلفنا، و يرجح أن يكون هذا عام 1514م[4]. يقال أن هذا الأ مير الحفصي فتك بكل إخوته، و لم يبق منهم إلا واحدا و هو الرشيد الذي فرَّ إلى خير الدين فيما بعد. و اصطحبه إلى اسطنبول حيث أقنع السلطان سليمان القانوني بمهاجمة تونس، خاصة و أن ضمها يُمَكِنْ الدولة العثمانية من تأمين الطريق إلى الجزائر و السيطرة على شمال إفريقيا.

بدأ الإخوة في ملاحقة السفن الإسبانية، ورد العديد من الهجمات على سواحل المغرب، و بعد اقتراب الخطر من تونس باحتلال مدينة بجاية ، عام 1510م، بقيادة بيدرو نافارو ، وبذلك تكون هذه العملية هي بداية تقلص نفوذ الدولة الحفصية، حيث رمى الإسبان بثقلهم لاحتلال مدينة طرابلس الغرب لأهمية موقعها، و على هذا الأساس تكون البلاد قد حوصرت من شرقها وغربها و شمالها، مادامت إسبانيا تسيطر على البحر ، بشكل شبه تام على الأقل في هذه الفترة، هذا فضلا عن عدم استقرار الأوضاع و حالات الفوضى اللامتناهية.

---

(1) الوزير السراج محمد بن محمد الأندلسي، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم و تحقيق الهيلة محمد الحبيب، ج2، القسم 1، دار الكتب الشرقية، تونس 1973م ص72.

(2) سامح عزيز ألتر، المرجع السابق، ص 44.

(3) المرجع نفسه، ص110.

(4) المنوي محمد الفراتي الصفاقسي، تاريخ عروج رايس و أخيه خير الدين بمدينة الجزائر، مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية، رقم0231، ورقة 11.

4- مظاهر التنافس على تونس:

4.أ-سيطرة خير الدين على تونس 942 هـ / 1534م:

جهز خير الدين حملة كان قوامها ثمانية ألاف جندي، و سار بها نحو بنزرت، غير أن صاحب كتاب غزوات يروي أن خير الدين لم يكن لديه نية للسيطرة على بنزرت ؛ بل أنه لما كان ينوي الرجوع إلى الجزائر هبت ريح وساقته إلى بنزرت من ناحية تونس، و عندما رأى الأهالي تلك المراكب هربوا و تحصنوا بالقلعة التي فر صاحبها إلى مدينة تونس. و ما لبث أن ذاع خبر تواجد خير الدين بتونس، مما أدى بالسلطان مولاي حسن الحفصي إلى الهروب و الاستنجاد بالعرب هو كذلك[1] و دعا من هناك للدفاع عن البلاد، إلا أنه لم يجد آذانا صاغية. يدل هذا على أنه كانت هناك فجوة كبيرة بينه و بين شعبه الذي يكرهه.

نزل خير الدين في بنزرت ثم توجه نحو تونس التي فتحت له أبوابها عام 1534م، و ظن أهلها أنه جلب معه الرشيد الحفصي، و عندما علموا بعكس ذلك التفوا حول مولاي حسن حليف الإسبان ثانية [2]، غير أن شيوخ العرب كانوا لا يستقرون على طاعة أمير واحد، و يتحالفون مع من يكون له الغلبة[3]. و من ثمَّ توجه إلى الجنوب لإخضاع القبائل المتمردة، سعيا منه لتوحيد البلاد، و يبدو أن عدم الاستقرار السياسي و عدم الانسجام بين عروش البلاد كان السمة الغالبة على الوضع، و سَيَحُولُ دون تحقيق رغبته، خاصة و أنه يوجد من يمثل الحفصيين ، حيث عمل خير الدين على الطلب في أثر أميرهم من خلال كتابته لكل الجهات قائلا"..أنه من يمسك به ويحضره له ثلاثون ألف دينار، و من آواه و أخفاه فسيرى ما يحل عليه من الانتقام..."[4].

يحضر لدينا سؤال مهم ألا وهو: لماذا حقق الإسبان هذه الانتصارات بسهولة خاصة في تونس؟ لعل الإجابة تكمن في أن التونسيين كانوا منقسمين بين مؤيد لهم و مؤيد للعثمانيين، هذا فضلا على حالة الوهن الكبير الذي وصلت إليه الدولة، و عدم مقدرة الحكام على بسط نفوذهم. كما أن الدولة الإسبانية كانت لا تزال في رعيان شبابها وقوتها، و الكنيسة المسيحية تدعمها، و بالمقابل فالجيش الحفصي لا يفقه كثيرا من أمور الحرب البحرية، فهو جيش بري بالدرجة الأولى، و منهك بسبب عدم استقرار الأمور لفترة طويلة في ربوع تونس . لذا لن يتخلى شارلكان عن طموحه في الاستيلاء على الموانئ التونسية الواحدة تلوى الأخرى[5].

---

(1) مجهول، غزوات عروج و خير الدين، تعريب نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية و المكتبة الأدبية، الجزائر1934م، ص ص 91- 92.

(2) عودة محمد عبد الله، تاريخ العرب الحديث، دار الأهلية للنشر و التوزيع، عمان 1989م، ص27.

(3) مجهول، غزوات، المصدر السابق، ص94.

(4) المصدر نفسه، ص93.

(5) Braudel (F), Les Espagnols et La Berbérie, op. cit, p80 .

4.ب- احتلال شارلكان لتونس عام 943هـ / 1535م:

استغل شارلكان الحرب الدائرة بين العثمانيين والصفويين ؛ ملوك إيران في تبريز بالشرق ، و عزم على الإبحار بأسطوله لاحتلال سواحل شمال إفريقيا ، وكان عدد عساكره عشرين ألف مقاتل، و لما سمع به أمير تونس كتب إليه يخبره بأنّ خير الدين ظلمه و استولى على مملكته، مبررا ذلك علمه ويقصد خير الدين، بالصداقة التي بيننا، و أنه يقود جيشا قوامه ستون ألف جندي، لابد أن هذه الأخبار توحى من خلالها الأمير الحفصي التعاون مع شارلكان للتخلص من عدوه،كما أنها تدل على الخوف الكبير الذي كان يمثله خير الدين في البحر المتوسط، و بالفعل تم محاصرة قوات خير الدين برا و بحرا[1]، و تم الهجوم على تونس واكتساحها. ومن العوامل التي ساعدت هؤلاء على الانتصار نذكر ما يلي:

1- العدد الكبير لقوات الحملة الإسبانية التي كانت مشكلة من التحالف المسيحي، من عدة دول، من أبرزها إسبانيا صاحبة الشأن، والدويلات الإيطالية، و البرتغال و ألمانيا بالإضافة إلى فرسان القديس يوحنا و بعض من كان برفقة خير الدين أثناء استيلائه على تونس في العام الماضي[2].

2- التنظيم المحكم الذي سارت عليه الحملة، والمعنويات المرتفعة لجنود شارلكان ، و المزودة بالأسلحة الحديثة خاصة المدفعية منها.

3- قلة عدد قوات خير الدين المؤلفة من بضع ألاف من الجنود منهم الأتراك و غيرهم، مقارنة بجيش التحالف.

4- إطلاق سراح الأسرى المسيحيين ليتسنى إشاركهم في المعركة إلى جانب التحالف، حيث يقدر عددهم بحوالي اثني عشر ألف رجل.

و هكذا سقطت تونس في يد الإسبان عام 1535م مرة أخرى ، ولم يدم بقاء خير الدين فيها إلا بضعة أشهر و بالمقابل دخل الغرور و الكبرياء قلب شارلكان، و بدأ يبحث عن انتصارات أخرى [3]، و لعله كان يفكر في تحقيقها على حساب الجزائر، خاصة بعد علمه بأن خير الدين لم يعد حاكما عليها،كما أن أوربا استقبلت نبأ الانتصار بفرحة غامرة، على إثرها انسحب خير الدين إلى إحدى قواعده في الغرب بإيّالة الجزائر، تاركا تونس ليعود إليها فيما بعد، و من جملة ما خلفته الحملة من نتائج نذكر:

---

(1) مجهول، غزوات، المصدر السابق، ص 95.

(2) Dunant(J. Henry), Notice sur la Régence de Tunis, Genève, imprimerie de ules-G-fick 1858, p18.

(3) De Paradis(V), Expédition conter Alger, op.cit, p9.

1- قيل أنه قد مات الثلث من أهل تونس، و نجا منهم الثلث، و أُسرِ الثلث الباقي[1]. و هذهتقديرات قد يكون مبالغ فيه ا، لأنه مهما يكن من أمر فإن السكان كانوا يفرون عندما يلاحظوا أي خطر حط ببلادهم، و المواجهات كانت بين القوتين العثمانية و الإسبانية أكثر، و لا ننفي أن السكان زُجَ بهم في المعارك مرات عدة.

2- ظهور التقارب العثماني الفرنسي بعد عام 1536م[2]، حيث مُنِحَ الفرنسيون امتياز صيد المرجان، بالشرق الجزائري، مغتنمين حالة الحرب القائمة.

3- زيادة أطماع شارلكان - نتيجة ارتفاع معنوياته — في إمكانية تحقيق نصر على العثمانيين بالجزائر، لعله يبسط سيطرته على سواحل المغرب كلها بداية من وهران إلى الجزائر إلى بجاية فتونس إن حالفه الحظ، حيث شن حملة على الجزائر عام 948هـ/1541م.

4- إعادة تنصيب مولاي الحسن الحفصي على عرش تونس ، بعد طرد خير الدين و قواته منها، هذا التنصيب سيكون بشروط أقل ما يقال عنها أنها قاسية.

خلافا لما تم ذكره بشأن الرشيد و احتمائه بخير الدين، يذهب بعض المؤرخين إلى أبعد من ذلك في أن ورثة العرش كانوا يستنجدون بالمسيحيين ضد معارضيهم مما زاد من كثرة و حِدّة التدخلات الأجنبية في الشؤون الداخلية للبلاد، و أي معارضين فكثيرا ما كانوا من الإخوة و الآباء،كما حصل مع أحد أبناء الأمير أحمد، حيث استنجد بالإسبان للاستيلاء على العرش الذي ليس له الحق فيه [3]. رغم أنه في الغالب تكون الأمور واضحة في من سيتولى الحكم، و لكن الدسائس الأجنبية كانت دائما تتسبب في إثارة المشاكل حول العرش.

أ عاد شارلكان تنصيب مولاي الحسن، رغم درايته بضعفه و كره الناس له، كان يرجو من ذلك موافقته على شروطه، حيث طلب منه أولا أن تكون تونس تابعة لمملكة إسبانيا[4]، و إن كان كذلك فهو أيضا تابع لسيده. حيث وقع الأخير على الاتفاقية المهينة[5]. و رضي بشروطها المجحفة تلبية لنزواته، غير مبال برأي رعيته و مصير بلاده وعندما ستنكشف الأمور على حقيقتها، سيندم كل من حارب القوات العثمانية أو وقف ضدها. و من بين شروط الاتفاقية نذكر ما يلي:

---

(1) ابن أبي الضياف أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، مج1، ج2، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس2004م، ص13.

(2) Rozet et Carette, L'Algérie, Paris, Firmin didot frères, Paris, Editeurs imprimeurs de L'institut, 1850, p476.

(3) المطوي محمد العروسي، المرجع السابق، ص 658 .

(4) سامح عزيز ألتر، المرجع السابق، ص 119.

(5) De Haedo(F.D), Histoire des Rois, op .cit,p58.

1- إطلاق سراح جميع الأسرى؛ المسيحيين المسجونين في تونس.

2- أن يتنازل مولاي حسن للإمبراطور على حلق الوادي، المهدية و عنابة.

3- أن يلتزم بدفع ضريبة سنوية لمملكة إسبانيا تقدر بإثني عشر ألف دوكة.

4- أن يلتزم بعدم السماح للبحارة المسلمين بشغل الموانئ التونسية.

5- أن لا يسمح بدخول مهاجري الأندلس للبلاد، تحت أي ظرف(1).

4.ج- عودة العثمانيين إلى تونس:

رغم انتصار شارلكان في تونس وطرد العثمانيين منها، إلا أنهم عادوا إليها من جديد عام 1541م(2)، و تمكنوا من السيطرة عليها ، و فيما يبدو أن مصيبة شارلكان في هذه السنة كانت مصيبتين، ففي هذا التاريخ بالجزائر قد تعرض لانتكاسة عظيمة، بعد الهزيمة النكراء التي مني بها ، و التي أفقدته أكثر من ثلثي جيشه. هذه النكبة المزدوجة خلفت نتائج على أكثر من صعيد بالنسبة لملك الإسبان و منها نبين:

1 -اهتزاز مكانة مملكة إسبانيا، و عدم قدرتها على التحكم في الوضع، خاصة في أوربا.
2 -اكتساب الجزائر و الدولة العثمانية لمكانة أرعبت أوربا عامة و اسبانيا خاصة، لعشرات العقود من الزمن.
3 -فقدان الإسبان لبعض الموانئ التي كانوا يحتلونها كطرابلس الغرب و بجاية.
4 -زيادة حماسة بحارة الجزائر في خوضهم لغمار الحروب ضد العالم المسيحي، حيث برز منهم الكثير و على رأسهم العلج علي.

د- محاولة الإسبان احتلال تونس ثانية 956هـ/ 1548م:

بعد السيطرة على تونس، شرع العثمانيون في الاستحواذ على المدن الساحلية - رغم المعنويات المنحطة لديهم من جراء وفاة خير الدين عام 1546م - الواحدة تلوى الأخرى، مما أدى ب أمير تونس أحمد حميدة إلى الاستنجاد بالإسبان مرة أخرى، فكلف شارلكان أمير صقلية، الذي بادر بإنجاد ملك تونس بالسفن و المؤن و الجنود لتمكينه من طرد العثمانيين و كان ذلك عام 1548م(3).

---

(1) المدني أحمد توفيق، المرجع السابق، ص 215.

(2) بوعزيز يحي، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص 48.

(3) عودة محمد عبد الله، المرجع السابق، ص 28.

قاد الحملة ماركي دو تيرنوف أحد نبلاء صقلية ؛ التي كانت يومئذ تابعة لمملكة إسبانيا، و قد تمكن هذا القائد من تكوين أسطول قوامه أربعة عشر سفينة، منها عشرة من صقلية و أربعة من مالطة، بالإضافة إلى أربعة سفن ضخمة أخرى من إسبانيا. التقت هذه السفن والأسطول الأول قبالة سواحل سوسة التونسية، كما أن الأمير الحفصي أرسل حوالي سبعة ألاف فارس من الجنوب دعما للحملة، منهم الأتراك و العرب و جعل قيادته لابنه، وبعد التقاء الجيشين تم محاصرة المدينة دون إحراز فائدة تذكر، فقد استطاع العثمانيون وأهالي المدينة من خلال حاميتهم السيطرة على الوضع، حيث قتلوا "الدون ديبكو"، و "دوكانسيليا" قائد المعسكر و "روب روميلو" قائد السفن المالطية. و عدد من النبلاء والجنود، فاضطر النصارى لفك الحصار و الإقرار بالهزيمة و النصر للأعداء، لم يهضم الأمير الحفصي و لا الإسبان الدرس، حيث نجدهم يعاودون الكرة، عام 1551م، و لكن دون جدوى[3].

لم يستطع آخر الأمراء الحفصيين الجلوس على كرسي العرش دون مساعدة الإسبان، و لم تكن أحوال البلاد بخير. فالكثير من المناطق في حالة تمرد، و أخرى خاضعة للإسبان و بعضها تحت حكم العثمانيين. لذا نجد أن العلج علي تحرك، في أكتوبر من عام 1569م، و استطاع أن يضم ما تبقى من الأراضي الحفصية للسلطة العثمانية بالجزائر. دون أي تغيير في الوضع القائم بقلعة حلق الوادي ؛ والتي كانت تشرف عليها حامية إسبانية، حيث أن الأمير أحمد الحفصي كان يلتجئ إليها عندما يفقد نفوذه في المناطق التي كانت خاضعة له.

عَيَنَ العُلج علي قائدا عسكريا على تونس ، و هو رمضان باشا، مدعما إياه بالجند الإنكشاري و المقدر عددهم بثلاثة ألاف جندي و الذخيرة الحربية، لتسيير شؤون البلاد. في عام 1573م حاول الإسبان استرجاع مناطق نفوذهم، من خلال شن حملة بقيادة دون جوان والتي نجحت في أواخر عام 1573م[2]، إن هذا النجاح كان سببه في كل مرة هو التواجد الإسباني في قلعة حلق الوادي المحصنة تحصينا جيدا ، مما أدى بالعثمانيين إلى توجيه حملة مضادة بقيادة سنان باشا على قلعتي حلق الوادي وسان جون الحصينتين[3].

آلت الدولة الحفصية إلى هذه الأوضاع المتردية؛ التي ألقت بضلالها على العلاقات مع العثمانيين منذ أن ضموا الجزائر إلى حكمهم عام 1518م، حتى نهاية حكم هذه الدولة في تونس عام 1574م. وبذلك يكون حدس هؤلاء في محله لذا إلتجأوا إلى الإسبان طالبين حمايتهم. وعليه يتبادر إلينا السؤال التالي: لو قَبِلَ الحفصيون بالوجود العثماني على أرضهم في البداية و لم يستنجدوا بالإسبان أعداء العثمانيين، هل كان ملكهم سيزول أم أنهم سيبقون فيه و لكن تحت جناح سلطتهم؟

---

(1) سامح عزيز التر، المرجع السابق، ص 210.

(2) De Haedo(F.D), Histoire des Rois, op .cit, p 44.

(3) هلايلي حنيفي، المرجع السابق، ص44.

ثالثا – علاقات إيّالة الجزائر بتونس 1518م– 1587م:

1– علاقة الحفصيين بالإخوة بربároس:

بادئ ذي بدء يجب أن نُذَكِرَ بالدور الذي قام به أمراء الدولة الحفصية في تشجيعهم للجهاد البحري، عندما سمحوا للإخوة بربروس باستغلال إحدى الموانئ بتونس، بعد أن كانوا قبلها بجزيرة جربة. رغبة في الجهاد ضد الأعداء فقد منح الأمير الحفصي أبو عبد الله محمد أموال كثيرة و تسهيلات لدفع المتطوعين للجهاد أكثر مما يعطيه الإمبراطور البيزنطي لرجال الفرنك الصليبيين في طريقهم لبيت المقدس [1]. غير أنه يوجد هناك من يقول أن سبب قبول بني حفص بإقامة الإخوة بربروس بسواحل تونس هو ح صولهم على خمس الغنائم. و على الأرجح يكون الرأي الأخير هو الصواب، ذلك أن الدولة الحفصية كانت في ضائقة مالية كبيرة.

و مهما يكن من أمر فإن استقرار الإخوة كان أمر عاديا طالما كانوا يمثلون مصدرا هاما للأموال و بالمقابل عدم تدخلهم في الشؤون الداخلية للدولة الحفصية، و لكن الأمور نجدها قد تطورت بعد النجاحات التي حققها الإخوة بالمغرب الأوسط . مما أدى بالأمير الحفصي إلى تغيير وجهة نظره فقد رفض تزويدهم بالبارود [2]، رغم الأمر الهمايوني الذي بعث به السلطان العثماني سليم الأول إلى أمير تونس لدعم الإخوة بربروس، و هذا نصه " إلى أمير تونس: إذا وصلك كتابي هذا عليك أن تعمل به و أحذر أن تخالفه، و إياك أن تقصر في تقديم العون لخادمينا عروج و خير الدين". و كان هذا الأمر بعد أن أصبح الإخوة تحت حكم الدولة العثمانية، و لم يعودوا مجرد بحارة[3].

منذ ذلك الحين تغيرت سلوكات أمير تونس تجاه عروج و خير الدين و سعى لتقويض وجودهم في الجزائر حيث وجه كتابا لسلطان تلمسان يقول فيه " أنظر إلى مملكة الأتراك كيف استقرت بالجزائر وأن هذا الرجل يقصد (خير الدين)، إن دامت أيامه و اتصلت في المملكة أعوامه، فلابد أن يستولي على ما بيدي و يدك فأنظر لنفسك فإن هذا الرجل قد فتح عمالة الجزائر ، واستولى على مدينتها بطائفة قليلة من العسكر الذين كانوا يعملون معه في البحر..." [4] فوافق أمير تلمسان على إحداث التفرقة بين ابن القاضي و خير الدين و محمد بن علي عامل إحدى أقاليم تونس، و تمكن ابن القاضي بالإنفراد بمدينة الجزائر، لمدة خمس سنوات تقريبا[5].

---

(1) سبنسر وليام، المرجع السابق، ص 37.

(2) خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 73.

(3) المصدر نفسه، ص69.

(4) مجهول، غزوات، مصدر سابق، ص44.

(5) شوفاليه كورين، المرجع السابق، ص47.

كان هذا التحالف هو أول عمل يحدث ضد خير الدين بالجزائر قبيل حكم هـ لها فقد بدأ محمد بن علي أحد رؤساء عرب إفريقية بالعمل بكتاب أمير تونس، مما أفضى إلى قيام حروب بين الطرفين هلك فيها ابن علي، في عام 1517م[1]. و نلاحظ هنا أنه لا أمير تونس و لا أمير تلمسان استطاعا أن يواجها خير الدين و إنما حرضا بعض من أتباعهما أمثال ابن علي و ابن القاضي للوقوف في وجه هـ بسبب تخوفهما من خير الدين خاصة و أنهما ألحقا به الأذى سابقا، فأمير تونس انقلب على الإخوة و وشى بهم إلى أمير تلمسان، أما الأخير فقد قتل أخوي خير الدين إسحاق و عروج ، عام 1518م[2]. و عليه نجد أن ابن علي لم يمت ، في عام 1517م حسب الرواية الأخيرة لصاحب كتاب غزوات، مادام عروج قد مات، عام 1518م. و يكون قد لقي حتفه بعد مقتل عروج.

سعى أمراء تونس و تلمسان للفتك بالإخوة ، ولكن على الرغم من ذلك فإن خير الدين بعد وفاة أخويه نجد أن حكمه في مدينة الجزائر قد استقر كما ذكرنا سابقا، و تدعم وجوده بمساعدة العثمانيين الذين أدركوا أنه لإحكام سيطرتهم على الجزائر في ظل التهديدات القائمة لابد من تحرير تونس، حيث قام خير الدين بمهاجمة حكام تونس، عام 1534م، و انتهت عملياته بضمها، و لكن لم يدم ذلك طويلا فقد طرد منها في العام الموالي ، بسبب تكاتف جهود الحفصيين و الإسبان، كما ذكرنا ذلك آنفا.

و مما تجدر الإشارة إليه أن الحدود بين إيّالة الجزائر و تونس كانت الأكثر صعوبة في القرن السادس عشر ميلادي، ذلك أن حكام تونس الحفصية كان بإمكانهم على حسب المعطيات التاريخية التي تعود إلى العصور الوسطى زمن شّنِ الهجمات على الأراضي الزيانية و التي تصل أحيانا إلى العاصمة تلمسان كان بإمكانهم إدعاء السيادة على معظم المدن و القبائل الواقعة بين مدينتي الجزائر وتونس، و لكن الضعف كان قد استشرى في أجهزة حكمها[3].

استفحلت حالة العداء بين الحفصيين والعثمانيين؛ و نجدها قد أصبحت كذلك تشكل تهديدا مباشرا للملك الحفصيين بتونس و غير مباشر لحكم العثمانيين بالجزائر، بعد أن قَوِيَتْ شوكة الإسبان المتعاونين معهم، و كانت سببا كافيا لإطالة أمد الصراع بين الطرفين، الذي بدأت كفته في الرجوح لصالح إيّالة الجزائر خاصة مع منتصف القرن السادس عشر ميلادي باسترجاع مدينة بجاية.

---

(1) أبو راس الناصر الجزائري، المصدر السابق، ص 162.

(2) مجهول، غزوات، مصدر سابق، ص 44.

(3) وولف جون، المرجع السابق، ص115.

2- دور الجزائر في تحرير تونس بعد وفاة خير الدين:

بعد رحيل خير الدين اضطربت أحوال تونس مادامت بعض موانئها محتلة من طرف الإسبان، و كذلك أحوال الجزائر بوجود الدولة الزيانية المتآمرة على حكومة الجزائر، ففي عام957هـ/ 1550م، غزا أهل نابل و جنـــوة و غيرهما مدينة المهدية و أخذوا ما بها، و قتلوا جل سكانها و أخلوها و انصرفوا و لكن فيما بعد رج-ع بعض أهلها و عمرت من جديد. حيث ملكوا جزيرة جربة [1]، و في هذه الأثناء ظهر الريّس درغوث باشا و اتخذ من الجزيرة مقرا له و ساهم في تحرير طرابلس الغرب عام 958هـ /1551م [2]، لتتوالى انتصارات هذا القائد،كيف لا و هو من أتباع خير الدين.

طلب أهل القيروان من الريّس درغوث النجدة حيث وضع لحكمها حيدر باشا و أحمد بن الحسين في هذه الفترة. وكانت بينهم وبين الإسبان حروب كثيرة بحلق الوادي المدخل البحري للمدينة [3]، و التي كانوا م سيطرين عليها، فقد شيدوا بها قلعة ضخمة بالغة التحصين و كانوا يرسلون منها المراكب البحرية لسلب المسلمين وأخذ سفنهم و متاعهم[4]، و هناك من تضطره العواصف خاصة المسافرين لأداء فريضة الحج، في عرض البحر، فيلجأ إلى السواحل فيجد نفسه في قبضتهم.

كما تجدر الإشارة إلى أنه لم تكن إسبانيا الوحيدة التي لها أطماع في تونس؛ بل حتى فرنسا التي تحصلت على رخصة لصيد المرجان في جزيرة طبرقة، عام 1520م، على الحدود الجزائرية التونسية ، منذ ذلك الحين تمكنت هذه الدولة من إعادة تجديد الامتياز، و في أغلب الأحيان بالشروط التي تطلبها،كما تمت لها السيطرة على احتكارات التجارة البحرية؛ في بايليك قسنطينة وبالضبط بالقالة شرق إيّالة الجزائر[5]. إن هذه الامتيازات تطورت فيما بعد حتى أصبحت حقوقا، أدخلت الدول في منازعات لا حصر لها، وهي في الحقيقة ليست كذلك و إنما كانت تدل على ضُعف الدولة العثمانية.

---

(1) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص 88.

(2) مقديش محمود بن عمر، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، ج 1، مطبوع بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم 66، د ت، ص254.

(3) De Grammont (H. D), Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830), Paris Ernest Leroux Editeur, 1887, p107.

(4) قنان جمال، نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500 - 1830م، دار هومة، الجزائر 2007م، ص62.

(5) برنيان أندري و آخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة إسطنبول رابح، د. م.ج، الجزائر 1984م، ص 166.

إن مساعدة الإسبان لأمراء تونس، لم يعجب العُلج علي ، الذي كان له طموح كبير ، في تحرير تونس فبعد استشهاد درغوث أثناء حصار مالطا ، عام 1565م، التحق بطرابلس الغرب ورتب أمورها [1]، قبل أن ينتقل إلى الجزائر التي عُينَ عليها كـ بايلرباي في شهر جوان 976هـ / 1568م بعد حكم محمد بن صالح ريِّس [2]. في هذه الفترة كان أحمد الحفصي ضعيفا جدا و حسب بعض الروايات التي تظهر ذلك، فقد أَسَّرَ لأحد وزرائه ؛ و هو أبو الطيب تاج الخضار و قال له"...لو جاء علي باشا صاحب الجزائر ، و أراد احتلال تونس و أخذها عنوة و لو كان في عدد قليل من الجند ما كنت ألقاه و إني لفي حيرة من أمري ، و لا أدري ما أفعل...". يدل هذا على حالة البلاد السيئة، وأن الدعم الإسباني الذي كان يلقاه لم يعد كذلك، لأن الإسبان هم الآن في حاجة إلى الدعم كذلك .

بعدما علم الوزير سِّرَ أميره، يكون هذا الأخير قد أصبح في ورطة حقيقية، خاصة و أن صفو العلاقات بينهما سرعان ما تكدر، و هنا كتب الوزير إلى العلج علي باشا يخبره بحقيقة الأمر في تونس و يحرضه على السيطرة عليها، و كان ذلك عام 977هـ / 1567م [3]، و فيما يبدو أن العلج علي قد تحرك بناءًا على أمر السلطان العثماني الذي أرسل إليه أمرًا عن طريق المبعوث بيترو باشا الوزير ، و أمره فيه بـأن يضل عينًا ساهرة وأذناً صاغية لحماية الجزائر و تونس و فعلا تم ذلك عام 1569م كما أسلفنا سابقا[4].

و في العام الموالي دأب العلج علي باشا على مهاجمة الإسبان في تونس ، انطلاقا من الجزائر و صحب معه القائد رمضان تشولاق؛ باي قسنطينة، الذي عين على رأسها، عام 1567م، و في نفسه (العلج علي) أن يعاقب الأمير الحفصي مولاي أحمد على فعلته و إخلاصه في التعاون مع الإسبان، حيث اصطدمت قوات الطرفين في باجة وهُزِمَ الأمير الحفصي مما اضطره إلى الفرار باتجاه مدينة تونس، و لما لحق به العلج علي حيث لجأ، هرب ثانية إلى قلعة حلق الوادي مكان تواجد الحامية الإسبانية [5]. بعد هذه الحادثة أمر السلطان العثماني العلج علي بإلحاق منطقة القيروان وضم سائر النواحي الأخرى إلى تونس كما كانت عليه سابقا لتوحيد الجهود[6].

---

(1) الساحلي خليل اوغلو، وثائق عن المغرب العثماني أثناء حرب مالطا سنة 1565م، المجلة التاريخية المغاربية، العدد8.7، تونس1977م، ص42.

(2) أبو عمران الشيخ، سعيدوني ناصر الدين وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، منشورات دحلب، الجزائر 2002م، ص ص327 - 328 .

(3) المطوي محمد العروسي، المرجع السابق، ص ص 717- 718 .

(4) مهمة دفتري رقم14، حكم رقم 49، 979هـ تعريب التميمي محمد داود ، الأرشيف الوطني الجزائري، علبة رقم5، ص41.

(5) ابن العنتري محمد الصالح، تاريخ قسنطينة (فريدة منيسة..)، مراجعة و تحقيق بوعزيز يحي، دار البصائر، الجزائر 2008م، ص 31.

(6) مهمة دفتري رقم 10، حكم رقم10، 979/01/02هـ، تعريب التميمي محمد داود ، الأرشيف الوطني الجزائري، علبة رقم2، ص1.

لم يهضم ا لإسبان سيطرة العثمانيين على تونس ، لذا عملوا على التحضير لحملة ضخمة للاستيلاء عليها مجددا و على الجزائر إن أمكن، حيث وردت معلومات إلى السلطان العثماني سليم الثاني توحي بذلك. و عليه أصدر بدوره فرمانا لأمير أمراء جزا ئر الغرب يعلمه بالاستعداد للحملة و الدفاع عن نواحي تلك البلاد من الخطر الداهم[1] إن هذه المحاولات الإسبانية المتكررة و اليائسة كانت تدل على المأزق الكبير الذي تتخبط فيه الإمبراطورية المشرفة على الانهيار حيث كانت تسعى إلى عقد هدنة مع العثمانيين لحفظ ماء الوجه، و لكن محاولاتها باءت بالفشل في هذه الآونة، بسبب تَعَنُتِ العلج علي وحَثِهِ للسلطان العثماني على عدم القبول بالهدنة. ليتحقق لها ذلك فيما بعد، وهذا طبعا بعد تحقيق العثمانيين لمآربهم و إحساسهم بالضعف هم كذلك.

و في نفس العام حلت بالدولة العثمانية كارثة كبرى تتمثل في انهزام أسطولها البحري أمام التحالف المسيحي في ليبانت عام 979هـ /1571م، و التي برز فيها العلج علي قائد الأسطول الجزائري الذي إستطاع بمهارة فائقة تخليص السفن التي تحت إمرته من قبضة العدو، هذه الكفاءة العالية التي أبرزها العلج علي أدت بالسلطان سليم الثاني إلي ترقيته إلى رتبة قبودان (أميرال) البحرية العثمانية مع احتفاظه بسلطته على الجزائر، كما فوضت له الحكم على تونس فيما بعد[2]، و يظهر ذلك من خلال الأمر السلطاني الذي ورد من اسطنبول، بتاريخ 979/10/25هـ/ 1572/03/11م و نص على ذلك حيث جاء فيه " إلى القائد رمضان قائم مقام وكيل أمراء الجزائر (علج علي) في سوسة، القيروان، المنستير، بلاد الجريد وبنزرت من نواحي تونس يتضمن تعيينه على تلك المناطق المذكورة [3]، نزولا عند رغبة أعيان تونس الذين قاموا بتزكيته لدى السلطان العثماني(أي رمضان باي) تحت إمرة العلج علي.

بعد هذه الأحداث قصد دون جوان الزمساوي شقيق فليب الثاني مدينة تونس ، أواخر عام 1572م حيث احتلها دون أن يلاقي أي مقاومة تذكر، لارتحال من كان بها من العثمانيين عند قدوم السفن الإسبانية، و تحققهم من أن الدفاع لا يجدي نفعا ، لقلة عددهم بالنسبة لقوات الحملة و كذلك لفرار أهلها لطول فترة الحرب و عدم تغلب طرف على آخر لتستقر الأمور.

كما يجب أن نشير إلى أن السلطان العثماني أمر العلج علي بضرورة التصدي لهذه الحملة [4]، و لكن فاته الأوان، و بعد احتلالها تم إعادة الأمير الحفصي مولاي حسن إلى الحكم بعد أن كان في القلعة الإسبانية المتواجدة بحلق الوادي، حيث احتمى بها عندما سيطر العثمانيون على تونس في المرة السابقة[5].

---

(1) مهمة دفتري رقم 10، حكم رقم10، المصدر السابق، ص1.

(2) نفسه، رقم12، حكم رقم 1088، 979/11/07هـ، علبة رقم3، ص571 .

(3) نفسه، رقم 18، حكم رقم 237، 979/10/19هـ، علبة رقم18، ص135.

(4) نفسه، رقم16، حكم 40رقم، 979هـ، علبة رقم 5، ص24.

(5) المحامي محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق حقي إحسان، ط1، دار النفائس، بيروت 1981م، ص 258.

3- دور الجزائر في التحرير النهائي لتونس 982هـ / 1574م:

برز دور الجزائر واضحا في تحرير تونس، ففي عام 1572م اندلعت ثورة بقسنطينة و استعمل الباي مصطفى تشولاق الشدة لإخمادها، و تجددت الثورة في العام الموالي، حيث اضطر الباي إلى الاستنجاد بقوات مخزن الدواودة وتطورت الأمور بعد انضمام قبيلة الحنانشة في الشرق إلى التمرد، و على الرغم من هذه الاضطرابات إلا أن سكان البايليك الشرقي شاركوا في الهجوم على القوات الإسبانية بتونس ملحقين بها خسائر معتبرة(1).

إن بقاء الأمير الحفصي مولاي حسن على قيد الحياة ؛ يبدو أنه لن يترك الأمور تستقر على حالها، فقد توجه إليها العلج علي و في طريقه استولى على مالطا، وشتت شمل فرسان القديس يوحنا، و ما أن وصل تونس حتى بدأ محاربة الاحتلال الإسباني ، و بالمقابل نصب حيدر باشا وكيلا عليها مع بعض القوات قليلة العدد بتاريخ 1573/05/18م(2). فما كان على أمير تونس إلا الاستنجاد مرة أخرى بالإسبان بحلق الوادي طالبا منهم العون مقابل بعض المناطق يحتلونها، و على إثر ذلك جهز الإسبان الحملة بقيادة حميد الحفصي بن حسن و التقى الجمعان في معركة انتهت بانتصار الإسبان و انهزام حيدر باشا(3).

نلاحظ أن تبادل الانتصارات و الهزائم لن ينتهي دون القيام بهجوم شامل يقضي على جيوب التواجد الإسباني بتونس نهائيا، فالخطأ الذي وقع فيه العثمانيون هو عدم السيطرة على مركز قوة الإسبان بحلق الوادي، وجزيرة شكلي ببحيرة تونس (*)، وهذا الأمر أدى بـالعلج علي لإعداد حملة ضخمة بمعية الوزير سنان باشا، و قد اختلف المؤرخون في تعدادها، كما اختلفوا في تاريخ وصولها، و على كل بعد أن أرست الحملة أمام القلعة على الأرجح يوم 1574/07/25م بالتنسيق مع القوات البرية القادمة من القيروان و طرابلس الغرب و الجزائر بقيادة كل من حيدر باشا و مصطفى باشا و رمضان باشا برفقة عرب أحمد و منه تم الهجوم على القوات الإسبانية بحلق الوادي(4).

إن إعداد هذه الحملة و بهذا الشكل كان ينم عن رغبة الدولة العثمانية في طي هذا الملف ، الذي بقي لفترة طويلة من الزمن، لعدة أسباب أهمها اشتغال العثمانيين به عن أمور أخرى لا تقل أهمية عنه، كما أنه إذا بقيت تونس بأيدي الإسبان فإن تواجدهم بالجزائر، سيكون في خطر دائم، ما داموا يسيطرون(أي الإسبان) على وهران.

---

(1) ابن العنتري محمد الصالح، المصدر السابق، ص31.

(2) هلايلي حنيفي، المرجع السابق، ص 45.

(3) حليم إبراهيم بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت1988م، ص 101.

(*) تقع شرق مدينة تونس، مساحتها أربعة عشر ميلا، بوسطها جزيرة شكلي، طولها ميلان. للمزيد أنظر: الدولاتيلي عبد العزيز، أضواء تاريخية على بحيرة تونس، المجلة التاريخية المغربية، العدد3، تونس 1975م، ص33.

(4) قاسم أحمد، إيّالة تونس العثمانية على ضوء فتاوي ابن عظوم (1574- 1600م)، تقديم التميمي عبد الجليل، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس 2004م، ص ص64- 65.

كانت قوات الجزائر المشاركة في الحملة تقدر بـ ثلاثة آلاف جندي إنكشاري و آلاف المتطوعين من الأهالي حيث يذكر شاهد عيان إيطالي كان يعمل موظفا لدى الوحدات العسكرية الإسبانية ، إن الأهالي شاركوا في الحملة من مختلف المناطق كتونس، القيروان، بنزرت، و طرابلس الغرب، أما بالنسبة للجزائر فقد ذكر بسكرة، قسنطينة، عنابة وحتى تلمسان[1]. إن مشاركة بعض سكان الناحية الغربية يدل على كرههم الشديد للإسبان الذين يحتلون مدينة وهران و المرسى الكبير، وبتواجدهم هذا منعوا وصول الأهالي إلى الساحل و بالتالي حرموهم من خير كثير، و الأهم من ذلك سلبوهم حريتهم التي لا تقدر بثمن.

تم ضرب حصار محكم على حلق الوادي لمدة أربعين يوما و في هذه الأثناء نجد أن الدون جوان أعلن في 1574/09/07م عن نيته في التوجه إلى تونس لنجدة المحاصرين على رأس أسطول مكون من 60 سفينة، فلم يأذن له الملك بذلك إلا في 1574/09/23م [2]، و بذلك يكون الأوان قد فاته، كما فات العلج علي في المرة السابقة حيث تمكن العثمانيون من الاستيلاء على حلق الوادي و على جزيرة شكلي ببحيرة تونس، و أرغمت القوات الإسبانية على المغادرة برفقة الأمير محمد بن الحسن و أتباعه حيث تخلوا عن حصن الباستيون الذي يقع خارج باب البحر و ذلك قبل الاستيلاء على تونس[3]، غير أننا نجد في كتابات أخرى تقول بأن تونس حررت قبل حلق الوادي وقلعة الباستيون، حيث تورد بأنه تم اقتحام القلعة، يوم 1574/09/13م، و تم قتل الكثير و أسر عدد كبير من الإسبان، و على رأسهم قائد القلعة "زاموقيرا"، وبسقوط القلعة يكون الإسبان قد فقدوا كل مواقعهم ليس فقط بتونس وإنما كل المواقع الواقعة شرق وهران[4].

إن هذا الانتصار لم يكن ليحدث لولا العزيمة الكبيرة لدى البحارة الذين ضاق عليهم البحر من جراء التواجد الدائم للسفن الأوربية فيه، أمثال العلج علي و رمضان باشا، و من نتائج تحرير تونس نبين:

أ- تحرير تونس نهائيا من يد الإسبان.

ب- هزيمة الإسبان جعلتهم يفكرون في الجلاء عن وهران[5].

جـ- توسع التواجد العثماني بشمال إفريقيا.

---

(1) مروش لمنور، المرجع السابق، ص ص159- 160.

(2) Braudel (F), La Méditerranée et le monde méditerranéen a' l'époque de PhilippeII, 2eme éd, Paris, librairie Armand Colin,T2, 1966 ,p 97.

(3) مروش لمنور، المرجع السابق، ص ص 159- 160.

(4) بيشي رحيمة، المرجع السابق، ص 153.

(5) مروش لمنور، المرجع السابق، ص 139.

د – ضعف الإسبان و قيامهم بمحاولات لعقد اتفاقية مع العثمانيين تنهي الصراع، بعد فشل محاولات التقارب مع الفرنسيين[1].

هـ – تكبد الجانبان خسائر معتبرة في الأرواح فالإسبان فقدوا ثمانية ألاف شخص ، خلافا لقوات الأمير الحفصي أما العثمانيين مع الطرابلسيين و التونسيين و الجزائريين فقد استشهد لهم حوالي عشرة ألاف شخص[2].

و – القبض على الأمير الحفصي محمد وإرساله إلى اسطنبول، حيث أعتقل، حتى توفي هناك.

عندما تم تحرير تونس نهائيا من الاحتلال الإسباني ألحقها الوزير العثماني بالجزائر ، في البداية و بالمقابل أوجد بالقصبة ديوانا يسهر على تسيير الأمور، يتكون أساسا من أفراد البلوكباشية كما أشرك فيه بعض مشايخ البلاد لمعرفتهم بخباياها[3]، ولكن بُعْدُ شمال إفريقيا عن السلطة المركزية باسطنبول سيؤدي بحكومة الباب العالي للنظر في الأمور بروية، لضمان الاستقرار و مسايرة الحكام لسياستها في هذا الجزء البعيد من الأرض، فما هي الإجراءات المتخذة لتحقيق الهدف المنشود؟

4–إلحاق تونس بالدولة العثمانية:

منذ منتصف عام 1573م صدرت عن السلطة العثمانية عدة فرمانات؛ بتين أن تونس مستقلة إداريا كإيّالة عثمانية، و بعد الحملة الأخيرة لعام 1574م تأكد أمر استقلال تونس عن الاحتلال الإسباني حيث تم تعين حيدر باشا كحاكم فعلي على البلاد، يساعده الديوان في تصريف الأمور [4]. كما أكد الوزير العثماني سنان باشا على حيدر باشا؛ بضرورة تحطيم الحصون التي بناها الإسبان من ذي قبل . لإزالة آثاره الدالة على الاحتلال و لكي ينهي أمر التفكير بالعودة إليها ثانية و خاصة قلعة حلق الوادي ، لأن الذي يسيطر عليها يستطيع الاستيلاء على تونس بسهولة تامة. و كانت المقاطعة التونسية تسمى صنجقا ، مما يدل على طابعها العسكري حيث أبقى الوزير العثماني على حوالي أربعة آلاف جندي إنكشاري؛ لحماية البلاد، لأنه لا يوجد جيش يعتمد عليه مادامت الأمور في بدايتها و جعل على كل مئة منهم قائدا يسمى دايا و استحدث أمير اللواء لضبط أقاليم المملكة و استخلاص جبايتها [5].

---

(1) De Grammont(H. D), Histoire d’Alger, op. cit, p 118.

(2) بيشي رحيمة، المرجع السابق، ص 153.

(3) الجمل شوقي عطاء الله، المرجع السابق، ص 108.

(4) هلايلي حنيفي، المرجع السابق، ص 44.

(5) مقديش محمود، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق الزواري علي و محفوظ محمد ، مج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988م، ص86.

تميزت هذه الفترة من تاريخ تونس بتراجع الحملات الصليبية عليها، ورغم كل هذا حاول أمير تونس الحفصي استرجاع ملكه الضائع، بالتعاون مع بعض الدول المسيحية، و في إحدى المحاولات اليائسة استطاع إقناع الإسبان بِشّن حملة على تونس، عام 1576م، تم فيها أسر أكثر من ثلاثمائة شخص مسلم. ولم ينته الأمر عند هذا الحد فقد راسل هذا الأمير، الملك الإسباني فيليب الثاني 1578م لاسترداد عرشه.

كان بجزيرة مالطا أفراد من عائلة الحفصيين الحاكمة سابقا يقومون بمحاولات لتقويض الوجود العثماني بتونس[1]، و قد نجح أميرها السابق الذكر في تنظيم حملة عسكرية انطلاقا من جزيرة صقلية و مالطا 1581م[2] حيث تمكن من النزول بالشواطئ التونسية، و جمع الكثير من الأتباع الذين كانوا فيما قبل موالين للدولة الحفصية، ممن يحنون لحكمها و هذا طبعا لاستفادتهم من وجودها . و توجه بعدها إلى القيروان التي س يطر عليها بسهولة، و منها انطلق نحو حاضرة تونس ؛ بجيشه الذي بلغ تعداده حوالي أربعين ألف جندي ، من الفرسان و المشاة. و لكن قوات العثمانيين استطاعت أن تفرق جيشه و تلحق به الهزيمة، و بذلك تبخرت كل أحلامه بالعودة لحكم تونس[3].

5- علاقات الإيّالتين الجزائرية و التونسية ما بين1574 ـ 1587م:

إن الوضع الجديد بتونس يطرح أكثر من تساؤل، لأن السبب الرئيسي لقدوم العثمانيين إلى تونس أو حتى إلى الحوض الغربي للمتوسط هو الاحتلال الإسباني لهذه المناطق ، الذي يعد حجر الزاوية في علاقات الإيّالات العثمانية بالسلطة المركزية، أو حتى علاقات الإيّالات فيما بينها، و مادام الاحتلال قد زال و بدأت الإمبراطورية الإسبانية في طريقها نحو التفكك، خاصة بعد تدهور تجارتها في البحر المتوسط أواخر القرن السادس عشر ميلادي [4] و لن يعود الوضع السابق مجددا، على الأقل في هذه الفترة. فكيف ستتعامل الدولة العثمانية مع الوضع الجديد؟ و لا ندري إن كانت قد أقامت نظاما مستقلا بتونس يتبعها رأسا منذ عام 1574م، أم أنها ربطتها بإيّالة الجزائر والسؤال المطروح هنا هل كانت تونس تابعة لإيّالة الجزائر ، حتى تاريخ قيام نظام الباشاوات؟ أم أنها كانت إيّالة مستقلة تتبع سلطة الباب العالي مثلها مثل إيّالة الجزائر؟

و للجواب على هذه السؤال سنقوم باستعراض بعض ما كتبته المصادر التونسية خاصة والجزائرية، و حتى المراجع حول أمر التبعية من عدمها في الفترة المذكورة، كما أن الأوضاع القائمة في البلدين، هي التي ستحدد لنا هذا الأمر.

---

(1) سامح عزيز ألتر، المرجع السابق، ص 259.

(2) التميمي عبد الجليل، عثمنة إيّالات الجزائر تونس و طرابلس على ضوء مهمة دفتري 1559 – 1595م، المجلة التاريخية المغاربية، عدد 121، تونس 2006، ص 63 .

(3) سي يوسف محمد، أمير أمراء الجزائر علج علي باشا، دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر 2009م، ص 211.

(4) وولف جون، المرجع السابق، ص 93.

فالمؤرخ التونسي ابن أبي الضياف أحمد؛ تكلم عن التحرير النهائي لتونس بشئ من التفصيل، و لكنه لم يُشِرْ بصراحة لقضية ربط إدارة تونس بإيّالة الجزائر ، ماعدا إشارته للباشا الذي حكمها و هو رمضان عند مغادرة الوزير العثماني. حيث يقول "...وأبقى دارا من الينجرية عددها أربعة ألاف مقاتل ، أكثرهم اختار المقام بالحاضرة التي أنقذوها بأرواحهم...و جعل على كل مائة منهم أميرا يسمى الداي...و جعل أمير لواء لضبط الأوطان بالمملكة و استخلاص جبايتها يسمى الباي، مرادف للأمير و هو رمضان بن حسين التركي من جند الجزائر و يكون علي باشا قد أبقاه..."[1].

نلاحظ من خلال هذا القول تولية رمضان باي لتسيير شؤون الصنجق الجديد، فيما يخص جباية الضرائب. و المعلوم أن من كان يحكم الجزائر في هذه الفترة هو رمضان باشا (1574 إلى 1577م)[2]، و الأخير الذي عُيِنَ لِشَغْلِ المنصب بالصنجق الجديد بعد التحرير النهائي، هو على الأرجح نفسه حاكم الجزائر [3]، وكان يدير أجزاء واسعة من تونس منذ عام 979هـ/1572م[4]. كما أن ابن أبي الضياف لم يذكر أيضا تسمية الإيّالة.

و هناك قول واضح فيما يخص الموضوع، للأستاذ التونسي البشروش توفيق، يستند فيه إلى تقرير لجاسوسين هما فارسين من مالطا، مؤرخ في سبتمبر سنة 1587م حيث يقول"... إن سيادة الجزائر تبدأ من عنابة..."و أن عملية الجوسسة تمت في السنة نفسها التي انسلخت فيها إمارة تونس عن إدارة الجزائر واستقلت بذاتها إداريا و لأول مرة منذ إلحاقها بها في1569م[5]. وهنا نلاحظ أنه أشار بوضوح لإلحاقها بالجزائر منذ تحريرها الأول.

كما أن يحي بوعزيز أورد في سياق كلامه عن أسباب تغيير نظام الحكم في الجزائر ؛ من البايلربايات إلى الباشاوات، هو زيادة نفوذ هذه الفئة من الحكام، وأن سلطتهم تخطت الجزائر إلى طرابلس و تونس[6]، الأمر الذي قد يؤدي إلى تفكير هؤلاء الحكام بالانفصال، بشمال إفريقيا ، عن حكومة الدولة العثمانية . وهذا كذلك رأي صريح بالتبعية، لأن إضافة تونس لحكم بايلربايات الجزائر، سيزيد من قوتهم و بالتالي نفوذهم، و يدخل في أنفسهم الغرور و التفكير في إعلان التمرد على السلطة.

---

(1) ابن أبي الضياف أحمد، المصدر السابق، مج1، ج2، ص ص 26-27.

(2) بوعزيز يحي، الموجز،ج2، ص 393 .

(3) المدني أحمد توفيق، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766م ـ 1791م، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر، 2009م، ص 49.

(4) مهمة دفتري رقم12، حكم 1073، بتاريخ979/10/25هـ، الأرشيف الوطني الجزائري، علبة رقم3، ص ص 543-541.

(5) البشروش توفيق، جمهورية الدايات في تونس(1591م-1675م)، شركة أوربيس للطباعة، تونس1992م، ص ص 30-29.

(6) بوعزيز يحي، الموجزفي تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص 277.

و في السياق نفسه تطرح الدكتورة غطاس عائشة الشيء نفسه، الذي أورده بوعزيز يحي حيث تقول في جزء من كلامها "...أن الدولة العثمانية بعد أن عقدت اتفاقية مع إسبانيا، وتحولت سياستها نحو المشرق، و أصبحت التحديات هناك تقتضي حضورا أكبر، مما سيشجع البايلربايات الذين كانت تخضع لهم تونس و طرابلس الغرب على ضم المغرب، و تشكيل وحدة سياسية متماسكة تستقل عن مركز السلطة العثمانية ..."[1].

أما جون وولف فقد أشار أيضا إلى تبعية تونس لإيّالة الجزائر بشيء من الوضوح حيث يروي أنه بعد أن سيطر العثمانيون على تونس لم تنته مشاكل باشاوات الجزائر وأن استقلالها كان بعد وفاة علج علي عام 1587م حيث عين الباب العالي باشاوات الجزائر، طرابلس الغرب و تونس كل على حدا، و في هذا رأي صريح بأن تونس كانت تحت إدارة الجزائر [2]. و نجد أيضا رأي يصرح بذلك و هو لمحفوظ قداش حيث يقول "... إن مدينة الجزائر كانت أيضا مركزا لما يسمى بايلرباي يتمتع بالسلطة على الجزائر و تونس و طرابلس[3]. و هناك إشارات كثيرة تخص الموضوع، و لكن لا يسعنا المجال لذكرها هنا، لذا سنكتفي بهذا القدر.

يذكر أنه حدثت أمور تستحق الذكر في هذه الفترة بعد استقرار تونس منها حدوث فتنة بالمغرب أدت إلى تدخل البرتغال لصالح أحد المطالبين بالعرش ، مما استدعى وقوف الجزائر إلى جانب المغاربة ، ضد البرتغال في معركة وادي المخازن عام 1578م، التي انتصر فيها المغاربة على أعدائهم، مما سيؤدي إلى تحسن العلاقـات بين المغـرب و الدولة العثمانية الطامحة إلى ضَّمِهِ[4].

حدثت أمور أخرى في هذه الفترة أيضا ، و هي أن السلطان العثماني، أصدر أمرا لأمير أمراء جزائر الغرب عام986هـ / 1578م، والذي جاء فيه "إن الكفرة الفرنسيون يريدون صيد المرجان في سارقارز الواقعة بين الحدود الجزائرية التونسية. الأمر يجب السماح لهم بصيد المرجان في المكان نفسه و عدم التعرض لهم شريطة عدم إقامة أي قلعة أو علاقة وكذلك أدائهم ضريبة عشرة بالمائة عن المرجان " [5]. إن هذا الامتياز الذي مُنح للفرنسيين، سوف لن يتم الالتزام بشروطه خاصة فيما يتعلق بتوسيع مناطق تواجدهم وتحصينها، مما سيؤدي إلى توتر العلاقات بين الجزائر وفرنسا. وهذا التوسع لن يكون على حساب الأراضي الجزائرية فحسب بل على حساب الأراضي التونسية أيضا، مما ستكون له نفس النتائج. و سنجد بايات قسنطينة فيما بعد يطالبون بعشر ضرائب مرجان طبرقة من الفرنسيين.

---

(1) غطاس عائشة، المرجع السابق، ص48.

(2) وولف جون، المرجع السابق، ص114.

(3) محفوظ قداش، الجزائر في العهد التركي، مجلة الأصالة، مج 18، العدد 52، منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، الجزائر 2011م، ص 11.

(4) حليم إبراهيم بك، المصدر السابق، ص 103.

(5) مهمة دفتري رقم 35، حكم رقم314، 986/06/02هـ، تعريب التميمي محمد داود، الأرشيف الوطني الجزائري، علبة رقم 9، ص182 .

و إذا عدنا إلى موضوع التبعية فإن من جملة ما كتب ، و لم يتم فيه الإشارة إلى التبعية فهناك كتابات عدة كذلك، نذكر منها:

ما قاله ابن أبي الدينار في كتابه المؤنس حيث يورد "... و لما تم الفتح بَعث بالخبر إلى الباب العالي ، و أَنعم على من كان في ركابه ، من الزعماء والأكابر، و بذل إحسانه لمن كان معه من العساكر و أنعم على كل صاحب مرتبة بما يستحقه وعرض ذلك على الباب العالي ، فبلغ لكل أحد حقه و مهد البلاد وأمن العباد، و قمع و خافه أهل الفساد، و ترك في تونس من العسكر العثماني دارا من ديار الينشرية و هي الواحدة بعد المائة، على ما هو متعارف عليه بينهم و الجاري على عادة القوانين العثمانية، و من سلك طريقهم ... و جعلوا دار الخلافة بها، و هي المعبر عنها بدار الباشا، و كذلك الديوان...و حذوا في أول أمرهم حذو ديوان الجزائر..."[1].

يدل هذا الرأي على أن تونس كانت إيّالة مستقلة منذ البداية ، أي منذ تاريخ تحريرها النهائي عام 1574م، و الذي يوافق هذا الموقف هو رأي المسعودي الباجي، الذي لم يذكر أمر إلحاقها بالجزائر و هذا قوله "... لما فتح الوزير سنان باشا الحاضرة و قطع دابر الكافرين، و عزم على العودة إلى القسطنطينية، رتب أربعة آلاف وهناك من قال ثلاث آلاف من عسكر الترك، لحراسة البلاد و تأمينها، و رتب أمير لواء لضبط الوطن و جباية المال يسمى رمضان باي...والنظر العام لحيدر باشا؛ صاحب القيروان، و بقي الأمر على هذا الحد إلى عام 999هـ." [2]. و هو موافق لعام 1591م تاريخ الإطاحة بالبلوكباشية[*]. و هذا القول يشبه إلى حد كبير قول الوزير السراج في كتابه الحلل السندسية في الأخبار التونسية الجزء الثاني.

كما بين الأستاذ الدكتور هلايلي حنيفي في كتابه أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني و قد ذكرنا ذلك سابقا، في شأن إلحاق تونس بسلطة الباب العالي أن الدولة العثمانية اعتبرت تونس إيّالة مستقلة، منذ عام 1574م من خلال الفرمانات التي بعثت بها[3]، و لكنه يردف قائلا بأن حكام تونس كانوا يسايرون الحكام الجزائريين، غير أن سياستهم تباعدت عن حكم الجزائر منذ انفصال تونس عن الجزائر، و إعلان تأسيس نظام الباشاوية بهما ويكون ذلك، عام 1587م[4]. و في السياق نفسه هناك من يقول بأن تونس في سنة 1574م بعد تحريرها نهائيا ، كانت تتبع السلطان العثماني مثل الجزائر و طرابلس.

---

(1) ابن أبي الدينار الرعيني القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس 1386هـ، ص 189.

(2) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص 90.

(*) لفظة عثمانية (رأس الجماعة) تعني قائد فوج عسكري من المشاة. أنظر: ابن يوسف الصغير، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، تقديم و تحقيق الطويلي أحمد، مج1، المطبعة العصرية، تونس2009م، ص 17.

(3) هلايلي حنيفي، المرجع السابق، ص 44.

(4) المرجع نفسه، ص45.

يبدو أن رأي المؤرخ ابن أبي الضياف فيما ذكرنا سابقا عن قضية تولية رمضان باي للصنجق الجديد تكتنفه الضبابية وعدم الدقة، ذلك أن بعض من الكتابات التي تفحصناها تشير إلى أن رمضان باي كان قد حكم تونس بداية من شهر أوت 1577م حتى شهر جويلية 1579م، ولم يذكر أمره قبلها والذي عينه سنان باشا عند مغادرته هو حيدر باشا[1].

إنه بالرغم من تضارب الآراء حول تبعية تونس؛ لإيّالة الجزائر من عدمها، فهذا أمر عادي يحصل دائما وعليه فإن المؤرخين التونسيين ربما تجنبوا ذكر التبعية، و تغاضيهم عن ذلك لا يعني أنها لم تكن تابعة للجزائر، فهم كذلك لم يذكروا أنها مستقلة. مع غياب المصادر الجزائرية للأسف نتيجة ظروف قاهرة، فإننا نستنتج بأن تونس كانت ترجع في أمورها لحكومة العثمانيين بالجزائر، حتى و لو كانت تتمتع بنظام إداري مستقل، ذلك لأن هذه الحكومة هي أول سلطة عثمانية بالمغرب، و الثانية بشمال إفريقيا بعد مصر، و هي الأقرب لإدارة تونس من أي مركز عثماني آخر، كما كانت تشرف على طرابلس[2].

أدار شؤون الجزائر في عدة مرات نواب البايلربايات، وليس البايلربايات مباشرة [3]، مثلا في عهد خير الدين عندما أصبح أميرالا للبحرية العثمانية، (قبودان باشا)كان محمد حسن أغا نائبا له، عن إيّالة الجزائر و نجد هذا الأمر يتكرر في عهد حكم العلج علي كذلك، فبعد توليته أميرالا عن البحرية العثمانية احتفظ بمنصبه كبايلرباي على الجزائر، و بقي الكثير من المؤرخين يعتبرونه بايلرباي جزائر الغرب حتى تاريخ وفاته [4]، و من هذا المنطلق نستنتج أن حكام تونس كانوا يتبعون السلطة العثمانية بالجزائر، حتى تاريخ قيام نظام حكم الباشاوات، عام 995هـ/ 1587م.

---

(1) هنية عبد الحميد، تونس العثمانية بناء الدولة و المجال، منشورات تبر الزمان، تونس 2012م، ص255.

(2) بوعزيز يحي، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص 20 .

(3) غطاس عائشة، المرجع السابق، ص44.

(4) يوعزيز يحي، الموجز، ج2، المرجع السابق، ص 306.

الفصل الثاني

مظاهر الصراع بين الإيّالتين الجزائرية و التونسية

995هـ/1587م– 1117هـ/1705م

أولا– الصراع بين باشاوات الجزائر ودايات تونس1587–1631م

ثانيا– الصراع بين دايات الجزائر و البايات المراديين1677– 1696م

ثالثا– الصراع بين دايات الجزائر و البايين مراد الثالث و إبراهيم الشريف 1699– 1705م

تعتبر الفترة الممتدة من تاريخ التحرير النهائي لتونس، حتى قيام نظام الباشاوات بالجزائر فترة هامة، أثّرت على الحكم العثماني بالإيّالات المغاربية في شمال إفريقيا عامة و الجزائر و تونس خاصّة. لذا فإنّ هناك جملة من العوامل حددت طبيعة العلاقات بين الإيّالتين، في أواخر حكم الدايات، و طيلة فترة حكم الأسرة المرادية في تونس، والذي يقابله بالجزائر حكم الباشاوات الثلاثين و العهد الأول من فترة حكم الدايات.

حصلت تطورات لم تكن متوقعة بإيّالة تونس بعد أربع سنوات فقط من فصلها عن الجزائر، أراد القائمون بها من خلالها قطع تدخلات الجزائر في الشؤون الداخلية لتونس، أو ممارسة أي شكل من أشكال الوصاية عليها، ذلك أن دايات تونس قاموا بحركة انقلابية لتكريس استقلاليتهم، و الإنفراد باتخاذ القرارات بعيدا عن أيّ ضغط عثماني بواسطة الجزائر، وقد نجح هؤلاء في مساعيهم مما سيعطي للإيّالة نوعا من الحرية على غرار إيّالة طرابلس، حيث بقي الحكم العثماني بهما شكليا، والشيء نفسه لم يحدث في الجزائر، طيلة الحكم العثماني بها، بل و لم يسمح للكراغلة الذين هم من صلب الجند الإنكشاري بممارسة الحكم أو حتى الانضواء في صفوف الجيش إلا نادرا، لأسباب قاهرة وكثيرا ما تعرضوا للقتل أو النفي.

قوبلت محاولة التخلص من التبعية للجزائر، بحزم و رفض كبيرين من طرف الباشاوات في البداية ثم الدايات و أنتج لديهم الرّغبة في تنصيب حكّام يسايرون سياساتهم و كان ذلك منذ حكم العلج علي باشا، و لم يقتصر هذا الأمر على تونس بل حتى على طرابلس الغرب، و منه ظهرت محاولات جزائرية عديدة لضّم مملكة فاس لحاضرة الدولة العثمانية. فالأحداث السياسية التي كانت تونس مسرحا لها؛ خاصة فيما يتعلق بانتقال الحكم من شخص لآخر كان مناخا ملائما لتدخل الجزائر، بطلب من هؤلاء، هذه التدخلات كانت في غالب الأحيان عبارة عن مواجهات دامية بين الطرفين.

و قد شغلت هذه المسألة الجزائر، بل و عطلتها عن القيام بقضايا أكثر حيوية، مما جعل منها عرضة لأخطار أجنبية جسيمة، فضلا عن تحملها لخسائر مادية و بشرية، و هنا يتبادر إلى أذهاننا سؤال مهم: ما هي أسباب الصراع بين الإيّالتين في القرن السابع عشر ميلاي؟ و ما هي مظاهره؟

أولاـ الصراع بين باشاوات الجزائر ودايات تونس 1587-1631م:

قامت الدولة العثمانية بتغيير نظام الحكم في إيّالة الجزائر، من البايلربايات إلى الباشاوات، لعلها تكبح جماح القوّة المتزايدة لهؤلاء على هذا الجزء الهام من شمال إفريقيا، ومن أبرز مظاهر التغيير تحديد فترة حكم الباشاوات، والحد من صلاحياتهم التي تخولهم التدخل في إيّالتي تونس وطرابلس الغرب، فهل ستنجح في ذلك؟

1ـ الأسباب العامة لتدخل الجزائر في شؤون تونس:

قام الجزائريون بعديد من التدخلات في تونس كان غرضها فكّ النزاعات العائلية ، حول الحكم. ولكن يجب علينا أن لا نتجاهل بأنّها كانت ترتكز على خدمة الأغراض الشخصية للباشاوات و الحكام الذين جاؤوا بعدهم وهذا لضمان مسايرة الحكّام التونسيين لهم؛ فالكثير ممن تمّ تعينهم من طرف الحكومة الجزائرية خضعوا لشروطها وخاصة فيما يتعلق بدفع الضرائب و تقديم الهدايا(1).

بعد أن استقر العثمانيون في الجزائر ، تدخلوا في تونس إحدى عشر مرة ، لم ينتهكوا فيها مبادئ الحرب وأعراض الأهالي، بل كانت من أجل تنصيب حاكم يوافق على سياستهم من خلال عقد اتفاقيات. وبالرغم من أنهم كانوا المنتصرين في غالب الأحيان لم يفكروا في الاستيلاء على تونس، وحرصوا على احترام الممتلكات، ولم يتسببوا في قلب النظام الاجتماعي، حيث كانوا يغادرون البلاد مباشرة بعد إبرام المعاهدات (2)، فأول تدخل انطلاقا من الجزائر هو حملة خير الدين على تونس عام 940هـ/1534م، غير أنّ العدواني ذكر بأنّ خير الدين قاد حملة على تونس قبلها، عام935هـ/1528م(3)، و منذ ذلك الحين أصبحت الجزائر تسير المحال لتونس لأسباب عديدة(*).

ظهر النزاع على الحدود بين تونس و الجزائر مباشرة بعد تحرير تونس عام 1574م، و استمرّ حتى سنة 1022هـ/1613م(4). ومهما يكن من أمر التفاهم على الحدود التي ستؤدي إلى تأزم الوضع ثانية، فإنّ سلوكات الإنكشارية اللامسؤولة، هي الأخرى ساهمت في تأجيج الصراع وعودته، كما أدت إلى خلخلة نظام الإيّالات المغاربية الثلاث لفترات طويلة(5).

---

(1) هلايلي حنيفي، المرجع السابق، ص 45 .

(2) خوجة حمدان بن عثمان، المصدر السابق، ص ص 113 - 114.

(3) العدواني محمد بن محمد بن عمر، تاريخ العدواني، تقديم و تحقيق سعد الله أبو القاسم، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت2005م، ص232.

(*) مفردها المحلة وهي نظام المعسكرات المتحركة بصفة دورية لحفظ النظام وجباية الضرائب، كانت مصدرا هاما لقوة البايات، ولم يتوقف العمل بها طيلة العهد العثماني. أنظر : ريمون أندري ، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة فرج لطيف، ط 1، دار الفكر للنشر و التوزيع، القاهرة 1991م، ص27. و أيضا العزيزي محمد الحبيب، مجلة الشتاء والصيف، الكراسات التونسية، العدد172، تونس1996م، ص22.

(4) ابن عبد القادر محمد، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، المطبعة التجارية بالإسكندرية، مصر1903م، ص68.

(5) التميمي عبد الجليل، تحية تقدير للأستاذ خليل الساحلي أوغلو، ج1، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس1997م، ص466.

تغيّرت الأمور على مستوى إدارة الجزائر بحلول عام 1587م، بحيث أصبحت سلطة الباش اوات لا تتعدى حكم الإيّالة، وهؤلاء لم يكن همهم الوحيد هو السهر على تسيير أمور البلاد، على أحسن وجه، وإنّما كثيرا ما كانوا يعملون لصالحهم الخاص، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تطور وأخذ منحا آخر أكثر خطورة، حيث أثّر على استقرار الإيّالة، خاصة وأن فترة حكم هم لم تكن تتعدى الثلاث سنوات، و يمكن أن يحكم أحدهم مرتين أو ثلاث إذا لم يتسبب في مشاكل تزعج الدولة العثمانية[1].

توخى الباب العالي من هذا التغيير إحكام قبضته على البلاد، ولكن النتائج كانت عكسية، فأصبح منصب الباشاوية يُشترى بأموال طائلة، وبالتالي لم يعد بوسع الباشاوات التفكير في شؤون الدولة، بل التفكير في استرجاع الأموال التي منحوها مقابل هذا المنصب[2]، وبأقصى سرعة ممكنة. إن هذه الأموال كانت تجمع من لدن الرعية، التي أُثْقِلَ كاهلها بالضرائب المختلفة، على الرغم من كثرة الغنائم البحرية في عهدهم.

لم تكن هذه المعطيات هي الوحيدة التي أدت إلى ال وضع القائم، وإنّما هناك أمور أخرى لا تقل أهمية عنها وهي فصل تونس عن إيّالة الجزائر، وما ترتب عنه من مشاحنات وفتن عظيمة، أدت إلى قيام حروب ومواجهات بين الإيّالتين، كنتيجة مباشرة لفقدان باشاوات الجزائر لمصدر هام من العوائد المالية في الوطن التونسي، ولكنّ على الرغم من ذلك فإن المحال الجزائرية كانت تجوب الأراضي التونسية ولم يحدث أيّ عمل ضدها في بادئ الامر[3].

كانت محلة جزائرية تجوب البلاد التونسية في عام 1022 هـ/1613م، تجمع الضرائب متحدّية رفض الديوان التونسي[4]، وهناك من ينفي عبورها لذات الغرض، حتى في أقرب المناطق للتخوم الجزائرية كمنطقة أرق (قلعة سنان حاليا)[5]. إن هذه الحدود لم تكن مضبوطة بمعاهدة واضحة، فقد كانت القبائل الواقعة على تخومها تتنقل بحرية طلبا للعيش في مناطق الكلأ والمياه، ولكنها كانت تخرج في كثير من الأحيان عن ال سيطرة، وتدخل في مناوشات مع قبائل القطر الآخر لأسباب مختلفة، مما أدى إلى نشوب مواجهات عنيفة، ومن أبرزها قبيلة بني شنوف[*].

---

(1) Robert (Mantran), L'évolution Des Relations Politiques entre Le Gouvernement ottoman et Les odjaks de l'ouest du XVI en AUXIX Siècle, Karamanli (Fouad Ezgu) dans Islam Ansiklopedisi, p53 .

(2) وولف جوون، المرجع السابق، ص106.

(3) ابن أبي الدينار القيرواني، المصدر السابق، ص 196.

(4) مقديش محمود، المصدر السابق، مج2، ص 93.

(5) هنية عبد الحميد وآخرون، اتفاقيات مع أتراك الجزائر، حجة عدلية من أعيان أرق سنة 1626م في تبعيتهم لإيّالة تونس، كراسات الأرشيف التونسي، تونس2009م، ص ص 10- 11.

(*) قبيلة كبيرة تقطن وطن الكاف التونسي، كانت تهاجم السلطة التونسية دائما، و لا يحوم أحد حولها أو يقترب منها، و هم المتسببين في الحرب مع الجزائر عام 1628م. أنظر: مقديش محمود، المصدر السابق، ص 94.

2- الإطاحة بالبلوكبّاشية في تونس999هـ/1591م:

حدثت في تونس أمور كثيرة تستحق الذكر، لما لها من أهميّة على مستقبل الإيّالة الناشئة؛ ذلك لأن الوضع الجديد لم تكن له دعائم يرتكز عليها، فالحكم كان لأفراد البلوكباشية، لأن مؤسسي الإيّالة لم يضعوا في الحسبان الاهتزازات التي يمكن أن تحدث من الداخل أو الخارج على غرار الإيّالتين القديمتين، قد تعصف باستقرارها في أيّ وقت ممكن وتؤدي بها إلى ما لا يمكن توقعه.

أرسى العثمانيون حكمهم في تونس من خلال تنظيمات مشابهة لتنظيمات الجزائر، كما أسلفنا ولكنّ جهود الوزير العثماني سنان باشا قد ذهبت أدراج الرياح. وهذا ما يجعلنا نطرح سؤالا هاما هنا ألا و هو: ما هي أسباب التغير المفاجئ في تونس؟ و هل كان ذلك من طرف الدولة العثمانية؟ أم ثمّة أمور أخرى أدّت إلى تغير الحُكم وإضفاء صبغة خاصة عليه؟

مارس أفراد البلوكبّاشية الحكم بكل تعسّف و شدة نتيجة قوتهم العسكرية غير مبالين بأحد، حتى أصبحت لهم سطوة ومكانة لا نظير لها، غير أنّ ممارستهم للحكم بهذه الطريقة الوحشية قد عجّل بزوالهم، ففي عام 999هـ/1591م، اجتمع الديوان التونسي للنظر في أمر هؤلاء الجند، حيث اتخذ قرارا للقضاء عليهم نهائيا، و هكذا دُبّرتْ لهم مكيدة محكمة أطاحت بهم عن آخرهم، إلا قليل منهم ممن لم يحضر ذلك اليوم إلى مقر الاجتماع [(1)]، لم يكن هذا التمرد ضدّ هذه الفئة المتغطرسة من قادة الجيش فحسب، بل كان ضدّ الجزائر أيضا، لقطع تدخلها في تعيين حكّام تونس[(2)].

انتقل الحكم للدايات في السنة المذكورة، بَيْدَ أنّ العملية كانت تعترضها عوائق جمّة [(3)]، أبرزها كثرة الدايات مما زاد من صعوبة اتخاذ القرارات، و كان أكبرهم سننا وأكثرهم جمعا إبراهيم داي؛ حيث استطاع أنْ يحكم ثلاث سنوات ثم خلفه موسى داي، بعدها استقرت الأمور بحكم عثمان داي، عام 1007هـ/1598م، عندما نفى غريمه صفر داي إلى الجزائر، التي ستصبح ملاذا للمعارضين من هذه اللحظة فصاعدا، وعليه سيكون الاستنجاد بالجزائر لاسترجاع الحكم بمثابة حجر الزاوية في علاقات الإيّالتين[(4)].

---

(1) Moalla (Asma), Le jund de la Régence Tunisienne1574-1650, Arab historical review for Ottoman studies, n°29,Tunis, 2004, p193.

(2) بوعزيز يحي، الموجز، مرجع سابق، ص295.

(3) خوجة حسين، ذيل بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، مصر2001م، ص6.

(4) ابن أبي الدينار القيرواني، المصدر السابق، ص90.

3- أول اتفاقية لرسم الحدود بين الإيّالتين1022هـ/ 1614 م:

لم تكن الحدود بين الإيّالتين واضحة المعالم ، بعد فصله ما عن بعض من طرف الباب العالي، لأنّنا لو نظرنا إلى العهد السابق لوجدنا أنّ الإيّالات كانت خاضعة لسلطة العثمانيين بمدينة الجزائر ، و هذه الإيّالات كانت تسمى مجتمعة بالإيّالة الإفريقية، ولكن بعد، عام 1587م عينّت الدولة العثمانية حُكّاما لثلاث باشاويات مستقلة، لضمان عدم استقلالها مستقبلا كما ذكرنا سابقا. إن بايليك قسنطينة ظهر في التنظيم المحلي للجزائر العثمانية في وقت متأخر مقارنة بالتواجد المبكر بمدينة الجزائر وكان هذا في ولاية حسن قورصو (1556-1557م)؛ لأنّ التواجد العثماني بشرق الجزائر ، كانت تعترضه مشاكل عديدة، أولها النفوذ الواسع الذي تتمتع به قبائل المنطقة وعلى رأسها قبيلة الحنانشة[*]، وغيرها من القبائل الأخرى . ثانيها تنافس القبائل على كسب تأييد العثمانيين لضمان التزود بالبارود وبالمقابل يمدونها بالمؤن في طريق عودة المحلة من تونس، ثالثها عدم سماح سكان قسنطينة بدخول حسن آغا للمدينة رغم جهود الشيخ ابن الفكون، الذي أقنعه بأنّ يعسكر خارج المدينة، وهناك بنو قلعة سطح المنصورة[**].

وقد استطاعت حكومة الجزائر فرض سيطرتها على الإقليم بالرغم من كل شيء، هذا الأخير الذي أصبح بايليكًا هاما منذ، عام 1567م[1]؛ لأنّ حاميته هي الأكبر و تضّم 100خيمة وتَبقّى لأطول فترة[2]. و عُيّنَ على رأسه الباي رمضان تشولاق، إنّ هذا البايليك لم تكن حدوده الشرقية معروفة ، مما زاد الأمور تعقيدا مع الجارة تونس ولم تكن الحدود هي السبب الرئيسي في عدم استقرار البايليك بل كانت هناك التحريضات التي قام بها حكّام تونس لإثارة الفتن فيه،رغبةمنهم في توسيع حدودهم على حساب الجزائر ، والسيطرة على المدن الساحلية الهامة مثل عنابة، خاصّة وأنّ في هذه الفترة ظهر التواجد الفرنسي من خلال الامتياز الممنوح لهم لصيد المرجان [3]، و ظهرت أطماع هؤلاء مدعومين من أطراف أخرى، إلى التفكير بالاستقلال عن الجزائر، وحتى عن تونس، فهذا تونسي ذهب إلى اسطنبول، يطلب تكوين صنجق مستقل يتكون من بلد العناب و الباستيون و مبترقة وقلعة باجة[4].

(*) تتكون من اثنا عشر قبيلة، تمتد مضاربها على التخوم الجزائرية التونسية، ظلت تتبع حكومة الجزائر وعليها رقابة باي الشرق المباشرة، زاد موقعها من الأهمية بما كان أثناء الصراع بين الإيّالتين. أنظر: العزيزي محمد الحبيب، ظاهرة الحكم المتجول في المغرب العربي الحديث، المحلة التونسية أنموذجا، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الجزائر، الجزائر2007م، ص130.

(**) قلعة تقع على مشارف مدينة قسنطينة. أنظر:المبارك أحمد بن العطار، تاريخ حاضرة قسنطينة، تعريب نو الدين عبد القادر، الجزائر 1952م، ص18.

(1) غطاس عائشة، المرجع السابق، ص ص203- 207 .

(2) خوجة حمدان بن عثمان، المصدر السابق، ص139.

(3) Plantet (Eugène), Correspondance des Deys D'Alger avec la cour de France, T1,(1579-1700), Paris, 1889, p1.

(4) الساحلي خليل، إحداث لواء جديد في الجزائر في أواخر ق 16م يتركب من بلد العناب و باستيون و مبترقة وقلعة باجة، مجلة الأصالة، المجلد14، العدد34، منشورات الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر 2011 م، ص 165.

شهد بايليك الشرق اضطرابات عدة في فترات مختلفة؛ أدت إلى حدوث خلاف حاد بين الإيّالتين، بشأن الحدود في مطلع القرن السابع عشر ميلادي، بعد ما تأكّد لباشاوات الجزائر من أنّ حكّام تونس لهم اليد الطولى في إثارة الفتن والقلاقل بالإقليم، فأرادوا بذلك قطع هذه اليد والقضاء على الفتن لحماية البلاد، خاصة وأن هذه الفترة كانت حرجة بالنسبة لحكومة الجزائر ؛ لبقاء وهران تحت الاحتلال الإسباني، وأطماع السعديين لتوسيع نفوذهم في غرب البلاد.

زادت الأمور خطورة عندما تحالف هؤلاء مع فليب الثاني ملك الإسبان(1598- 1621م)، و اتفاقهم على مهاجمة الجزائر في آن واحد [1]، لتشتيت جهودها وإضعاف دفاعاتها، لم يثْنِ هذا الوضع المتأزم الباشا حسين الشيخ(1613- 1616م) في ولايته الأولى، على عقد اتفاقية مع حاكم تونس، لرسم الحدود وتفادي الدخول في صراع لا طائل منه.

حدثت مشاحنة بين القبائل الجزائرية والتونسية، وهذا بسبب الحدود غير المضبوطة جغرافيا، مما أدى إلى تدهور العلاقات بين حسين الشيخ، و باي قسنطينة فرحات باي (1588- 1608م) من جهة و يوسف داي تونس(1610-1631م) من جهة ثانية، وكادت المعركة أن تقع بين الطرفين بالقرب من مدينة الكاف [*]، لولا التعقل وتدخل كبار القوم، سنة 1022هـ[2]، حيث تم الاتفاق على أنّ وادي سراط هو الحدّ الفاصل بين الإيّالتين وهو كما يسمى بالحدادة، وكان هذا في عام 1023 هـ / عام 1614 م[3].

ونلاحظ هنا أنّ الداي يوسف كان يريد من خلال سياسته، حماية حدوده الغربية ودرأ الخطر الذي باتت تشكّله القبائل الجزائرية، وخاصة قبيلة الحنانشة على البلاد التونسية لينعم باستقرار حكمه، ومن الأمور ذات الدلالة استرجاعه لجزيرة جربة من طرابلس الغرب القريبة منها [4]، ولكنّ إخماد نار الفتنة لن يلبث طويلا، وسرعان ما تشتعل الحرب في عهد هذا الداي، فهل كان للرجل أطماع توسعية على حساب جيرانه؟

---

(1) هلايلي حنيفي، المرجع السابق، ص 58.

(*) مدينة ليست كبيرة ولا صغيرة، تقع شمال غرب تونس ولا مدن بعدها حتى الحدود مع الجزائر، محاطة بالمزارع والبساتين. دارت بها معارك طاحنة بين الجزائر وتونس أدت إلى تشييد قلعة بها في غاية من التحصين، كما كانت معبرا هاما للقوات الجزائرية إلى تونس طيلة فترة الصراع. أنظر:
-Grand Larousse encyclopédique,V6, Paris, Librairie Larousse, 1962, p6 .

و أيضا: ابن محمد حسين الورتلاني، الرحلة الورتلانية (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، مج2، مكتبة الثقافة الدينية والمكتبة الصوفية، القاهرة 2006م، ص ص788-787.

(2) ابن أبي الدينار القيرواني، المصدر السابق، ص196.

(3) الوزير السراج محمد بن محمد الأندلسي، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق الهيلة محمد الحبيب، ج2، القسم 2، دار الكتب الشرقية، تونس 1973م، ص 178.

(4) المصدر نفسه، ص 175.

4- معركة السطارة[*] 1037هـ/ 1628م:

تُعد هذه المعركة من بين أكبر المعارك التي دارت بين إيّالتي الجزائر وتونس؛ لكونها كانت الأولى بعد استقلال تونس عن الجزائر، و فاتحة لسلسلة الحروب الطويلة بين الطرفين، كما كانت لها تداعيات على أكثر من صعيد، فقد وقعت هذه المعركة في عهد الباشا حسين (1626- 1634م) في ولايته الثانية، وهذا الباشا ليس هو حسين الشيخ المذكور سابقا، وخلال حكم يوسف داي تونس[1].

4.أ–أسبابها: متعددة من بينها .

1- حدوث خلاف حدودي بين الإيّالتين، فلم تكن هناك علامات واضحة للحد الفاصل بين القطرين، خاصة وأنّ الخارطة قد تغيرت بعد ظهور إيّالة الجزائر ونهاية الدولة الحفصية، التي كانت تسيطر على شرق الجزائر حتى بجاية.

2- تحريض الشيخ ثابت بن شنوف للجزائريين، للقيام بحملة على تونس وإغرائهم بخيراتها[2]، وليس هذا فحسب بل انتقاما لنفسه، من دايات تونس، وترضية لمصالحه الخاصة.

3- عدم الالتزام بما تم الاتفاق عليه عام 1614م، بتمديد مناطق القبائل التابعة لبايليك قسنطينة في عمق التراب التونسي من طرف حكام تونس[3].

4- تحريض بايات تونس لإشاعة القلاقل، وإحداث الفوضى في بايليك الشرق الجزائري.

5- عدم تقبل باشاوات الجزائر لفكرة انفصال تونس عنهم، لما سيفقدونه من نفوذ ومصادر مالية شبه ثابتة و حتى الهدايا المتنوعة.

تدل هذه الأسباب على الخطأ الجسيم، الذي وقعت فيه الدولة العثمانية، بإعلان استقلال تونس وطرابلس عن الجزائر، لأن أوضاع الإيّالات المغاربية الثلاثة بشمال إفريقيا لم تكن كأوضاع الولايات العثمانية الشرقية الأخرى وكذلك بالنسبة لتغيير نظام الحكم في الجزائر الذي لم يأت بما تطلعت إليه سلطة الباب العالي فالباشاوات كانت استقلاليتهم تزيد يوما بعد يوم، وقد مثل عَامِل البعد الجغرافي دورا بارزا في هذا الشأن، وسوف لن يطول الأمر حتى يتغير نظام الحكم بدون تأثير العثمانيين، ومن ثمة إعلان الاستقلال.

(*) السطارة أو السريقة: منطقة جغرافية، تقع في إقليم بلدة الكاف التونسية، الواقعة غرب البلاد. أنظر: هلايلي حنيفي، المرجع السابق، ص48.

(1) سامح عزيز ألتر، المرجع السابق، ص 353.

(2) ابن أبي الدينار القيرواني، المصدر السابق، ص 196.

(3) هلايلي حنيفي، المرجع السابق، ص 46.

4. بـ– أحداثها:

اندلعت المعركة، يوم22 رمضان 1037هـ/ 17ماي1628م[1]، بموقع يسمى السطارة، قرب بلدة الكاف التونسية، بعد استنفاذ كل السبل للحيلولة دون الصدام، من خلال المذكرات السلمية [2]، و في اليوم الأول كانت الدائرة على الجزائريين ، الذين تفرق جمعهم؛ بسبب أنّهم لا يعرفون طبيعة المنطقة جيدا؛ وليس لديهم إلا من معهم. أما المحلة التونسية فكانت جل القبائل معها وخاصة قبيلة دريد[*]، ما عدا قبيلة بني شنوف.

يُقال أن الجزائريين بعد اليوم الأول الطويل، طلبوا الأمان لأنفسهم ، ولكنّ في اليوم التالي الذي حمل الجديد وبينما المعركة شبه متواصلة انقلبت الأمور لصالح محلة الجزائر ، ومن أسباب تغير موازين المعركة بهذا الشكل المفاجئ أن قبيلة أولاد سعيد وقبائل أخرى تبعتها، انحازت للجزائريين، وتجددت المعركة، عندئذ تفرق الجيش التونسي ، و لمّا رأى الداي يوسف ما لحق بعساكره تدارك الأمر حقنا للدماء [3]، كما تدخلت جماعة وعلى رأسها الشيخ تاج العارفين العثماني وغيره ، فتم بذلك الصلح بين الفريقين في أوائل ذي القعدة من السنة نفسها [4]، مصداقا لقوله جل وعلا ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَى تَفِيئَ إِلَى أَمْرِ اللهِ ۚ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَ اللهَ يُحِبُ الْمُقْسِطِينَ ۖ ﴾[5].

انتهت المعركة مخلفة نتائج كثيرة، ومما تجدر الإشارة إليه على المستوى الخارجي، نجاح المفاوضات الجزائرية الفرنسية بشأن استرجاع المدفعين؛ حيث تُوّجت بإبرام اتفاقية للسلم والتجارة بينهما في 19سبتمبر 1628م[6]، يدلّ هذا على حجم المخاطر التي كانت تواجه الإيّالة الجزائرية في بداية القرن الثاني من تأسيسها، أمّا فيما يخص نتائج المعركة على الإيّالتين فكانت ذات دلالات كبيرة.

---

(1) ابن المفتي حسين بن رجب شاوش، تقييدات إبن المفتي في تاريخ باشاوات الجزائر و علمائها، دراسة و تحقيق كعوان فارس ، ط 1، بيت الحكمة للنشر و التوزيع، العلمة، الجزائر2009م، ص 48.

(2) المدني أحمد توفيق، محمد عثمان باشا، المرجع السابق، ص 55.

(*) من أكبر القبائل التونسية و أعلاها شأنا، تعادل قبيلة الحنانشة الجزائرية، كما تسيطر على كامل المناطق الغربية للبلاد، مثلت دورا بارزا في سلسلة المعارك التي خاضتها تونس ضد الجزائر. للمزيد أنظر: العزيزي محمد الحبيب، ظاهرة الحكم المتجول، المرجع السابق، ص140.

(3) حسني عبد الوهاب حسن، خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الفنون، تونس1954م، ص 136.

(4) الفكون عبد الكريم، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم و تحقيق سعد الله أبو القاسم، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت1987م، ص217.

(5) الآية 9 من سورة الحجرات.

(6) De Card (Edgad Rouard), Traités de la France avec les pays de L'Afrique du Nord, Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc, Paris, A.PE'DONE, Editeur, 1906, p15.

4.ج- نتائجها على الإيّالتين: من أهمها نذكر:

1- مات في المعركة عدد كثير من الخلق [1]، و لا ندري كم عددهم ؛ لأن معظم المصادر التي تطرقت للواقعة أحجمت عن ذكر الخسائر البشرية ولم تنسبها لأحد الفريقين.

2- عقد الصلح بين الإيّالتين، بناءً على الشروط التي اقترحها الجزائريون.

3- توقيع اتفاقية الحدود بين الوطن الجزائري و التونسي، والتأكيد على احترامها و قد تضمنت بعض الشروط التي من شأنها إحلال السكينة و الهدوء، ومن أهم ما جاء فيها:

أ- تخطيط الحدود من الشمال إلى الجنوب ؛ حيث يمتد الخط من ساحل البحر ، حتى رأس جبل الحافة ومنه إلى قلوب الثيران(الثيران) إلى منطقة الكرش، ثم إلى وادي ملاق، فوادي سيرات أقصى الجنوب.

ب- الاتفاق على أن كل من اجتاز الحد يُعَدّ من أهل المنطقة التي نزل فيها، ولا يجوز تتبعه إليها[2].

4- غنم الجزائريون من سلاح تونس 22 مدفعا، وذخائر حربية كثيرة، تركتها عساكر تونس وراءها.

5- قيام ثورة الكراغلة ضد الإنكشاريّة في الجزائر سنة 1629م[3].

6- نهاية عهد الدايات وبداية حكم الأسرة المرادية في تونس، بوفاة مؤسسها مراد الأول(1611-1631م)[4].

تأكد لاحقا أن هذا الوضع الجديد كان بمقدور الدولة العثمانية أن تقضي عليه، قبل أن يستفحل ويأخذ منحا آخر يصعب الرجوع فيه بالنسبة للإيّالتين،كما سنرى ذلك. وفي المقابل لم تكن العلاقات متوترة بينهما لدرجة القطيعة، وإنّما كانت هناك نوع من الإرادة المشتركة لتجاوز هذا الوضع المتأزم، والتطلع لتوحيد الجهود ضد الخطر الخارجي، مثل ما حدث، عام 1048هـ/ 1638م، عندما حلّت بتونس قطع بحرية جزائرية لمصاحبة السفن التونسية، التي تم استدعاؤها من طرف الدولة العثمانية لحرب البنادقة، التي انتهت بهزيمة الأسطول العثماني في موقعة فالونا "Valona"[5].

---

(1) ابن أبي الدينار القيرواني، المصدر السابق، ص 196.

(2) عبد الحميد هنية، المرجع السابق، ص 17.

(3) Pierre (Boyer), Le Problème Kouloughli dans la Régence d'Alger, R.O.M.M, Aix-en-Provence, 1970, n°8, p80.

(4) ابن الخوجة محمد، صفحات من تاريخ تونس، تحقيق الساحلي حمادي و ابن يحي الجيلاني ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986م، ص 50.

(5) ابن المفتي حسين، المصدر السابق، ص51.

ثانيا- الصراع بين دايات الجزائر والبايات المراديين1677-1696م:

انتهت معركة السطارة، ولكنّ نتائجها بقيت قائمة على أرض الواقع؛ ذلك أن القبائل القاطنة على الحدود بين الإيّالتين زادت سطوتها بعد انهزام الجيش التونسي سابقا، ففي منتصف شهر جمادى الأولى 1048هـ/ 1638م، اندلعت ثورة تزعّمها محمد بن علي وشاركت فيها قبيلتي الحنانشة و الدواودة، بسبب مقتل شيخ العرب محمد بن السخري، وزحف الثوار على مدينة قسنطينة حيث خرّبوا أجزاء كبيرة منها[1].

1- قبيلة الحنانشة في خضم الصراع على السلطة في تونس:

دَشَّنَ حُكم الجزائر في هذه الفترة الداي الحاج باشا(1671- 1682م)، بعد حكم الأغوات غير الطويل وكانت فترة حكمه القاعدة الأساسية لبداية الاستقلال عن الباب العالي [2]. أمّا في إيّالة تونس فقد توفي م راد باي الثاني، و اتفق أهل الحل والعقد فيها على تنصيب ابنه محمد، و لكن الأمور كانت على وشك الانفلات؛ فهناك عَمٌّ له يطالب بالحكم وهو محمد الحفصي ، الذي تحالف مع أخ محمد المرادي وهو علي ، وسرعان ما غَيَّرَ الديوان رأيه فأعاد تنصيب العم محمد الحفصي بايا على تونس، في شهر رجب عام 1086هـ / 1675[3].

استقرّ محمد المرادي بالكاف ينظم شؤنها حيث جعل منها قاعدة له، وهَمَّ بجمع الحشود لحرب عَمِّه وأخيه ولكنّ العمُّ تخلّى له عن الحكم طواعيه، وأوّل عمل قام به الباي محمد هو سجن أخيه علي، هذا الأخير استطاع أن يفلت من السجن ويلجأ إلى قسنطينة، وهناك تزوج بابنة شيخ بني منصر من قبيلة الحنانشة، و لما أحسّ هذا الباي بقوته ونفوذه، طلب العون من شيخ ها لاسترجاع ملكه وعليه حشد قوات كبيرة و زحف بها على البلاد التونسية حيث التقى الجيشان بجبل وسلات، و أسفرت المعركة عن انهزام الباي محمد، عام 1087هـ /1677م[4].

ثم أخذ عليٌّ البيعة من أهل تونس، و استتب الأمر في عهده ، ولكنّ لم يدم الاستقرار طويلا، ومن أبرز مظاهر حكمه خروجه بالمحال لجباية الضرائب، وفي إحدى المرات خرج للغرض نفسه ، ولم يصل مدينة القيروان حتى استبد أخوه محمد بالأمر و استولى على بلاد الجنوب المعروفة ببلاد الج ريد، وهكذا ساءت أحوال البلاد الأمنية وتعطلت مصالح الأهالي[5].

---

(1) ابن المفتي حسين، المصدر السابق، ص50.

(2) روسو ألفونسو، الحوليات التونسية، من الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، ترجمة و تقديم الوافي محمد عبد الكريم ، ط 1، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا 1992م، ص 142.

(3) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، مج1، ج2، ص47.

(4) ابن أبي الدينار القيرواني، المصدر السابق، ص 239.

(5) حسني عبد الوهاب حسن، المرجع السابق، ص142.

2- تَدَخُل الجزائر للصلح عام 1091هـ/ 1680م:

بدأ علي باي بجمع جنده معلنا الحرب على أخيه، ومما تجدر الإشارة إليه أن الطرف الثالث الذي كان يغذي الصراع بين الأخوين ، ويستدعي تدخل الجزائر في كل مر ة، هو الباي محمد الحفصي الذي نجح في نيل لقب الباشا، من السلطة العثمانية في مارس 1678م، حيث وقف إلى جانب علي باي في حربه ضد أخيه[1].

وقعت الحرب بين الأخوين مجددا في هذه الفترة، من جهة و بين علي باي و الداي محمد طاباق من جهة ثانية، الأمر الذي استدعى تحالف محمد باي و عمه الحفصي ضد علي باي ، ولكنّ الأخير هزمهم مجتمعين، و عزم على التخلص منهم، لإنهاء حالة الصراع المرير. و تكمن أسباب هذا الصراع في تعدد أطراف الحكم، ليس فقط بين ورثة العرش المرادي، بل حتى في وجود الداي و الباي في سدّة الحكم. إذْ تكون الرياسة العامة للباي وهو الذي يعيِّن الداي في الوقت نفسه[2]، وهذا الأمر ساهمت فيه الدولة العثمانية، بالإضافةإلى وجود منصب ثالث و هو الباشا مما سيكون له ثقل وقدم مساواة في الحكم معهم، ونجد هذا الأمر موجود كذلك بالجزائر ، فبعد إنفراد الأغوات بالحكم عام 1659م، كانت الدولة العثمانية لازالت تُعيِّن الباش اوات، وبقى الأمر كذلك حتى عام 1710م عندما مُنِعَ إبراهيم باشا من النزول و رُفِضَ استقباله.

تفاقمت الأحداث واضطربت حتى كادت أن تكون المشهد الوحيد الذي يميز البلاد التونسية، فإذا به سُمِعَتْ أخبار مفادها أن الجيش الجزائري يعبر الحدود إلى تونس، ونَصب محلته في سهل السرس[3]، و كان يُجهل هدفه ولكن بعد أن تيقّن الباي عليّ من نيته في إقامة الصلح بين المتخاصمين[4]، انصاع للأمر و تم تقرير ما يلي:

أ- تنصيب علي باي على حكم تونس.

ب- منح محمد باي حكم القيروان.

جـ- ترك محمد باي ابنه رهينة لدى عمه عليّ.

عندها دخل الباي عليّ المرادي مدينة تونس، رفقة عمّه محمد الحفصي وعادت المحلة الجزائرية إلى البلاد بعد أن شاركت في إنهاء الحرب.

---

(1) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص132.

(2) بيرم محمد الخامس، صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج2، دار صادر و المطبعة الإعلامية، بيروت، مصر1886م، ص133.

(3) ابن أبي الضياف أحمد، المصدر السابق، مج1، ج2، ص 54.

(4) أبن أبي الدينار القيرواني، المصدر السابق، ص 256.

(5) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص ص 132-133.

لم يكن الصلح الذي أُبرم بين أطراف النزاع، بحضور الجزائر إلا سحابة عابرة؛ ذلك أن الأمور لم تهدأ ولنفس الأسباب التي أوردناها سابقا تجددت الحرب، كما يجب أن نوضح أنّ أطراف الحكم كل واحد منهم كان له نفوذ على الأرض، و لا يسمح للطرف الآخر بالتدخل في إقليم خارج نطاقه. أدى هذا إلى وقوع معركة بين الداي أحمد شلبي الذي خلف الداي طاباق وعلي باي الذي زحف لأ خذ تونس؛ حيث أُغْلِقَتْ أبوابها دونه و عاثت عساكره الخراب في البلاد، ولكنّ مدة تَحَصُنْ الداي بمدينة تونس لم تكن طويلة؛ حيث اشتبك الطرفان عند أبواب المدينة و عرفت هذه المعركة "بموقعة الخضرة "، وهو إسم أحد أبواب مدينة تونس. عند انتهاء المعركة زحف محمد باي هو الآخر على المدينة ، التي دخلها بسهولة ، فوجّه له أخوه إنذارا لإخلائها مهددا إياه بقتل ابنه الرهينة، ولكن هذا الإنذار لم يثنه وأعمى بصيرته، فبادر علي باي إلى قتل الابن البريء، الذي ذهب نتيجة اطماع والده. يقال أنّ هذه الفتنة كان للجزائريين ضلع فيها[1]. وهذا الرأي يتنافى مع قدومهم في السنوات القليلة الماضية لعقد الصلح.

وعلى كُلٍ فقد تصالحا الأخوان ثانية، وحشدا قواتهما، للوقوف في وجه الداي أحمد شلبي وبالتالي ضد الوجود العثماني بالبلاد، فهل ستسمح الدولة العثمانية بذلك؟ إ نّ الداي لم يكن أمره ليستهان به فقد كان طرفا له وزن في الصراع الدائر بتونس، ويعود ذلك إلى الصفة التي يكتسيها هذا المنصب، ولعل فترة حكمه غير الطويلة والمتسمة بالصراع بين الأخوين هي التي جعلت درايته بالحكم شاملة لخبايا الأمور والاضطلاع بالمهام كلها، وعليه استطاع أن يهزم جيش الأخوين، في جولة واحدة وبدون جهد وعناء كبيرين[2].

شهدت إيّالة تونس اضطرابات؛ لم تكن في صالح أطراف عدة، وبالرغم من ذلك فقد أرسلت دعما عسكريا للدولة العثمانية يتمثل في فرقة بحرية، و وحدة من القوات العسكرية التونسية بطلب من السلطان العثماني الذي تقدم به للداي أحمد شلبي [3]. و هي بذلك تفقد (أي تونس) سندا هاما، بيد أنّ هذا الوضع كان يخدم مصالح الداي دون سواه. و مهما يكن الأمر فإنّ الوضع العسكري لإيّالة تونس كان وضعا مريحا، أحسن حال من الدولة العثمانية ذاتها، و لا مجال هنا للمقارنة بين الطرفين.

كانت الجزائر تقف إلى جانب الداي و ذلك في وقت ليس ببعيد[4]، لما كان الأخوين يقتتلان على السلطة غير أن الأمور تغيرت بتوحيد جهودهما ضده، ولكنّ هذا الداي عرف كيف يكسب المعركة عندما وقف مع الدولة العثمانية، ولم يعص أوامرها حيث تمكنّ من ممارسة حكمه إلى حين. فهل ستبقى مكانة الداي كما كانت، أم ستتغير بظهور الجزائر على مسرح الأحداث مجددا؟

---

(1) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 135.

(2) حسني عبد الوهاب حسن، المرجع السابق، ص 143.

(3) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 134 .

(4) مقديش محمود، المصدر السابق، مج2، ص123.

3- مساندة الباب العالي للداي أحمد شلبي بتونس 1684م:

اهتزت مكانة البايين المراديين بعد هزيمتهما مرتين متتاليتين، و من جراء ذلك لم تعد الأعراب تدين لهم ا بالولاء والطاعة فحسب، بل تمردت عليهما جهرة، وبالمقابل زادت شعبية الداي أحمد شلبي، الذي حظي بتأييد الباب العالي ومساندته، وعليه فإن هذه الاضطرابات ساهمت في ضعف سلطة التواجد العثماني بالإيّالة ، إن لم نقل إنهاؤها تدريجيا. حيث أرسل السلطان العثماني أحمد الثاني ، (1691 – 1695م)[1] على إثر ذلك وفدا رسميا إلى مدينة تونس ، للتأكيد على سلطة الداي أحمد شلبي في البلاد، عرفانا له بخدماته الجليلة التي أسداها لل دولة العثمانية[2]، كما تمّت إدانة الأخوين المراديين على أعمال العنف ، و التخريب و الاضطرابات التي قضت على أرواح الكثيرين ممن لا ذنب لهم، وكذا خروجهما عن طاعته التي تعد بمثابة تحد واضح.

توسّط الباب العالي في هذا النزاع ، من أجل تصفية الأوضاع وتنقية الجو المشحون بين ورثة العرش المرادي . غير أن هذا التدخل كان دون فائدة، بل على العكس من ذلك، فإنّ القطيعة بين جبهة الباي والداي أصبحت واقعا لا مفرّ منه، فالداي كان ذو مكر وحيلة و استطاع أن يُوقِعَ بين الأخوين فتنة عظيمة، تضاف إلى أسباب تدهور أوضاع البلاد، وعليه اتخذت الحرب مسلكا آخر، أكثر عنفا[3].

ومما زاد الأمور تعقيدا هو تعرض البلاد للتهديدات الأوربية، خاصة من طرف فرنسا التي كانت تسعى لتثبيت وجودها بالمنطقة، فقد رسا أسطول فرنسي قُبَالة سواحل تونس، عام 1685م، بقيادة الماريشال دوستري قادما من طرابلس لأداء المهمة نفسها، ويبدو أنّها كُلّلتْ بالنجاح، بيد أنّها في المقابل زادت حملا ثقيلا ضاقت به الخزينة التونسية ذرعا، و وضعت حكّام تونس في موقف حرج[4].

ونجاح الديبلوماسية الفرنسية لم يكن لحنكة سياسييها بل لإشهار قوتها في وجه من تريد إخضاعهم، والمدفع كان لغتها المفضلة في الحوار، وما حدث مع طرابلس الغرب و تونس كان حتما سيحدث مع الجزائر، إنّ فرنسا لم يكن حالها بأفضل من حال الإيّالات المغاربية، وقد تُرجم ذلك على أرض الواقع وظهر مزاج الفرنسيين المتعكر، بحثا عن حُججٍ لليِّ ذراع مَنْ تراهم أقل منها شأنا أو تطاولوا عليها، ولسوء حظ الجزائر فقد تعرضت لحملة عسكرية شرسة كان لها آثار وخيمة على المدينة وسكانها سنة 1688م، وتكون بذلك فرنسا قد أعطت درسا للآخرين.

---

(1) المحامي فريد بك، المصدر السابق، ص308.

(2) مقديش محمود، المصدر السابق، مج2، ص129.

(3) Louis (Frank) et Marcel(J. J), Histoire de Tunis, 2éme Edition, Tunis, Edition Bouslama, 1985,p185.

(4) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص136.

4- الاستنجاد بالجزائر ضد الداي أحمد شلبي1685هـ/1097 م:

شدّت الهزيمة التي مني بها الأخوين، من أزرهما بل و حتمت عليهما توحيد الصفوف وتناسي الخلافات، نظرا للحالة الحرجة التي يمران بها بعد فقدانهما الحكم نهائيا، لذا نجدهما يبدآن بتكوين جيش للتصدي للداي، الذي يزداد شأنه يوما بعد يوم، ولكن قبل ذلك دعونا نبيّن أنهما لن يستطيعا عمل أي شيء بدون إقحام الجزائر في القضية. فهل ستتدخل الجزائر ضد الداي المحسوب على العثمانيين؟

كانت الجزائر في هذه الفترة تحت حكم الداي حسين باشا ميزومورتو(1683- 1688م)[*]، وقد أرسل الباشا إبراهيم إلى تونس تلبية لدعوة الأخوين ضد الداي شلبي، وسبب الموافقة على طلبهما، هو أن الأخير عند تعيينه في المنصب المذكور كان قد قتل جنديين جزائريين قدما إلى تونس في مراكب للغزو بتهمة التعدي على الأشخاص، في وكالة العطارين بغار الملح، و كان قد أعلم داي الجزائر بذلك [1]. فقد عبرت القوات الجزائرية الحدود ترافقها قوات باي قسنطينة، وجيش البايين المراديين في 24 شوال 1096هـ/ 1684م، وتم الاستيلاء على مدينة الكاف وباجة، وفي الطريق انضمت إليهما قبائل هذه المناطق، وعندما تيقن البايين أن قواتهما كافية للإطاحة بالداي المتمرد عليهما، أعلنا خلعه ونصّبا الداي محمد بكداش مكانه.

مّرت أيام قلائل حتى وصلت القوات المشتركة إلى تونس، ضاربة حولها حصارا خانقا، لمدة ثمانية أشهر ابتداء من شهر ذي الحجة 1096هـ/1685م، ونصّبت محلتها بمنطقة رأس الطابية [2]،كما عرضت الصلح على الداي ولكنه رفض[3]، و لطول فترة الحصار أدى ذلك إلى تذمر سكان المدينة وعليه ساندوا الأخوين ضد الداي، نتيجة لقلة المؤونة و المياه، بالإضافة لمعرفتهم بكثرة أنصارهما، خاصة وأن قوات بنزرت وغار الملح قد انضمّت إليهما وعندما تيقّن الداي أنّه هالك لا محال خرج متخفيا من المدينة ليلا تحرصه فرقة من الإنكشارية، بعد أن فتح السكان أبوابها. إلاّ أنّ فراره لم يجد نفعا فقد لحقت به فرقة من الفرسان و ألقت القبض عليه، ليتم فيما بعد قطع رأسه والتشهير به ليكون عبرة لغيره[4].

وهكذا لم يكن تدخل الجزائر لصالح الأخوين المراديين موفقا و ناجحا فحسب بل ضربة قاسية لجهود الدولة العثمانية، في محاولتها إعادة نفوذها على إيّالات شمال إفريقيا السائرة نحو الاستقلالية.

(*) معناها بالطليانية نصف ميت، وهو أقدم رياس البحر الجزائريين، من أصل إيطالي، ساهم في ردِّ الحملة الفرنسية بقيادة دوكين 1682م. أنظر: المدني أحمد توفيق، محمد بن عثمان داي...، المرجع السابق، ص 63.

(1) مقديش محمود، المصدر السابق، مج2، ص119.

(2) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص108.

(3) Arsène (Berteuil), L'Algérie Française, T1, Paris, Dentu libraire, 1856, p60.

(4) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص ص 137- 138.

نلاحظ مما سبق أن سبب تدخل الجزائر هو طلب الأخوين للنجدة، و وجود حافز الانتقام لمقتل الجنديين الجزائريين من الداي أحمد شلبي، ولكن بالمقابل نجد أن صاحب كتاب التحفة المرضية يورد عكس ذلك حيث يقول"...لما علم الداي أن مصدرها (القلاقل) من إحاء باي تونس وأن له يدا في ترويجها، وجه إليه جيشا تحت قيادة إبراهيم خوجة مصحوبا بأخوين للباي التونسي قد كانا ينازعانه العرش..." [1] ولم يذكر الداي أن للأخوين، أخٌ ثالث ويدعى رمضان باي، ولكنه كان أسيرا لدى الداي أحمد شلبي، فُكَ أسره في صفقة تبادل الأسرى بعد المعركة الأولى[2]. ولسنا ندري من هو الباي التونسي المقصود بإثارة الفتن بشرق الجزائر، وإن كان أحد الأخوين، فهل يغفر له الجزائريون صنيعه بهذه السرعة؟ أم أن فرصة معاقبة الداي لم تشأ الجزائر تفويتها؟

ومهما يكن من أمر أسباب قدوم الجزائريين؛ فإن محلتهم بقيت مرابطة بالقرب من تونس لضمان صفاء الخواطر وسير الأمور على أحسن وجه، حيث كانت ما تزال برأس الطابية غير البعيدة عن المدينة بصحبة محمد باي. غير أن الحقد لم يكن ليدع الأوضاع تستمر كما أريد لها، فقد قام الجند الإنكشاري بإعلان التمرد على عليّ باي انتقاما منه لصنيعه، عندما كان بايا في المرة السابقة و ارتكابه لمجازر فضيعة، و عليه تمّ الانفراد به بعيدا عن مكان التخييم لتسهل عليهم عملية قتله دون عناء[3].

عندما تم التخلص من هذا الباي يكون الجو قد خلا للباي محمد؛ ذلك أن أهمّ معارضيه قد قضى نحبه أمّا الثاني وهو عمّه محمد الحفصي كان باسطنبول فقد أبعده الداي شلبي عندما كان حاكما على تونس بقي بها حتى وافاه الأجل، وبذلك غادر الجيش الجزائري البلاد لاضطراب الأوضاع بالجزائر، بسبب تردي العلاقات مع فرنسا وأطماع المغرب في بايليك الغرب[4].

وافق السلطان العثماني على تسمية محمد بايا على تونس بعد هذه الأحداث الهامة، ومنح الداي بكداش لقب الباشاوية[5]. وبالرغم من دمج المنصبين في منصب واحد، لتلافي الاختلافات والتقاتل على السلطة، إلّا أنّ الطامعين في حكم إيّالة تونس كانوا كثر، يتربصون الدوائر لمواتية الفرصة للظفر بلقب الباي، وعلى رأسهم صهر الباي و كاهيته محمد بن شكر[*].

---

(1) ابن عبد الكريم محمد، مقدمة كتاب ابن ميمون محمد الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم و تحقيق ابن عبد الكريم محمد، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر 2007م، ص ص20- 21 .

(2) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 136.

(3) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص108.

(4) Mercier (E), op. cit, p 311.

(5) مقديش محمود، المصدر السابق، مج2، ص139.

(*) سمي كذلك بابن شركس. أنظر: المدني أحمد توفيق، محمد عثمان باشا...، المرجع السابق، ص 64.

5- فتنة ابن شكر وتدخل الجزائر1098-1107هـ/ 1686-1695م :

يُعرف ابن شكر بكاهية الباي محمد التونسي، وفي الوقت نفسه هو صهره أي زوج أخته. كان مخلصا لسيده في البداية، ولكن ممارسته للحكم عن قرب، أظهرت أطماعه غير البسيطة المتمثلة في التخلص من الباي الذي لم تمض فترة طويلة على تقلده المنصب، فقد قام ابن شكر باستئذان الباي لأداء فريضة الحج، وهذه هي عادة الكثير ممن حكموا تونس عندما يحسّون بالخطر ممن سبقهم كإبراهيم رودسلي أول داي؛ فعندما أحس بالخطر طلب أداء فريضة الحج فَسُمِحَ له بذلك، شريطة عدم عودته، وقد تبعه كم من واحد في هذا الأمر. و الكاهية ابن شكر واحد منهم ولكن أمره لم يكن كذلك(1).

يُقال أن ابن شكر غادر عن طريق البحر، وفي طريقه اعترضه قراصنة فرنسيون نهبوا أمواله وأغراضه، فلم يعد بوسعه إكمال طريقه فغيّر وجهته نحو الجزائر التي نزل بإحدى مراسيها. ويكون في هذه الفترة إبراهيم خوجة الذي ظفر بالنصر في تونس قبل سنتين، مُحاصِرا لمدينة وهران وكان في منصب الداي كما سبق و أشرنا الباشا حسين ميزومورتو، الذي استقبل الكاهية أحسن استقبال. كما كان لإبراهيم خوجة حظوة لدى محمد باي التونسي، ولكنّ جند الجزائر غضب من سلوك الداي حسين، و لما أحس الأخير بالخطر المحدق به اضطر إلى الفرار، متجها إلى تونس و لحسن حظه وسوء موقفه، فإن الباي التونسي أكرم ضيافته، وقَبِلَ عذره وتركه يكمل طريقه إلى اسطنبول، حيث عُيِّن عند وصوله إليها قبطان باشا للبحرية العثمانية (2). كانت هذه الأحداث في غضون، عام 1098هـ/ 1686- 1687م، و في سياق متصل انتشر بتونس، عام 1689م وباء الطاعون و بقي لمدة ثمانية أشهر تقريبا وقضى على خلق كثير حيث أثّر على الحياة العامة، و هكذا زاد هذا الوباء هما جديدا للأهالي الذين سئموا من الأوضاع المتردية التي ميزت هذه الفترة من تاريخ البلاد(3).

بعد فرار الداي حسين ميزومورتو عَيّن ديوان الجزائر واحد من أهم الدايات، الذين تعاقبوا على حكم الجزائر وهو الداي الحاج شعبان(1688- 1695م)(*)، كان عهد هذا الداي من أصعب المراحل التي مرت بها الجزائر في عهد العثمانيين، رغم تاريخه الحافل بالبطولات التي لم تشفع له.

---

(1) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 140 .

(2) المدني أحمد توفيق، المرجع السابق، ص 63.

(3) Mercier (E), op. cit, p 311.

(*) يعد من أشهر رياس البحر في الجزائر العثمانية، إبان القرن السابع عشر الميلادي، ولسوء حظه أنه حكم في زمن اضطربت فيه أوضاع الجزائر مع جارتيها تونس و المغرب، واستطاع أن يلحق الهزيمة بأعدائه، ولكن هؤلاء كانوا كثر ومن المقربين إليه لا يساوره أدنى الشك فيهم، حيث اغتنموا الفرصة وجزوا به في السجن حيث قتله خليفته أحمد باشا خنقا، رغم نجاحه في غزو تونس. أنظر :سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،ج 2، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2005م، ص ص 322-323.

أمّا على صعيد العلاقات الخارجية مع فرنسا، فقد بلغت الأعمال الحربية في عرض البحر المتوسط ذروتها حيث اندلعت الحرب بينها وبين الجزائر وتونس، في عام 1681م[1]، وخصصت فرنسا مكفآت قَيِّمَةً لكل فرنسي يُلقي القبض على بحار جزائري، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد. ففي يوم 02 رمضان 1099هـ/29 جوان 1688م، وجدت الجزائر نفسها في مواجهة الأسطول الفرنسي بقيادة الماريشال دوستري (d'estrées) كما ذكرناه سابقا، الذي أمطر المدينة بوابل من القنابل قُدّر عددها بحوالي عشرة آلاف قنبلة، في مدة خمسة عشرة يوما، هلك فيها العديد من أهالي المدينة بالإضافة إلى إحداث هلع كبير في وسط السكان وتحطيم جدران المدينة، و خاصة الصور الخارجي، فاضطرت الجزائر إلى قتل من كان لديها من الفرنسيين؛ وجعلتهم في فوهات المدافع، و ردّ دوستري بالمثل فقتل ذبحا 17 عثمانيا كانوا أسرى لديه[2].

لم تكن هذه الحملة في صالح فرنسا التي اضطرت إلى عقد الصلح عام 1100 هـ/1689م، لأنّ أوضاعها بأوربا لم تعد على ما يرام. و في هذه الأثناء هاجم الملك المغربي وهران [3]،كاشفا عن نواياه للسيطرة على بايليك الغرب بأسره إن نجحت حملته. كما أنّ إسبانيا كانت هي الأخرى تعاني من أوضاع صعبة كجارتها فرنسا، و كان ذلك من أسباب تفكير المغرب بِشّنِ هذه الحملة.

ويبدو أنّ وهران مدينة صعبة المنال لذا استطاع الإسبان أن يبقوا فيها طيلة تلك الفترة، ولو كانت غير ذلك لتمكن منها الجزائريون منذ زمن، فحصانتها الجيدة حالت دون استرجاعها، ودون سيطرة المغرب عليها كذلك. وهذه الحملة المغربية ستكون سببا حقيقيا لدفع الداي شعبان في التفكير بحصارها و استرجاعها إن أمكن، و حتى للداي محمد بكداش فيما بعد.

وإذا رجعنا للجهة الشرقية فإنّ وضعها لم يكن بأحسن حال، لأن ابن شكر بقي بالجزائر يَزِّنُ على أذن الداي ويحرضه ضد باي تونس محمد المرادي؛ حيث استطاع في الأخير إقناع الداي شعبان بقطع علاقاته بتونس [4] كخطوة أولى بعد أن رفض الاعتراف بفضل الجزائريين الذين يعود لهم الفضل في تنصيبه [5]، منذ أربع سنوات قد مضت، عندما تم دحر قوات الداي أحمد شلبي وعمه محمد الحفصي، ومن ثم إعلان الحرب عليه، ولكنّ ليس قبل أن تتحسن الظروف وتكون الفرصة مواتية.

---

(1) Paul (Masson), Histoire des établissements et du commerce Français, dans l'Afrique Barbaresque, 1560-1793 Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc, Paris, librairie Hachette, 1903, p138.

(2) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص 22.

(3) Mercier (E), op. cit, p 311.

(4) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص141.

(5) المدني أحمد توفيق، المرجع السابق، ص64.

6- الحرب بين الإيّالات الثلاث1105هـ/ 1694م:

لم يقتصر الصراع بين الإيّالتين الجزائرية والتونسية، في أواخر القرن السابع عشر ميلادي عليهما فقط، بل تعدى الأمر إلى أكثر من ذلك، ولم نعد نميز الأسباب التي أدت إلى حدوث المعارك و كم فريق شارك فيها. إنّ توسع دائرة الصراع إلى طرابلس الغرب، سيزيد الأمور تعقيدا و يدفع بحكامها إلى التفكير جليا في إعلان الاستقلال عن سلطة الباب العالي الذي كان يعاني من مشاكل، وكثيرا ما تظاهر السلاطين بعدم اكتراثهم بما يجري في ولاياتها الغربية البعيدة عن نظرهم.

يجب علينا قبل الخوض في هذه الحرب أنّ نوضح بأنّ الحرب القائمة، إنما هي حرب بين الجند الإنكشاري القادم من الدولة العثمانية في إطار سياسة التجنيد؛ لأن المعارك التي دارت رحاها ولا زالت مستمرة، المتسبب فيها بالدرجة الأولى هم حُكّام هذه الإيّالات وجندهم المتكون من الأتراك والمماليك [1]. ولم يكونوا من قبائل العرب أو أهالي المغرب إلا نادرا فهؤلاء بقوا دائما خارج حلبة الصراع، إلّا إذا حّل الصراع بأقاليمهم فسيجدون أنفسهم مضطرين إلى الوقوف إلى جانب طرف معين حسب مصالحهم.

ويبدو أن هذه الحروب كانت امتدادا لحالة التوتر التي عاشها المغرب الإسلامي، في العصور الوسطى. ورغم أن الحرب في تلك الفترة دعّمها الأهالي فإنّ من أشعلها هم من المشرق، جاؤوا إلى المغرب لتأسيس دول إسلامية بعد أن فشلوا في تأسيسها هناك. والحرب التي كانت قائمة إنّما هي حرب مذهبية بالدرجة الأولى، أمّا هذه فحرب مصلحية. وفي كلا الحالتين، فإنّ الذي تحمّل أعباءها هم أهالي المنطقة دون سواهم، فجماعة الجند الإنكشاري مأجورون عن خدمتهم العسكرية وهم حماة الإيّالات العثمانية، ولا يهمهم استقرارها – بل بالعكس حالة الحرب تخدمهم لطبيعتهم العسكرية – بقدر ما يهمهم قبض مرتباتهم أو الحصول على غنائم وفيرة من جرائها، وكثيرا ما أشعلت قضية مرتباتهم الثورة على أسيادهم، حيث كانت هذه أكبر معضلة تواجه أي داي جديد.

استدعى الداي شعبان قبل القيام بأيّة خطوة أعضاء الديوان للاجتماع، قصد اتخاذ قرار بشأن إعلان الحرب على تونس[2]، وهذا شأن أي داي عندما يواجه قضية مماثلة، خاصة إذا تعلقت بالعلاقات الخارجية، لضمان الولاء والمساندة، حتى وإن كان هناك إخفاق فإنّ مصير الداي يُقرر من طرف ضباط الإنكشارية المتغطرسين، و النافذين في الحكم. وإذا عدنا إلى الصراع الثلاثي فإنّ صاحب كتاب التحفة المرضية لم يذكر أمر تحالف الجزائريين والطرابلسيين في هذه المعركة وإنما اكتفى بذكر استيلاء الجزائر على تونس، عام 1105هـ/1694م[3].

---

(1) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 141 .

(2) DeVoulx (A), Tachrifat, Recueil De Notes Historiques, Alger, Imprimerie du Governement, 1852, p11 .

(3) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص25.

6.أ- أسبابها ومجرياتها:

يجب الإشارة إلى أن أسباب هذه التحالفات مختلفة وسنذكر بعضها :

أ -تحريض ابن شكر للداي شعبان بالاستيلاء على تونس، انتقاما من الباي محمد المرادي.

ب- تحالف الباي محمد مع مولاي إسماعيل المغربي لمهاجمة الجزائر، ومساندة فرنسا للتونسيين بالسلاح[1].

ج- محاولة الجزائر القضاء على هذه التحالفات، التي كادت أن تنتظم في ضربة واحدة تنهي وجود الإيّالة الجزائرية من طرف بايات تونس والملك مولاي إسماعيل المغربي.

د- رفض الباي التونسي دفع الضرائب التي أقرّوها في المرة السابقة.

هـ- الفتن القائمة بتونس ضد البايات، الذين تم تعيينهم من طرف الجزائر، كابن شكر وأحمد بن الشقير[2].

و-كتاب الداي شعبان وابن شكر لداي طرابلس مُدَّعِيينَ من خلاله، أنّ الباي محمد المرادي يخطط للاستيلاء على الإيالّتين الجزائرية والطرابلسية [3].

جهّز داي طرابلس المدعو محمد الإمام، جيشا يتكون أساسا من الجند الإنكشاري، وأرسله عن طريق البحر حيث تم إنزاله بميناء عنابة، في عام 1105هـ / 1694م، و كانت هي مكان لقاء المحلتين الجزائرية والطرابلسية المتفق عليه. يُذكر أن هذه المعركة كانت عاما 1694م[4]، و كان تعداد جنود المحلة كبيرا جدا، و قادها الداي شعبان الذي تَتُوق نفسه إلى تأديب باي تونس، وقطع رأسه لمخالفته الأوامر وعدم أداء ما عليه.

لما عَلِم الباي محمد بقدوم المحلتين، سارع إلى حشد جيوشه و سار بها نحو الغرب، و التقى الطرفان في الكاف كالمرات السابقة، هذه البلدة التي رَوَتْ أرضها بدماء المسلمين [5]، ومن الوهلة الأولى انكسر جيش الباي حيث ولى الأدبار مسرعا، قافلا إلى عاصمته مدينة تونس، لعلها تكون ملاذه الآمن [6]، و من أسباب هزيمته دائما خذلان عرب أولاد سعيد وغيرهم ممن تبعهم، وقد تمخضت عن المعركة نتائج كثيرة.

---

(1) قنان جمال، معاهدات الجزائر مع فرنسا(1619-1830م)، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر 2007م، ص142.

(2) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص 25.

(3) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 141.

(4) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، مج1، ج2 ،ص 63.

(5) DeVoulx, Tachrifat, op. cit, p11.

(6) Maggil (M,Thomas), Nouveau voyage a Tunis, publié en 1811, Paris, editeur de dictionnaire des sciences médicales, 1981, p76.

6.بــ- نتائج معركة الكاف الأولى1105هـ/ 1694م:

كان لهزيمة باي تونس وقعا كبيراً، خاصة على مدينة تونس و أهاليها ومن أهم نتائجها نذكر :

1- الذُّعر الكبير الذي أصاب الأهالي، من جراء الهزيمة المنكرة التي مُنِيَ بها جيشهم.

2- تعطل أعمال الأهالي كالفلاحة في البساتين المجاورة لمدينة تونس، أو في طريق الجيش الجزائري القادم.

3- توقف الحركة التجارية المتنقلة في الأسواق الداخلية اليومية و الأسبوعية.

4- أخذ الأهالي للحيطة والحذر وتدبير شؤونهم للصمود.

5- هروب الباشا رمضان و الداي علي ريّس إلى أوربا[1].

6- اغتنام جيش الجزائر و حليفه غنائم كثيرة، بالإضافة إلى إلزام الرعية بدفع أداءات سنوية[2].

7- ضرب محلة الجزائر للحصار على مدينة تونس[3].

6.جـ – حصار مدينة تونس 1105هـ/ 1694م:

سارت الجيوش المتحالفة نحو تونس بخطى متثاقلة، واثقة من نفسها، بعد شهر من الهزيمة التي ألمت بالباي التونسي، وصلت المحلتين إلى أسوار مدينة تونس، وضُرب حصار حولها فاقت مدته ثلاثة أشهر، أمطرت المدينة من خلاله بقذائف المدافع وتم تبادل إطلاق النار بين الجانبين، ومهما يكن من أمر التحصينات والمؤَنْ التي تم جمعها فإن مدة الحصار كانت طويلة تكفي لإفناء ما جمعه الأهالي طيلة شهر، بداية من المعركة حتى تاريخ ضرب الحصار. لذا نجد أن أهالي المدينة ظهر عليهم الملل والقلق الذي كان يتزايد يوما بعد يوم ولم تظهر في الأفق بوادر لانفراج الأزمة.

أدى هذا الضغط المتزايد على الباي التونسي والأهالي من جهة، وقوة المحلتين من جهة أخرى، خاصة بعد إحراز نصر كبير في المعركة، أدى إلى انضمام العديد من القبائل، هذا بالإضافة إلى الأنباء التي كان مفادها أنّ مرسى غار الملح الذي يحتوي على مخازن الأسلحة التونسية و القطع البحرية وبعض القبائل، قد اعترفت بسلطة محمد بن شكر على البلاد، مما سيعرض حكم الباي محمد المرادي إلى مهب الريح[4].

---

(1) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 142.

(2) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص 25.

(3) مقديش محمود، المصدر السابق، مج2، ص136.

(4) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 142.

6.د- نتائج حصار مدينة تونس:

يبدو أن الحصار كان خانقا لحد أن الرعية ثارت في وجه الباي محمد، ولم يجد طريقة للنجاة سوى الهروب حيث فرّ، يوم 24 ربيع الأول 1106هـ / نوفمبر 1694م[1]، وتوجه إلى القيروان التي مُنع من دخولها وبذلك بقي هائما على وجهه في الصحراء. بعد أن تأكدت الرعية من فرار الباي طلبوا الصلح من الداي شعبان الذي قبل به ومنحهم الآمان و بالمقابل أعلنوا ولائهم له.

أدى هذا إلى نجاح ابن شكر في تنفيذ مساعيد الرامية إلى السيطرة على مقاليد الحكم بتونس؛ حيث تم تنصيبه بايا، وتولية داي جديد مكان إبراهيم خوجة الذي عيّنه الباي السابق [2]. وكنتيجة لهذا الولاء فإنّ الجزائر اعتبرت الحكّام الجدد تابعين لها، ومن مظاهر ذلك أنّهم منحوا امتياز صيد المرجان للفرنسيين بجزيرة طبرقة [*]. وقد أشار صاحب الحوليات التونسية أن الحكومة الجزائرية أرادت الاستفادة من انتصاراتها التي حققها جيشها في تونس لتوسيع حدودها الشرقية، حيث استند في ذلك إلى وثيقة مؤرخة، في عام 1693[3].

وإذا نظرنا بتمعن لهذا القول فإننا نرى بأن الانتصارات كانت، عام 1694م، وهو قد ذكر بأن الوثيقة مؤرخة، عام 1693م، وهنا المعركة لم تَجْرِ بعد ولم ينتصر الجزائريون كذلك، حتى يحققوا أطماعهم التوسعية، كما أنّهم لو أرادوا ذلك لألزموا حكّام تونس على تغيير اتفاقية رسم الحدود، وتكون بذلك التوسعات محكومة باتفاقيات و لا يلجأوا لهذا الأسلوب، ولأقاموا حكّاما جزائريين لضمان التبعية.

كنا قد أسلفنا القول بأن الجزائريين كانوا يمارسون الوصاية على تونس من منطلق أنّهم كان لهم الفضل في تحريرها أواخر القرن المنقضي، و ما على بايات تونس إلّا الاعتراف بذلك والإقرار بأمر التبعية، أمّا بالنسبة لامتياز صيد المرجان فإن الجزائر كان لها نصيب من مرجان طبرقة في عهد صالح باي قسنطينة كما سيأتي [4]. ونحن نجهل تاريخ بداية الاستفادة من هذه المادة الحيوية التي أسالت لعاب فرنسا بالدرجة الأولى. كما أن الحصول على ضرائب صيد المرجان بهذه المنطقة لا تعني بأنها خاضعة للجزائر أو تمارس عليها السلطة الكاملة، وعلى أيّة حال قربها من الحدود الجزائرية ووجود مراكز صيد المرجان الرئيسية بشرق الجزائر، جعل منها محط أنظار حكام الجزائر.

---

(1) Maggil (M,T) , op. cit, p77.

(2) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 143.

(*)جزيرة تونسية قريبة من شاطئ البحر والحدود الجزائرية التونسية، استغلها الجنويون مقابل ضرائب تدفع لحكام الإيّالتين قبل 1740م حيث استرجعها علي باشا الحسيني، وأبقى نصيبا من ضرائبها للجزائر. أنظر: بيسونال جون أندري، الرحلة إلى تونس 1724م، ترجمة و تحقيق السنوسي محمد العربي، مركز النشر الجامعي، تونس 2003، ص147.

(3) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 142.

(4) مراسلات بايات قسنطينة، مخطوطة بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم1641، ورقة 6.

كان خوف الأهالي من عمليات النهب و الاغتصاب التي عادة ما تصاحب هذه الأوضاع كبيرا، إلّا أنّ ذلك لم يحدث ماعدا بعض التجاوزات التي أحدثها جند الجزائر، بعد أن سكروا؛ حيث وجدوا مخزوناً من الخمور في دهاليز السجون التي اقتحموها. بعد المعركة تم تنصيب ابن شكر و فرض عليه الداي شعبان دفع مبلغ خمسمائة ألف قرش كمقابل لدعمه له، منها مئة ألف للداي و الباقي لخزينة إيّالة الجزائر. وبمقارنة حجم المبالغ المفروضة مع ظروف تونس القاسية في هذه الفترة سوف لن يستطيع الباي الجديد تنفيذ أداء ما عليه، إلّا بالعودة إلى اضطهاد الرعية وسلب أموالها[1].

قرر الداي شعبان العودة إلى الجزائر بعد ما تم فرض الاستقرار في تونس؛ حيث تنتظره مهام جسيمة وعلى رأسها قضية تحرير وهران، وإيجاد مصادر مالية أخرى للخزينة الجزائرية، وهكذا غادر الداي و كان محملا بل مثقلا بغنائم كثيرة، وأخرى وُعِدَ بالحصول عليها لاحقا [2]، و عليه صودرت أموال الأهالي في مدينة تونس بقرار من الباي الجديد محمد بن شكر ليوفي بوعده نظير مساعدته [3]. و يقال أنه عند مغادرة الداي شعبان لمدينة تونس تخاصم مع صاحب طرابلس وقائد محلتها خليل الأرناؤوطي، وبعيدا عن الاختلافات الواضحة، نجد أن خليل تخاصم مع الداي شعبان حول الغنائم المتحصل عليها، حيث اعتبر الأخير أنّ ما غنمه خليل من المراكب التونسية في مرسى غار الملح وغيرها هو كل حصته ولا أكثر، إلّا أنّه كان يطمع في غنائم المدينة، عندها شتم خليل الداي شعبان الذي استشاط غضبا؛ وكاد أن يقتله كما قصف الجزائريون سفن طرابلس من القلاع بعد مغادرتها لمرسى حلق الوادي[4].

غادر الداي شعبان على رأس جيشه برا، و رافقه ابن شكر لتوديعه، ونقل جزءاً من الجيش عن طريق البحر في 17 – 01 – 1695م ومباشرة بعد الرحيل فإنّ دوامة العنف والتقاتل على السلطة لم تكن لتهدأ؛ إذ ثارت الرعية على الباي مرة أخرى وخلعته، ولطالما سئمت الرعية من الحكام الذين تنصبهم الجزائر بسبب الضرائب التي يباشرون جمعها لتسديد ما عليهم لأسيادهم حكام الجزائر[5].

عزمت طائفة الجند الإنكشاري على منع دخول هذا الباي إلى إيّالة الجزائر وهذا كي لا يتمكن من الاستنجاد بالداي ثانية ويدخلهم في حرب هم وقودها، وبالمقابل هددت الداي شعبان في حالة عودته إلى تونس بالانتقام منه، ولكن الداي شعبان لم يكن ممن يخشون التهديدات فقد صمم على محاربة المتمردين على سلطته في الجزائر و تونس، لضمان الحصول على الأموال التي كانت الجزائر بحاجة ماسة إليها.

---

(1) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 143.

(2) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص 25.

(3) مقديش محمود، المصدر السابق، مج2، ص137.

(4) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 143 .

(5) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص 25.

أثّرت الحرب المستمرة على أوضاع الجزائر الداخلية، و أرهقت الجند، كما ساهمت كذلك في إثارة القلاقل والفتن و تأليب فرق الإنكشارية على الداي، بدءًا من فرق الجيش التي كانت تحرس الحدود الشرقية الجزائرية، التي اتجهت نحو مدينة الجزائر للفتك بالداي المنتصر، فكيف الحال إن كان منهزما. ولم نجد أسباب هيجان الإنكشارية في المصادر، وهذا ما أدى إلى اختلاف الآراء حول نهايته كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

ونجد سبباً أو اثنين ربما يكونا كافيين لفهم المأساة، التي أنهت حياة هذا الداي، ومنها أنّه قرر العودة لحرب تونس لمساندة الباي محمد بن شكر بعد رفضه للصلح الذي تقدم به باي تونس الجديد [1]، و السبب الثاني أنّه لم يعط للجند الذين حاربوا معه من الغنائم ما يكفي، لقاء ما بذلوا من عناء في الحرب. ومهما تكن الأسباب فإن الداي شعبان حاول عبثا أن يثنيها على ما عزمت عليه، فبعث جماعة موثوق بها يتزعّمها القاضي والمفتي الحنفيان ولكن دون جدوى، و كَحَلٍ بديل فتح الخزينة ووزع الأموال على الجند، بمدينة الجزائر ليقفوا معه ضد الفرق المتمردة ولكنهم ساعدوا الجند الثائر في القبض على الداي، الذي تم إيداعه السجن ولقي هناك أشد العذاب[2].

حدثت أمور كثيرة في إطار الجو المشحون بالتوتر بين الإيّالتين، في الفترة الممتدة بين انتصار الداي شعبان في تونس ومقتله، سنسردها لاحقا في وقتها كي لا تختلط علينا الأمور. و هناك عقبات كانت تعترض الجزائر وتشغلها بمسائل أكثر حيوية، ولعلها كانت تحدث في غير محلها، ذلك أن الإنجليز، في سبتمبر 1694م، اغتنموا فرصة تواجد الداي شعبان بتونس، و اقترحوا على ديوان الجزائر أن يعلن الحرب على فرنسا مقابل مبالغ مالية وعتاد حربي وهدايا كثيرة، بَيّْد أن الديوان رفض، وأكد هذا الرفض الداي شعبان بعد عودته، كل هذا كان بعد استرجاع فرنسا لمؤسساتها بالقالة، بعد أن كانت بِيَدْ الإنجليز منذ عام 1684م.

عقدت فرنسا اتفاقية سلم و تجارة مع الجزائر، في مطلع 1694م، يدل هذا على أن التنافس كان على أشده بين الأوربيين على خدمة مصالحهم الشخصية على حساب مشاكل الآخرين بواسطة الأموال والهدايا، التي كانوا يتذلونها لقاء ذلك، وهكذا فإنّ موت الداي شعبان لم يخدم التونسيين فحسب بل حتى الفرنسيين، وعندما تقلد الداي أحمد حكم الجزائر(1695- 1698م) أمر باحترام المؤسسات الفرنسية، كما أقرّ بدمج شركة الرأس الأسود بطبرقة و مؤسسة القالة في مؤسسة واحدة [3]. وهذا ما يثبت لنا مرة أخرى، استفادة الجزائر من ضرائب مرجان جزيرة طبرقة. إنّ التصرفات الأحادية للداي شعبان وحكّام الإيّالات الثلاث والحروب فيما بينها أزعجت الباب العالي، حيث عبر عن سخطه لما يجري[4].

---

(1) قنان جمال، معاهدات الجزائر...، المرجع السابق، ص 143.

(2) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص25.

(3) بوعزيز يحي، المرجع السابق، ص92.

(4) Plantet (E), Correspondance Deys D'Alger, op, cit, p441.

7- وساطة الباب العالي1106هـ/ 1695م:

حرّكت الحرب بين الإيّالات المغاربية الثلاثة حكومة الدولة العثمانية، في اتجاه إعادة سيطرتها، إذْ لا تزال تعتبر نفسها كما كانت دائما هي الحَكَمُ في مثل هذه القضايا. وعليه أوفد الباب العالي في عهد السلطان أحمد الثاني (1691- 1695م) مندوبين أو ممثّلين له إلى حكام الإيالات، طالبا منهم قبل الخوض في مثل هذه المعارك أن يستنفذوا كل الوسائل المتاحة لرأب الصدع وعدم الانجرار وراء الحماقات، لتلافي نتائج أكثر فداحة، كما أراد أن يحملهم على العيش في وئام، حيث أرسل جاري محمد باشا للنظر في أمور إيّالة طرابلس الغرب، وعمر باشا لإيّالة الجزائر[1] ولم يذكر أمر تونس، لأن الباب العالي كان مؤيدا للباي محمد منذ أربع سنوات قد خلت [2]، و أكد حرصه الشديد على ضرورة التحلي بروح المسؤولية وإعادة الأمور إلى سابق عهدها. ويذكر أن محمد الإمام صاحب طرابلس كان قد استولى على الحكم بالقوة دون استشارة الباب العالي، مما يعطي للإيّالة صفة الاستقلالية.

لقد أحسّ سلاطين الباب العالي بأنّ هذه الحروب من شأنها أن تمهّد إلى استقلال الإيّالات المغاربية بشمال إفريقيا، كما سيأتي في مطلع القرن الثامن عشر ميلادي، وهذا لعدة أسباب أهمها :

أ- دخول الإيّالات الثلاث في حالة صراع لا نهاية لها.

ب- إنفراد محمد الإمام بحكم طرابلس بالقوة دون مراعاة رأي الدولة العثمانية[2].

جـ- ضعف شخصية السلاطين العثمانيين؛ حيث لم تكن تتعدى سلطتهم في بعض الأحيان القصر مما أدى إلى بروز شخصيات أخرى تدير أمور البلاد.

د- تخلي الدولة العثمانية عن بعض مظاهر سيادتها على الأقاليم بمقتضى اتفاقيات أبرمت مع روسيا كاتفاقية اسطنبول،1091هـ/1680م، واتفاقية كارلوفيتز (Carlovitz)1112هـ/1699م، مع النمسا[3].

هـ- بُعْدُ الإيّالات المغاربية عن السلطة العثمانية باسطنبول مما يسهل عملية الانفصال.

إذا كان الباب العالي لا يزال يريد ضمان التبعية على أقل تقدير، فإنّ الأمور في تونس كانت تسير في الاتجاه المعاكس تماما، كما هي في الجزائر[4].

---

(1) فيرو شارل، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة و تقديم الوافي محمد عبد الكريم ، ط 3، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي ليبيا 1994م، ص 234.

(2) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص141.

(3) رافق عبد الكريم، العرب و العثمانيون1516- 1916م، مطبعة ألف باء، دمشق1974م، ص ص117-119.

(4) خوجة حمدان بن عثمان، المصدر السابق، ص154.

سار ابن شكر على طريق محفوف بالمخاطر، فقد أبدى منذ الوهلة الأولى حزما كبيرا في مواجهة خصومه المحسوبين على الباي السابق. ولكن رقعة التمرد كانت تتوسع يوما بعد يوم وأصبح من الصعب عليه إعادة الأمور إلى نصابها، فالسياسة الضريبية التي سنّها هذا الباي أدت إلى ميل جل الرعية إلى التخلص منه اليوم قبل الغد، هذا فضلا على أنّه صنيعة جزائرية ولن يستطيع الصمود إلّا إذا كانت الجزائر بجانبه، شأنه في ذلك شأن الملوك الحفصيين الأواخر بالنسبة للإسبان.

ثارت مدن كثيرة منها سوسة و القيروان ومدن أخرى في الجنوب، و يبدو أن هذه الاضطرابات كان يغذيها الباي محمد فهو لازال يتربص الفرصة لاستعادة عرشه، خاصة و أن أولاده قد كبروا وسيساعدونه على تحمل أوزار هذه المعركة الشاقة. هذا بالإضافة إلى أنّ له أنصار كثر؛ حيث مافتئوا يحرضونه على إعلان الحرب ضد الباي ابن شكر و أتباعه.

انصاع الباي محمد لهذه النداءات، ودخل في معركة، يوم 08 رمضان 1106هـ/1694م، حسمت لصالحه و تفرقت جموع ابن شكر وضيّق عليه الخناق، ولكنّه فرّ من ساحة المعركة باتجاه الجزائر، التي مرّ من خلالها إلى مدينة فاس[1]، وما كان يخشاه محمد باي هو غضب الجزائر، خاصة وأنه يعلم جيدا من هو الداي شعبان فقد بادر إلى إرسال وفد ترأسه إمام جامع الزيتونة والمفتي محمد فتاتة وكاتب الديوان محمد خوجة، طالبا منه قبول التبعية والخضوع ولكن الداي رفض ذلك وطرد الوفد؛ حيث استقل مركبا وهمَّ بالعودة إلى تونس ولكن عاصفة هبت فرجع الوفد إلى الميناء، و في هذه الأثناء علم أفراده أنّ انقلابا حدث على الداي شعبان، وبذلك أعادوا طلب الصلح من الداي الجديد وهو أحمد باشا الذي قبل بمطلبهم وتمّ عقد الصلح[2].

يقال أن الداي الجديد لم يكن سوى رجل مسن ومريض، اشتغل بمهنة ترقيع الاحذية، غير أنّه لين الطبع ولم يكن ذا حزم وجرأة كالداي شعبان، فقد انتخبته الإنكشارية ليمضي على قراراتها فقط [3]، لتفادي المشاكل، ولكن بهذه الطريقة المتبعة في تولية المناصب كانت المشاكل ستتفاقم أكثر، فلم يلبث الداي في منصبه حتى وافته المنية أواخر عام 1698م، ليتم تعيين الداي حسن شاوش(1698- 1700م)[4]. ولم يقتصر هذا العجز على الإيّالة الجزائرية فحسب بل حتى إيّالة تونس كانت تعاني هي الأخرى من هذا المشكل بالنسبة للدايات رغم أن وجودهم كان شكليا ولا يتعدى الموافقة و التوقيع على القرارات، وهكذا عجز حكّام الإيّالتين على إيجاد دايات لهم بصيرة نافذة في الحكم، على الأقل على مستوى العلاقات بينهما.

---

(1) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص 110 .

(2) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 145.

(3) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص ص 25 -26.

(4) ابن المفتي حسين، المصدر السابق، ص58.

ثالثا- الصراع بين دايات الجزائر و البايين مراد الثالث و إبراهيم الشريف 1699-1705م:

أُعتبرت وفاة الداي شعبان من حُسنِ حظ الباي محمد المرادي؛ فقد سيطر على الحكم بتونس، ولضمان استمرار حكمه كان لابد أن يعيّن دايا جديدا، مكان الداي محمد طاطار، الذي قُطع رأسه وشُهّر به؛ حيث عيّن الداي يعقوب الذي مافتئ يثبت عجزه عن إدارة الأمور حتى خُلعَ هو الآخر، و كان حظه أحسن من سابقه فلم يُقتل، لعدم وجود حاجة في ذلك وهذا لتقدمه في السن.

وقد تم تعيين داي جديد مكانه وهو محمد خوجة الذي أُرسل إلى الجزائر وعقد الصلح من الداي. إن هذه الترتيبات أعادت الأمن و الاستقرار لربوع الإيّالة التونسية المضطربة، ولكن القدر كان أسبق من أن تبقى الأوضاع هادئة، و يتنفس أهلها الصعداء ولو لبرهة من الزمن، فقد توفي الباي، عام 1108 هـ / 1696م[1].

1 - حكم مراد الثالث وعودة الصراع ضد الجزائر1699-1702م:

بُوييع رمضان بايا على رأس إيّالة تونس، و كان من ذي قبل في الجزائر، أثناء حرب الأخوين ضد الداي أحمد شلبي، ولكنّ صفات هذا الباي الجديد، لم تكن لتؤهله إلى القيام بمهامه كحاكم فِعلي، خاصة وأن هذه الفترة كانت حرجة على كل الأصعدة. ومما زاد الأمور صعوبة دائما وفي كل مرة هو وجود أحد الطامعين في السلطة، وهو مراد الثالث(1699- 1702م) ابن الباي علي، إذ أنّ هذا الأخير سرعان ما جمع الجيش حوله؛ وتأهب لحرب عَمِّهِ حيث هزمه شر هزيمة وقتله، و بذلك اعتلى الباي مراد الثالث، عرش الإيّالة، بدخوله العاصمة تونس يوم 08 رمضان1110هـ/ 14 مارس 1699م، وبايعه أهل المدينة وعمره ثمانية عشرة عاما[2].

استهل الباي مراد حكمه بإجراءات توحي بحزم الرجل لتجاوز العقبات السابقة، لضمان استقرار الإيّالة وفتح صفحة جديدة مع جيرانه، ولكن القسوة التي عامل بها الأهالي وإسرافه في القتل بدءاً بِعَمِّه رمضان جلبت عليه النقمة[3]، وأصبح هؤلاء يتربصون به الدوائر، فَرُوحُ الإنتقام كانت تملأ قلبه ولم تكن تهمه سوى نفسه، التي امتلأت بالكبرياء والعجرفة، وعليه ظهرت نواياه الحقيقية، التي سلطت عليه أعداء ليس فقط بالداخل وإنما حتى بالخارج. ولكن المجريات على أرض الواقع أثبتت أن الباي كان يُقَدِّرُ قوة الجزائر ويهابها، وعليه تحالف مع باي طرابلس لِلنْيل منها؛ هذا الأخير لم يكن يمثل على باي تونس أدنى خطر، بل بالعكس سيكون له خير سند لبلوغ هدفه[4].

---

(1) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 146.

(2) مقديش محمود، المصدر السابق، مج2، ص143.

(3) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص112.

(4) De Grammont(H.D), Correspondance des Consuls D'Alger (1690-1742), Paris, Ernest Leroux Libraire-éditeur, 1890, p79.

1.أ- أول محلة تونسية لغزو الجزائر1129هـ/ 1699م:

اجتمعت أسباب كثيرة أدت بالباي مراد الثالث التونسي إلى إعلان الحرب على الجزائر ومنها:

أ- محاولة انتقامه من الجزائريين، الذين ناصروا عمّه رمضان فيما سبق.

ب- إظهار جانب القوة والحزم لضمان ولاء الرعية.

جـ- محاولة تحقيق انتصارات خارجية للظفر بمكاسب جغرافية ورفع معنويات الجيش.

د- التخلص من الأداءات المالية التي كانت تُدفع لخزينة إيّالة الجزائر.

هـ- رفض داي الجزائر حسن باشا الشاوش، للهدية التي أرسلت إليه من قبل الباي مراد(1).

يُرجّح أن يكون السبب الأخير هو الذي حمل الباي مراد على إعلان الحرب، بدافع الانتقام لمقتل أبيه فيما سبق(2)؛ حيث جَهّز محلّة ضخمة كي يتفادى مصير أسلافه أو ليحفظ ماء وجهه على الأقل، قوامها اثنا عشر ألف جندي من المشاة، وأربعة آلاف من الفرسان، واثنين وثلاثين مدفعا، وسار على رأسها للجزائر (3)، و عليه ستكون هذه أول محلة تونسية تغزو الجزائر، لأنّ كل المحال الأخرى كانت الجزائر هي التي توجهها نحو تونس ولأغراض معلومة ومحددة أيضا.

سُطر الهدف الأول للمحلة التونسية و كان مدينة قسنطينة، و قبل أن تصل هذه المحلة كان الباي علي خوجة، و جيشه في انتظارها، ولكن لم يكن في مستوى جيش الباي المرادي، خاصة من ناحية العدة والعدد غير المتكافئين، وهناك من يقول أنها كانت حملة مفاجئة (4). ومهما يكن من أمر التعزيزات فإنّ المعركة واقعة لا محال وعندما التقى الجمعان بالقرب من مدينة قسنطينة حتى اشتبكا اشتباكا عنيفا، و أسفرت المعركة عن هزيمة الجيش الجزائري، عكس المعارك السابقة تماما، وهكذا هُزمت قوات الباي علي خوجة(5)؛ حيث قُتل حوالي خمسمائة جندي إنكشاري من صفوة الجيش الجزائري في بايليك الشرق، ولم يحدث أمر كهذا في سلسلة المعارك الجزائرية التونسية سابقا، مما سيضع مصير هذا الباي على المحك(6).

---

(1) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 149.

(2) مقديش محمود، المصدر السابق، مج2، ص144.

(3) المجموعة3190، الملف الأول، أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، ورقة 53.

(4) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص 26.

(5) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص112.

(6) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 148 .

1.بـ – حصار مدينة قسنطينة1129هـ/ 1699م:

فكّر مراد الثالث بعد الراحة التي قضاها جيشه في اقتحام المدينة، ولكنّ سكانها كانوا قد جمعوا من المؤن ما يكفيهم للصمود أثناء الحصار الذي لم يكن أحد يتنبأ به كم سيبقى، ما عدا مراد الذي ظن أنّه سيقتحم المدينة بسرعة، و خلال الشهر الأول تمكن التونسيون من افتكاك القلعة التي قُتل كل من كان بها ذبحا، واستولى في غضون ذلك على أسلحتها المختلفة، وبقي الحصار فترة ثلاثة أشهر أخرى[1].

ضاق صبر الباي التونسي و هو يرى المدينة صامدة وأبوابها موصدة في وجهه، فقد شعر من جراء ذلك بالذهول والإحباط الشديدين، خاصة أن الفترة المنقضية من بداية الحصار كانت كافية لإرسال جيش من الجزائر لنجدة المدينة. وعليه سارع إلى الاستنجاد بقائد الجيـش الطرابلسي خليل الأرنـاؤوطي، الذي تكلمنا عنه سابقا ويكون قد إصطحب معه ألف و خمسمائة فارس[2]. وهكذا أعاد هذا الباي الحرب بين الإيّالات الثلاثة مجددا.

شهدت الجزائر في هذه الفترة العصيبة تحاملا خارجيا منقطع النظير، ففي السنوات القليلة الماضية شنّ العلويون هجوما على الغرب الجزائري، واليوم التونسيون ولحق بهم الطرابلسيون. غير أنّنا إذا رجعنا إلى سرعة موافقة باي طرابلس على نجدة الباي مراد، فنستنتج أنّ الاختلاف الذي وقع بينه وبين الداي شعبان سابقا حول اقتسام الغنائم بتونس أدى إلى الانتقام من الجزائريين، والطمع في الحصول على غنائم وفيرة تكون الجزائر مصدرها، دون بذل جهد و عناء كبيرين.

قَدِمَ جيش طرابلس لمشاركة الباي مراد في حصار المدينة، و لما كانوا يبحثون عن خُطَط لاقتحامها، وصلت أخبارهم إلى الجزائر، فاضطربت أحوالها واستشاط الإنكشارية غضبا فتمّ عزل الداي، و عوض بالداي الحاج مصطفى أهجي (1700– 1705م)[3]. و يبدو أن ثقة الحليفين بنفسيهما كانت كبيرة و عندما دنا الجيش الجزائري منهما هبّا لملاقاته، في السهول الواقعة بين قسنطينة وسطيف، في 1112هـ/ أكتوبر 1700م[4]، وفي هذه الأثناء نزل الملك المغربي بجبل هيدور، على رأس جيش قوامه خمسين ألف فارس، يريد احتلال وهران ولكن محاولته باءت بالفشل، فغيّر وجهته لغزو غرب الإيّالة لعله يحقق رغبته التوسعية[5].

---

(1) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص 26.

(2) المجموعة 3190، المصدر السابق، ورقة 53.

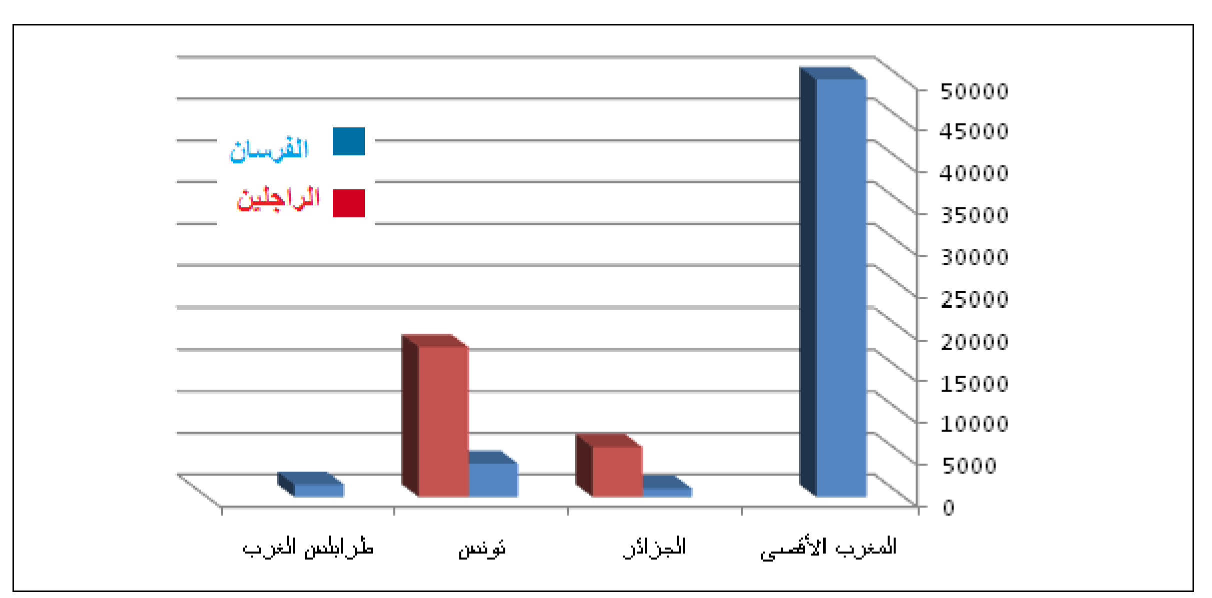
(3) De Grammont(H.D), Correspondance des Consuls D'Alger, op. cit, p50.

(4) فيرو شارل، المرجع السابق، ص 236.

(5) ابن يوسف محمد الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم ق البوعبدلي و تعلي المهدي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر2007م، ص151.

- عدد قوات الجزائر[1]، وقوات الدول المتحالفة ضدها التونسية و الطرابلسية[2] والمغربية[3]، عام 1700م.

الدول / العدد	المغرب الأقصى	الجزائر	تونس	طرابلس الغرب
عدد الفرسان	50000	1000	4000	1500
عدد الجنود الراجلين	/	6000	18000	/



التمثيل البياني لأعداد القوات المختلفة المشاركة في المعركة

نلاحظ أن جيش الجزائر كان أقل عددا من جيوش الدول المتحالفة ضدها، حيث كان يتألف من 6000جندي و 1000فارس، وهذا العدد خاص بالحملة ضد المغرب، و كان يتشكل من نفس العدد تقريبا عند خوض المعركة الأولى ضد تحالف الشرق الذي تشنه إيّالتي تونس وطرابلس، فقوات تونس تتشكل من 18000جندي و 4000 فارس و طرابلس يبلغ جيشها 1500 فارس، هذه الجيوش مجتمعة، حقق الجيش الجزائري عليها نصرا كبيرا، حيث تحمس جند الجزائر بمعنويات مرتفعة للانتصار على جيش المغرب وكانت الغنائم و تأديب ملك المغرب من أولى اهتماماتهم رغم عدده الضخم المقدر بـ 50000فارس، كما تأكده جُلّ المصادر إذ لم تذكر أمر الجنود المشاة، فقد انتصر عليه م الداي مصطفى انتصارا ساحقا، وهكذا كانت الجزائر تتعرض لمثل هذه التحالفات للنيل منها، ولكنها تخرج منها منتصرة.

---

(1) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص ص26- 27.

(2) المجموعة 3190، المصدر السابق، ورقة 53.

(3) Plantet (E), Correspondance des Deys D'Alger avec la cour de France, T2, (1700-1830), Paris, 1889, p10.

يعترضنا سؤال ملح قبل الخوض في تفاصيل المعركة، وهو: لماذا لم تبعث الجزائر بالنجدة العسكرية لفكّ الحصار الطويل عن مدينة قسنطينة منذ هزيمة الباي علي خوجة، فهل كانت هناك مسائل أهم من القضية؟ أم أنّ الجزائريين لم يكونوا يعيرون اهتماما للباي المرادي وظنوا بأنه سيرحل بعد استعصاء المدينة عليه؟ أم أنّ سلطة الجزائر بدأت في مرحلة الضعف و الانحلال؟ إنّ الأحداث التي سنسردها لاحقا كفيلة بالإجابة.

بعد تلاحم القوات في المكان المذكور سابقا،كان النصر يلوح في الأفق لصالح الإنكشارية الجزائرية؛ حيث أنّ بوادر هذا النصر جعلت من الباي خليل الطرابلسي يتراجع إلى الوراء، لكون المعركة لا تعنيه بالدرجة الأولى أكثر مما يعنيه الانتقام و الغنائم، وتمادى الجيش الجزائري في قتل التونسيين؛ حيث فرّ الباي مراد إلى الحدود التونسية يجر أذيال الهزيمة و كبرياؤه قد مُرّغ في تراب المعركة [1]. وهكذا حددت هذه التحالفات غير المبنية على القضايا العادلة مصير المعركة مسبقا. فهل سيتعض الباي من النكبة التي حلت به، خاصة و أنّ عدد قتلى المعركة فيها كان عظيما وفاق كل التصورات، أمّا الأسرى فقد بلغ عددهم ألفي أسير تونسي[2].

عاد جيش الجزائر من حيث أتى وقائده الداي مصطفى مرفوع الرأس، متوجاً بنصر كبير. وأراد الداي إكمال نشوة انتصاره على الجار المغربي، الذي امتنع عن دفع الضريبة ودخوله في محالفات مع باي تونس للفتك بالجزائر هو الآخر. وكان جيش الجزائر آنذاك يتألف من ستة آلاف من الجنود المشاة، وألف فارس وبالمقابل كان جيش المغرب يتكون من خمسين ألف فارس، هذه القوة لم تغن عنهم شيئا، فقد انتصر الداي مصطفى عليهم في معركة دامت قرابة أربعة ساعات، قتل خلالها ثلاثة آلاف من المغاربة وغنموا خمسة آلاف من خيلهم[3].

بعد تسجيل الانتصار الأول على الطرابلسيين و التونسيين كان مفتاحا للانتصار على المغاربة، ومكّن الداي مصطفى من ممارسة سلطته دون إزعاج أو قلق كبيرين من الإنكشارية لمدة خمس سنوات. و من أهم أعماله تنصيب أحمد بن فرحات بايا على بايليك الشرق(1700- 1703م)، وأوكل له مهمة القبض على الباي مراد، و أوصى الداي الباي أحمد بأن لا يدخر جهدا في أداء مهمته [4]، وقد نُصِّبَ خلفا للباي علي خوجة الذي أُستشهد أثناء حصار التونسيين للمدينة. وشهدت الجزائر خلال هذه الفترة انتشار وباء الطاعون الذي أتى على ما يقارب خمسة وأربعين ألف شخص، وبالرغم من هذه الأوضاع المأساوية إلا أنها لم تؤد إلى نهاية التوتر و أعتبرت فرصة سانحة ذلك لأن هناك من كان يريد الظفر بالسلطة في تونس، وعلى رأسهم إبراهيم الشريف[5].

---

(1) المجموعة 3190، المصدر السابق، ورقة53.

(2) هلايلي حنيفي، المرجع السابق، ص48.

(3) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص 27.

(4) De Grammont(H.D), Correspondance des Consuls, op. cit, p74.

(5) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص27.

2- وساطة الباب العالي1111هـ/1700م:

نرى أنّ الباي مراد الثالث بعد أن استفاق من صدمة الكارثة التي حلت به، يفكّر ثانية في الانتقام من الجزائريين، على الرغم من الوضعية السيئة للجيش ومعنوياته المنحطة؛ حيث أرسل ثلاث مراكب كبيرة لجلب الجنود من حكومة الباب العالي في إطار سياسة التجنيد المتبعة لإعادة ترقيع جيشه المنهار. فهل ستمده الدولة العثمانية بما يريد؟ خاصة وأنها تعلم حالة الحرب بين الإيّالات.

بعث الباي مراد الثالث على رأس هذا الوفد الطالب لعدد من الجند، آغا الصبايحية إبراهيم الشريف التركي[*]، و عندما وصل هذا الوفد إلى اسطنبول تزامن مع وصول وفد أرسلته الجزائر للغرض نفسه، و التقى الوفدان هناك في حضرة السلطان العثماني مصطفى خان الثاني(1695- 1703م)، حيث قام الأخير بشجب حالة الصراع بين الإيّالتين متسائلا عن الأسباب التي أدت إليها، عندئذ قرر إقامة الصلح وحَمَّلَ الوفدين على قبول الوساطة[1]، وأمرهما بالرجوع إلى بلديهما مصحوبين بفرمانات من شأنها إنهاء حالة التوتر بصلح يرضاه الجانبين [2]. غير أن الباي مراد لم يقبل بهذا الصلح [3]، وتجرأ على عصيان أوامر الدولة العثمانية، ما دامت لم تستجب هي لطلبه وهو أمر ليس بغريب عن طباع شخصية هذا الباي.

نستنتج أنّ من أسباب رفض الباي التونسي للصلح هو عدم تلقيه لهزيمة ساحقة تنهي حكمه، فأغترّ بنفسه لأنّ الجيش الجزائري اكتفى بطرده من التراب الجزائري فقط، ولم يلحق به داخل التراب التونسي، مما فسح له المجال لإعادة الكَّرَة مستقبلا، كما أنّه كان يمتنع عن الاعتراف بسلطة داي الجزائر عليه، فضلا على تعديه على ممتلكاتها وترابها وهذا ما لم يقم به أي باي تونسي قبله، وفي الوقت نفسه لم يكن يعلم أنّه نتيجة لسياسته الحمقاء، سيكون آخر البايات المراديين الذين حكموا تونس منذ عام 1631م، و أن كبرياؤه ستوصله عاجلا أم آجلا إلى طريق مسدود ستكون نهايته فيه.

لم يكن رفضه هذا سخطا عليه من طرف السلطان العثماني و داي الجزائر فحسب بل حتى من المقربين إليه و بذلك يكون قد فتح على نفسه جبهة أخرى هو في غنى عنها، يمثل هذه الجبهة آغا الصبايحية إبراهيم الشريف التركي، مبعوثه إلى الدولة العثمانية سابقا، وهكذا اتسع الرقع على المخيط، ولم يستطع هذا الباي أن يتحكم في زمام الأمور، وبدأ الآغا بالتخطيط للتخلص منه في أول فرصة تسمح له بذلك.

(*) يقال أنه من جند الجزائر القادم مع ابن شكر، تخلف عنهم وثبت في جند مدينة تونس في عهد محمد باي المرادي، حتى ترقى إلى منصب الآغا في فترة حكم الباي علي. أنظر: المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص113.

(1) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص113.

2) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 14.

(3) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص113.

3- حكم إبراهيم الشريف و استئناف الحرب ضد الجزائر1702-1705م:

اقتنع إبراهيم الشريف بأن رفض مراد باي الثالث للوساطة العثمانية، هي بداية نهاية حكمه التي ستكون على يده؛ إنّ هذه النهاية كانت نتيجة حتمية لأطماع هذا الباي، ففي محرم 1114هـ / 1702م، خرج من عاصمته على رأس المحلة، بغرض جمع الضرائب كالعادة وتحت إمرته جيش أُعد خصيصا لحرب الجزائر، إذ كانت هدفه المنشود و وجهته وما أَمْرُ جمع الضرائب إلا أمرا ثانويا؛ فقد عقد العزم بمجرد وصوله إلى آخر مضارب القبائل القاطنة في غرب البلاد مع الحدود الجزائرية أن يعبرها إلى التراب الجزائري، ضاربا بذلك جهود الباب العالي لإقامة الصلح عرض الحائط و واضعا الحرب كحل وحيد مُرجِعًا الأمور لنقطة البداية.

فتك إبراهيم الشريف بمراد باي الثالث حينما كان بوادي الزرقاء قرب مدينة باجة و أَرْدَاهُ قتيلا، ومن الروايات التي تؤكد هَوَسْ إبراهيم بالسلطة في تونس رغم أنّه لا يَمُتْ بصلة للأسرة المرادية الحاكمة وليس له الحق في ذلك، فقد أوعز له السلطان العثماني مصطفى بضرورة التخلص من الباي مراد الثالث لرفضه الصلح[1]، وبما أنّ للباي أقارب من أبناء عمومته سارع إبراهيم الشريف إلى قتلهم، وعددهم أربعة وبذلك انتهى حكم الأسرة المرادية بتونس[2]، وطويت صفحة من صفحات الصراع الحالك على السلطة بالإيّالة. فيا تُرى أَبِنِهَايَةِ حكم هذه الأسرة التي كانت وراثيا ينتهي الصراع بين الإيالّتين الجزائرية والتونسية؟ أم أنّ الصراع سيستمر؟

استلم إبراهيم الشريف قيادة المحلة بعد هذه الواقعة، بل و حكم الإيّالة التونسية،كما باركت الدولة العثمانية هذا التتويج بتتويج آخر حيث أصبح إبراهيم يحمل لقب باي، داي، باشا، وأبقت منصب الدايات الذي كان شكليا[3]، إنّ اعتلاء هذا الباي عرش تونس قد دشّن عهدا جديدا في الصراع القائم ليس مع إيّالة الجزائر فقط وإنما حتى مع إيّالة طرابلس.

على الرغم من أن الحرب مع طرابلس لا تخص الجزائر، إلا أنها تعد ضمن مشروع إبراهيم الشريف لقطع التدخل الخارجي في شؤون تونس من أي طرف كان؛ فالداي مصطفى عقد صلحا مع باي تونس قبل اندلا ع المواجهة بين تونس وطرابلس وكان ذلك، عام 1114هـ /1702م[4]، مع العلم أن المصادر التونسية لم تذكر هذا الصلح لا من بعيد ولا من قريب، ربما لسبب أنّ فترة حكم هذا الباي كانت قصيرة و صعبة جدا لإتسامها بطابع المواجهة الدائمة مع الجيران.

---

(1) هلايلي حنيفي، المرجع السابق، ص48.

(2) مقديش محمود، المصدر السابق، مج2، ص148.

(3) الوزير السراج محمد بن محمد الأندلسي، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم و تحقيق الهيلة محمد الحبيب، ط 1، مج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت1985م، ص695.

(4) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص27.

3.أ–أسباب حرب تونس ضد طرابلس الغرب :

تكاد تكون هذه الحرب جزءاً من الصراع الدائر بين الإيّالتين الجزائرية والتونسية؛ ذلك أنّ السرعة التي عبأ بها ابراهيم الشريف جيشه و توجيهه لهجوم خاطف على طرابلس، كان هدفه التفرغ لحرب الجزائر. وبالعودة لأسباب الحرب التونسية الطرابلسية، نجدها تكاد تتعلق إلى حد كبير بسلوكيات باي طرابلس خليل الأرناؤوطي، ومن أهمها: أنها قد مرت عليه خَيْلٌ أصيلة تعجب من رآها، كان قد أرسلها والي مصر يومئذ إلى تونس، بَيْدَ أن مرورها بأرض طرابلس أدت إلى استيلاء خليل عليها، كيف لا وهو الذي دخل في حروب من أجل الغنائم، وها هي الغنائم اليوم تحل بأرضه دون أن يحرك ساكنا، و عليه طلب منه إبراهيم الشريف أن يرجعها له، ولكن خليل رد عليه بالرفض القاطع، بل وزاد على ذلك بأسلوب جارح من الكلام غير المقبول [1]. وهناك سبب آخر لا يقل أهمية عما ذكرنا وهو أن البحرية الطرابلسية كانت عند قيامها بتفقد بعض مناطقها البحرية قد لمحت سفينة تونسية حيث توجهت صوبها و استولت عليها، و هذه السفينة كانت تقتاد سفينة أخرى على متنها ثلاثين أسيرا نصرانيا و بضائع ثمينة وعتاد حربي مهم[2].

يُضاف إلى ذلك سبب آخر مهم و هو كره باي تونس إبراهيم الشريف لخليل الطرابلسي؛ بسبب مشاركة الأخير للجزائريين في حرب تونس أيام حكم الباي محمد المرادي، و حصوله على غنائم كبيرة من تونس رغم قلتها مقارنة بالغنائم التي حصل عليها الداي شعبان في الواقعة نفسها، على الرغم من أنّ خليل نفسه قد شارك مراد الثالث في معركته ضد الجزائر، ولم يُبْدِ خلالها حزما كبيرا في مقاتلة الجيش الجزائري.

ونجد من جهة ثانية أنّ خليل الأرناؤوطي يكره إبراهيم الشريف كذلك، نظرا للمودة التي كانت بينه وبين آخر الحكام المراديين لذا فقد بدأ في استفزاز و إثارة حفيظة إبراهيم الشريف، وتركه يفكر في الانتقام ليكون هو البادئ بالحرب[3]. ومما يشاع دائما أن هذه الحرب كان للجزائريين ضلع فيها؛ ذلك أن الداي كان قد وعدهما كل على حدا، بتقديم المساعدة و إغرائهما ببعضهما بعض؛ حيث أرسل أحد المنفيين و هو عثمان قهواجي من الحكام السابقين لطرابلس كان بالجزائر يومئذ لإبراهيم الشريف انتقاما من خليل و بعث معه مركبين لجلب القمح [4]، حيث استجاب إبراهيم الشريف لذلك و بعث لهم مائتي قنطار قمح [5]، و نستنتج مما تقدم أن داي الجزائر كان متحالفا مع باي تونس ضد طرابلس.

---

(1) فيرو شارل، المرجع السابق، ص 246.

(2) مقديش محمود، المصدر السابق، مج2، ص150.

(3) ابن أبي الضياف أحمد، المصدر السابق، مج1، ج2، ص82.

(4) مقديش محمود، المصدر السابق، مج2، تهميش ص151.

(5) الوزير السراج المصدر السابق، مج 2، ص697.

3.بـ–مجرياتها:

لم يُفَوِّت إبراهيم الشريف تَجرء خليل الأرناؤوطي عليه، وعندما تحين له أوّل فرصة للإنتقام منه سوف يغتنمها، و هكذا دعا إبراهيم الشريف ديوان تونس لعقد جلسة، من أجل النظر في قضية طرابلس بإعلان الحرب عليها، فوافق الديوان بأغلبية ساحقة على مشروع الحرب هذا، وكان إبراهيم الشريف قد طلب معونة من حكومة الجزائر التي وعدته بالمساعدة – خصوصا وأنّه هو من قتل الباي مراد – مقابل إمدادها بمادة القمح لأنّ الجزائر كانت تجتاحها موجة جفاف وقحط كبيرين[1]، وعليه جهز جيشه وانطلق مسرعا نحو طرابلس، في جمادى الثانية 1116هـ/ ديسمبر1704م، و استعد خليل لملاقاة الجيش التونسي بمسافة غير بعيدة خارج مدينة طرابلس في الوقت الذي كان فيه جيش العدو على بُعْدِ سبعين كيلومترا تقريبا منها، وتكون بذلك قد مرت قرابة الشهرين على مغادرة الجيش التونسي، ولم يصل بعد إلى مدينة طرابلس، ونلاحظ أن هذه المدة طويلة نوعا ما وربما يكون مبالغ فيها.

قيل أن اتخاذ قائد الجيش الطرابلسي لهذه الإجراءات، كان دليل على أنّ قواته كانت ضعيفة مقارنة بقوات خصمه لذا زاد من طلب مساعدة الأعراب له ومعاونيه من إقليم بنغازي. بعد اقتراب المحلة التونسية؛ أرسل باي تونس رسائل تهديد لأهالي المدينة يحثهم فيها على الانضمام إليه وترك طاعة خليل وإلا سيفتك بهم، ولكن هذه الإنذارات أتت بنتائج عكسية وزادت من حرص الأهالي على الاستماتة في الدفاع عن مدينتهم. ومهما كان أمر التهديد فإنّ لقاء الجيشين بالقرب من طرابلس قد وقع، ولم يمض إلا زمن يسير حتى تشتت جيش خليل، الذي فقد كل أمتعته و رجع قافلا إلى المدينة ليتحصن خلف أسوارها ويدافع عنها [2]، بعد أن خلّف وراءه ألفين بين قتيل وأسير مناصفة في جولة واحدة لا تساوي ساعة من نهار ذلك اليوم العصيب[3].

ضربت المحلة التونسية حصارا شديدا على طرابلس، لمدة أربعة وثلاثين يوما، وما حدث خلالها من أعمال النهب والسلب من طرف أفراد كثيرين منها زاد من لُحْمَةِ الإتحاد حول خليل للدفاع عن المدينة، رغم الإجراءات التي باشرها الجيش التونسي بحفر الخنادق و التقدم كل يوم صوب المدينة و إحداث فجوات في جدرانها. و مما زاد من تكاتف الطرابلسيين و التحامهم هو تمادي التونسيين في قطع النخيل، و إتلاف المحاصيل الزراعية، و التعدي على أعراض الناس و ممتلكاتهم؛ إذ كانت هناك مناوشات كبيرة بين الأهالي والجيش التونسي، أظهر خلالها سكان المدينة شجاعة منقطعة النظير، كانت لخدمة الباي خليل الأرناؤوطي أكثر مما تخدم مصالحهم، وهذا شأن جل الرعية في تناسي ظلم الحكام والدفاع عنهم في حالة الخطر المشترك[4].

---

(1) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 153.

(2) فيرو شارل، المرجع السابق، ص 250.

(3) مقديش محمود، المصدر السابق، مج2، ص151.

(4) فيرو شارل، المرجع السابق، ص248.

و يجب أن نشير هنا إلى أنّ حادثة رفض مراد باي السابق لعرض الوساطة العثمانية مع الجزائر، جعل إبراهيم الشريف يَأْسِرها في نفسه ويضمر الشر لسيده للانتقام منه، هذه الحادثة تكررت مع إبراهيم الشريف نفسه؛ ذلك أنّه عندما كان يضرب الحصار على طرابلس عرض عليه أهلها الصلح ودفع تعويضات الحرب وإطفاء نار الفتنة بواسطة أحد أغوات فرسان جيشه، رفض الباي هذا العرض رغم سخائه، وقد أثر هذا الموقف المتعنت في نفس الآغا المدعو حسين بن علي التركي [*] وتركت في نفسه حاجة، وبذلك عزم على الانتقام من الباي ريثما تحين له الفرصة ليظفر بعرش تونس[1]، كما فعل سيده بآخر الحكّام المراديين.

رفض الباي طلب الصلح، وعندها تواصل القتال أكثر مما كان عليه، ولم يستطع أيّ الفريقين إلحاق الهزيمة بالآخر؛ فالجيش التونسي كان مسلحا جيدا وعدده كبير؛ كما أن معنوياته مرتفعة، مقارنة بجيش خليل قليل العدد لولا حصانة أسوار المدينة التي ساعدته في الصمود لفترة طويلة و همه الوحيد كان الدفاع عن عاصمة ملكه، وإلا سيكون في عداد المنهزمين على أقل تقدير.

لم يظهر أيّ تدخل للجزائر بإيّالة تونس؛ ذلك أنّه ضَرْبٌ من الخيال أن تبقى الجزائر طيلة هذه الفترة تجهز نفسها للانقضاض على تونس. فصاحب الحوليات الليبية يذكر أن مدة سفر المحلّة التونسية لضرب طرابلس بلغت 20 يوما ومدة الحصار كانت 34 يوما فليس من المعقول أن تبقى الجزائر طيلة هذه الفترة تحضر نفسها، ولو أرادت ذلك لأمكن لها في بضع أيام فقط، ما دامت فرصة عدم وجود قوات كافية للدفاع عن تونس متاحة حتى تسيطر عليها. إنّ قيام الداي مصطفى بمهاجمة تونس كان بِناءًا على علمه المسبق بعزم إبراهيم الشريف على مهاجمة الجزائر ومنعه إمدادها بشحنات كبيرة من القمح مقابل مساعدته في حربه المزعومة[2].

فك الجيش التونسي الحصار على مدينة طرابلس؛ بسبب تفشى وباء الطاعون في أوساطه، مما جعل العديد من أفراده يفرّون من ساحة المعركة، وقد نجا منه عدد قليل، كما أن قبيلة المحاميد الكبيرة استطاعت أن تحشد قبائل أخرى معها وكاتبت الباي خليل، بأنها ستنفذ هجوما كاسحا على الجيش التونسي؛ حيث اتفقت معه على الوقت المحدد لذلك، إلا أنّ هذا المبعوث وقع بيد الشريف الذي قتله وعندما تيقن من تراص الصفوف الطرابلسية أمر بفكّ الحصار والعودة إلى تونس[3].

(*) هو الأمير حسين بن علي تركي ولد في 1080هـ / 1669م بجزيرة كريت، وفد إلى تونس في زمن مضى، تقلد في مناصب عدة آخرها كاهية الباشا إبراهيم الشريف، قبل أن يصبح بايا على تونس، يعد مؤسس حكم الأسرة الحسينية عام 1705م توفي عام1153هـ/ 1740م، أنظر السنوسي أبي عبد الله محمد بن عثمان ، مسامرات الظريف بحسن التعريف، تحقيق و تعليق النيفر محمد الشاذلي ، ج 1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1994م، ص ص 88- 92.

(1) فيرو شارل، المرجع السابق، ص 249.

(2) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 153.

(3) فيرو شارل، المرجع السابق، ص 250.

3.ج- نتائج حرب تونس ضد طرابلس:

تمخض عن المعركة والحصار التونسي لمدينة طرابلس نتائج هامة نوجزها في النقاط التالية:

1- مقتل أكثر من ألف جندي من جيش طرابلس، و أسر عدد آخر أكثر من ذلك.

2- ضياع جزء من خزينة خليل الأرناؤوطي، وعتاد حربي منه مدفعين نحاسيين، و ثماني رايات طرابلسية.

3- تخريب أجزاء واسعة من مدينة طرابلس، وإتلاف البساتين المحيطة بها.

4- تزويد فرنسا لطرابلس بالعتاد الحربي، خوفا من عودة إبراهيم الشريف للحرب ثانية[1].

5- تسرب روح الانتقام لآغا الصبايحية حسين بن علي ضد إبراهيم الشريف[2].

6- القضاء على الفتنة بطرابلس، و تقلد خليل لقب الباشا دون الداي بعد وفاة حَمَاهْ الإمام محمد داي[3].

انتهت الحملة على طرابلس من دون تحقيق الهدف المنشود وهو التخلص من الباي خليل الأرناؤوطي، ذلك أن الأخير قد تمكن من الإنفراد بالسلطة أكثر مما كان يمثله سابقا؛ و أنّ هذه الحملة جاءت لصالحه و بقي على رأس الإيّالة، وليس كما كان يتمناه باي تونس. إنّ العامل الذي ساعد الباي خليل على ذلك ولم يساعد إبراهيم الشريف بل أدى إلى هزيمته هو تفشي وباء الطاعون. و مهما يكن الأمر، فإنّ نهاية هذه الحرب على الحدود الشرقية والجنوبية لإيّالة تونس لم تثن الباي إبراهيم على تفادي الدخول في حرب جديدة ربما سيكون هو الخاسر فيها حتما، طالما آثار حربه مع طرابلس لازالت واضحة للعيان.

رجع إبراهيم الشريف إلى تونس وقد جلب معه وباء الطاعون القاتل، و لما دخل مدينة تونس كان الوباء قد استشرى في المدينة وقيل أنّه كان يفتك بسبعمائة شخص في اليوم [4]، وهناك من قال أنّ تونس فقدت من جراء هذا الوباء زهاء خمسة وأربعون ألفا من سكانها[5]، و لم تسلم منه حتى القنصليات الأجنبية رغم الاحترازات المتبعة لتفادي ضحايا أكثر. إنّ هذا الوباء لم يمنع الجزائريين من القدوم إلى تونس للفتك بالباي إبراهيم الشريف؛ ذلك أن الوباء كان قد انتشر في كل ربوع الإيّالات العثمانية المغاربية تقريبا.

---

(1) مقديش محمود، المصدر السابق، مج2، ص151.

(2) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 154.

(3) فيرو شارل، المرجع السابق، ص151.

(4) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص114.

(5) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص155.

4- حرب إبراهيم الشريف ضد الجزائر1117هـ / 1705م:

لوحظ بعد نهاية هجوم إبراهيم الشريف على طرابلس، أنّ الرجل لم يفكر في أمور البلاد، بل كان همه الوحيد هو قتال الجزائريين، فنراه بعد عودته من حملته على طرابلس يبدأ باستعداداته لخوض الحرب. و بالمقابل اكتشف الداي مصطفى مؤامرة إبراهيم الشريف مع باي طرابلس للفتك بالجزائريين عندما سينزلون بساحل طرابلس للهجوم عليها حسب تحالفهم المزعوم مع باي تونس سابقا[1]، كما كانت خزينة الجزائر قد بدأت في النفاذ لعدة أسباب منها:

أ- تفشي وباء الطاعون الذي أهلك أعدادا كبيرة من الأهالي.

ب- تدهور عمليات الجهاد البحري التي كانت من أهم مصادر تمويل الخزينة؛ فقد اتضح أن العقد الأول من القرن الثامن عشر ميلادي شهد انخفاضا كبيرا للغنائم البحرية[2].

جـ- تزايد عدد الجند أثناء تصدي الجزائر لتآمر طرابلس و تونس والمغرب عليها، مما أدى إلى عجز في تسديد الرواتب التي كانت عبئا ثقيلا على الخزانة العامة.

د- حلول موسم جفاف بالجزائر أدى إلى تدني الإنتاج خاصة في مادة القمح.

هـ- امتناع إبراهيم الشريف عن دفع الأداءات المالية للجزائر التي أقرّها في الصلح السابق، و أدت لاعتلائه الحكم.

أعلن الداي مصطفى الحرب على تونس، وتوجّه على رأس محلته صوب الحدود الشرقية للإيّالة [3]؛ حيث وصلت أنباء المحلة مسامع إبراهيم الشريف الذي كان جيشه منهك بسبب حرب طرابلس و وباء الطاعون الذي قضى على عدد كبير منه[4].

سارع باي تونس إلى تحصين مدينة الكاف بوضع حامية بها مؤلفة، من 700 رجل تحت قيادة أخيه محمد تفاديا للخيانة. و خرج هو في غرة سنة 1117هـ / 22 أفريل 1705م، على رأس جيشه لمقاتلة المحلة الجزائرية ولكن أخبار غير سارّة وصلت الباي، عندما علم بأن المحلة ضخمة و يقودها الداي مصطفى نفسه، خاصة و أن الفترة الممتدة من بداية توتر العلاقات إلى نهاية حرب طرابلس كانت كافية لإعداد العدة[5].

---

(1) وولف جون، المرجع السابق، ص373.

(2) مروش لمنور، المرجع السابق، ص 374.

(3) ابن المفتي حسين، المصدر السابق، ص69.

(4) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص114.

(5) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 155.

4.أ– معركة الكاف الثانية 1117هـ/ 1705م:

التقى الجيشان بين مدينة الكاف والحدود الفاصلة بين الإيّالتين؛ حيث دارت المعركة هناك كما دارت معارك كبيرة في محيطها [1]، و بنفس الذهنية التي أوصلت إلى إشعالها، ولكن كان الزمن مختلفاً و أحوال الإيّالتين كانت سابقا أحسن بكثير مما هي عليه اليوم، فمن هم الملومين عنها، هل هم الأوائل، أم الظروف و الحاجة حتمت على هؤلاء اختيار سبيل الحرب؟ ومهما تكن الأعذار فإنّ المعركة على وشك أن تقع، فهل ستنتصر المحلّة الجزائرية، وتخضع تونس لإرادة الداي؟

اشتبك الطرفان بالموقع المذكور و بدت الأمور واضحة بتغلب الجيش الجزائري، و الملاحظ أنّ أسباب هزيمة التونسيين كانت متشابهة دائما وتتمثل في انحياز فرسان قبيلة أولاد سعيد لمحلة الجزائريين، وتبعتها قوات قبائل أخرى لا تقل قوة و بأسا عنها كقبيلة دريد الجبارة، و جزء معتبر من عدد قوات باي تونس النظامية التي اتبعت وزيره ابن فطيمة و انظمت إلى جانب أعدائه ، ورغم ذلك ظل ثابتا يدافع عن نفسه، وحكمه الذي لم يمض على بدايته وقت طويل؛ فحتى آغا الصبايحية تمرد عليه، وهو حسين بن علي سالف الذكر بسبب رفضه لعرض الصلح الذي بعث به الداي مصطفى معه [2]، والضغينة التي يحملها له منذ حصاره لطرابلس عام 1702م. عندما نصّب الجزائريون محلتهم على ضفاف وادي التين، أوفدوا ضباطا لإبراهيم الشريف لعقد الصلح بالشروط التي يطلبونها ومنها:

أ– دفع تعويضات الحرب والتعهد بمنح الجزائر ألف جَملٍ.

ب– أن يُسَلِمَهُمْ أولاده كرهنية لضمان تنفيذ الشروط.

جـ– تعهد الجزائر بالمقابل تسليمه رؤوس الفتنة في تونس[3].

لم يركن إبراهيم الشريف لهذه الشروط وحث أتباعه على مواصلة الحرب ولكن دون جدوى. غير أنّه في هذه المرة كانت الغنائم أكبر مما تصور الداي وجيشه؛ فقد تم أسر إبراهيم الشريف [4]. وطلبت الرعية من الداي أن تدفع له تعويضات مقابل عدوله عن مواصلة الحرب، بيد أن الداي كان يدرك أن هذه الغنائم لن تكفي وحدها لسد متطلبات أمور الجيش وعجز الخزينة، لذا رفض وقرر مواصلة الحرب[5].

---

(1) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص 28.

(2) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص114.

(3) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص156.

(4) فيرو شارل، المرجع السابق، ص 251.

(5) خوجة حسين، المصدر السابق، ص16.

4.بـ- حصار الداي مصطفى لمدينة تونس1117هـ/1705م:

تحدى الداي مصطفى أهالي مدينة تونس عندما طلبوا منه عقد الصلح، على الرغم من أنّ إبراهيم الشريف كان لديه بالأسر و لا حاجة له في استمرار الحرب، لذا قرر مواصلة زحفه نحو العاصمة تونس [1]، و عندما حلّ بالقرب منها ضرب عليها حصارا خانقا، ولكن سكان هذه المدينة كانوا قد جمعوا من المؤن ما يكفيهم للصمود مدة طويلة، و أجمعوا على مبايعة الآغا حسين بن علي بايا للبلاد و قائدا عاما للمحال، للقيام بعملية تنظّيم شؤون الأهالي للدفاع عن المدينة[2].

بقي حصار الداي مصطفى للمدينة مدة أربعين يوما كاملة، تكبد التونسيون خلالها خسائر كبيرة كما خسر الجزائريون حوالي700 جندي، ولعل عجز الداي عن اقتحام المدينة جعله يطلب الصلح من أهاليها، غير أنّ موقفهم كان قويا على عكس موقف الداي، وبذلك كان من الطبيعي أن يرفضوا طلبه، وكان أجدى به أن يغادر أو أن يبحث عن طريقة يقتحم بها المدينة خير له من استعطافهم وإظهار ضعفه لهم؛ فهؤلاء لم يكتفوا بالرفض بل اشترطوا عليه هذه المرة أن يدفع لهم تعويضات الخسائر التي لحقت بهم. وعليه اضطر الداي إلى رفع الحصار، تاركا خلفه بعض عتاده الحربي، ليخفف من سرعته، وفي طريقه تعرض إلى مناوشات من القبائل، أمّا جيشه فكان في حالة يرثى لها من الجوع والتعب، و حتى خيله [3]. يروي ابن المفتي أن سبب فك الحصار كان بفعل دسائس حسين بن علي وشيخ العرب بوعزيز، عندما نصحه بالمغادرة وإلا سيفنى جيشه عن آخره، إن بقي محاصرا للمدينة [4]، و هناك سبب آخر هو مهاجمة الفرنسيين للجزائر وقتلهم لـ 800شخص[5]. إلا أننا لم نجد هذا الحدث الأخير في المصادر.

شعر هذا الداي بمصيره مسبقا بعد فشله في السيطرة على تونس، كما كان مصير دايات قبله، فقد اختبأ بمنزل له في الريف، ولطالما انتظر رجال الديوان الغنائم التي سيعود بها الداي لذا نجدهم يسارعون إلى تعيين داي جديد مكانه، وهذا بعد قتل الداي مصطفى، وإطلاق سراح إبراهيم الشريف الذي تعهد لهم بإرسال مائة وخمسين بياسترا. لم تكن ثقة الجزائريين فيه عمياء فقد ترك عائلته مرهونة هناك ويكون بذلك قد أذعن إلى الشرط السابق الذي اشترطه الداي مصطفى، غير أنه في هذه المرة سيجد الأمور تغيرت؛ ذلك أن غريمه حسين بن علي كان قد استأثر بالسلطة بعد أسره[6].

---

(1) De Grammont(H.D), Correspondance des Consuls, op. cit, p104.

(2) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص115.

(3) الوزير السراج، المصدر السابق، ص245.

(4) ابن المفتي حسين، المصدر السابق، ص69.

(5) سامح ألتر عزيز، المرجع السابق، ص 454.

(6) ابن عبد الكريم محمد، المرجع السابق، ص 29.

بدت طموحات داي الجزائر الجديد حسين خوجة كبيرة في الحصول على الأموال، التي وعد بها إبراهيم الشريف، و اعترافه بسيادة الجزائر عليه، و لكن سرعان ما تبخرت هذه الآمال المعقودة، بعد نزول الأخير بالأراضي التونسية حيث اعترض طريقه جند حسين بن علي وألقوا عليه القبض وتم قتله بالقرب من مرسى غار الملح [1] و يكون الباي قد سلك طريق البحر للوصول بسهولة إلى العاصمة تونس، لأنّه لو دخل من جهة مدينة الكاف فإنّه لن يستطيع بلوغها، لطول المسافة و صعوبة تضاريسها وكثرة أعدائه خاصة القبائل، التي وقفت إلى جانب الجزائريين في المعركة؛ لأن موقف الجزائر هنا قد تغير تجاه هذا الشخص غير المرغوب فيه، من طرف أهالي تونس، والمحسوب على الدولة العثمانية.

خلف مقتل هذا الباي بعد أن بقيت دولته قرابة الثلاث سنوات نتائج كثيرة، و كانت فترة حكمه مرحلة انتقال بين حكم الأسرتين المرادية والحسينية بإيّالة تونس[2]. ومن أهم النتائج نذكر:

أ- بداية حكم الأسرة الحسينية عام 1117هـ/ 1705م، باعتلاء حسين بن علي عرش تونس.

ب- عزل حسين خوجة عن الحكم كداي للجزائر، بعد فشله في إعادة إبراهيم الشريف إلى الحكم على رأس الإيّالة التونسية. وعليه فقدت الجزائر أموالا كثيرة، لعلها تُسكت أفراد الإنكشارية وأعضاء الديوان.

ج- اعتلاء الداي محمد بكداش حكم الجزائر في 29 من ذي الحجة 1118هـ/1706م[3]، ويقال أنه بدأ حكمه في مطلع سنة 1707م، و حكم من بعده علي باشا شاوش(1711- 1718م)[4]، الذي استهل حكمه بإلغاء منصب الباشاوية؛ لأنه يمثل رقابة الدولة العثمانية لحكّام الجزائر، منذ نهاية عهد الباشاوات وبداية حكم الأغوات سنة 1659م[5].

خرجت الجزائر للتو من حربها ضد الباي إبراهيم الشريف، فهل ستكون نهاية حكم هذا الباي، هي نهاية الصراع؟ أم أنّ الحكّام الجدد سيخوضون حربا جديدة لا تقل ضراوة عن سابقتها.

---

(1) المدني أحمد توفيق، محمد بن عثمان، المرجع السابق، ص 66.

(2) هلايلي حنيفي، المرجع السابق، ص 48.

(3) ابن ميمون محمد الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم و تحقيق ابن عبد الكريم محمد، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر 2007م، ص139.

(4) بوعزيز يحي، الموجز، مرجع سابق، ص ص 395- 396.

(5) ابن حمادوش عبد الرزاق الجزائري، رحلة ابن حمادوش (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال)، تقديم و تحقيق سعد الله أبو القاسم، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر 2007م، ص120 .

الفصل الثالث

مظاهر الصراع بين الإيّالتين الجزائرية والتونسية

1117هـ/1705م– 1246هـ/1830م

أولا– الفتنة الحسينية الباشية وتدخل الجزائر1726– 1756م

ثانيا– سياسة علي باي الحسيني وابنه حمودة باشا ضد الجزائر و تداعياتها 1759– 1821م

ثالثا– موقف إيّالة تونس من احتلال فرنسا للجزائر1825– 1830م

يظهر للمتتبع للشأن التونسي فيما يخص التقاتل على السلطة و معاداة إيّالة الجزائر وحتى إيّالة طرابلس الغرب، هو من سمات حكّام الأسرة المرادية التي انقضى حكمها مع مطلع القرن الثامن عشر ميلادي، ولكن ما قام به الكاهية ابن شكر و من بعده إبراهيم الشريف اللّذين لا يمتان بصلة للأسرة الحاكمة، على الرغم من قصر فترة حكمهما ينفي هذا الاتجاه. بل يثبت لنا مرة أخرى بأن للأمر أسباب متعددة؛ و كأنّ التقاتل على السلطة في شمال إفريقيا بين الأشقاء و الإخوة في الإسلام هو قدر محتوم، فالظاهرة ستكون الحدث البارز في القرن الثامن عشر ميلادي بإيّالة تونس.

انتقل الحكم من الأسرة المرادية إلى الأسرة الحسينية، وكان حكم إبراهيم الشريف هو الفاصل بينهما، فقد استقرت الأوضاع لفترة غير يسيرة، والتزم الباي حسين بن علي بدفع الأموال للجزائر، وبمرور عقدين من الزمن انقسم البيت الحسيني على نفسه، نتيجة سياسة خاصة كان قد اتبعها مؤسس حكم هذه الأسرة، مما فسح المجال للجزائر بالتدخل ثانية في شؤون الإيّالة التونسية بطلب من الباي المذكور مقابل أداءات مالية كذلك أقر زيادتها لدايات إيّالة الجزائر، ولكن هذه السياسة لم تكن لتنفع هؤلاء الحكام شيئا بل بالعكس تماما، فكان حكمهم يقوم على الحماية التي يوفرها لهم الآخرين.

أفضت هذه التدخلات لإيجاد مصدر مالي شبه قار لخزينة دايات الجزائر و جيشها، والتي بدأت منذ فترة في النضوب، لتراجع عائدات النشاط البحري بعد الضعف الذي أصاب المؤسسة البحرية، من جراء الضغوط الأوربية وكذا تخلي بعض القبائل الجنوبية على دفع الضرائب في حالة العصيان، لذا كان على حكام الجزائر السعي لتأمين الأموال من أيّ جهة كانت لجنود الإنكشارية التي تسهر على حماية الحدود الكبيرة للإيّالة، وإلا سيكون الأمر محسوما بالنسبة لبقاء هؤلاء على رأس السلطة.

ظهرت في هذه الفترة عوامل أخرى خارجية أدت إلى استمرار الصراع بين الإيّالتين، تتمثل في التدخلات الأجنبية المساندة لحكّام إيّالة تونس ضد إيّالة الجزائر بسبب تراجع الدور الريادي للجزائر في البحر الأبيض المتوسط بداية من القرن الثامن عشر ميلادي و الرغبة في النيل من مكانتها وتحجيم دورها في المنطقة. ولم تكن هذه الأمور جديدة بل كانت موجودة ولكنها غير ظاهرة للأسباب نفسها التي ذكرناها سابقا. ومنه يحضر لدينا سؤال مهم:إلى أي مدى ساهم التقاتل على السلطة في تونس بعودة الصراع بين الإيالتين الجزائرية و التونسية؟

أولا– الفتنة الحسينية الباشية[1] و تدخل الجزائر1726 – 1756م:

لم تكن هذه الفتنة إلّا أزمة واحدة من الأزمات التي عصفت بتونس، وكان المتسببون فيها كُثُرْ؛ ذلك أن سياسة حسين بن علي هي التي أدت إلى هذا الوضع؛ فقد كان آخرها قصف الأسطول الفرنسي لمدينة تونس و إرغام الداي على إمضاء الاتفاقية. بالإضافة إلى سعي الدول الأوربية لدى الدولة العثمانية لإرغام حكّام الإيّالات على الاستجابة لمطالبهم الكثيرة، و خاصة منها المتمثلة في إيقاف عمليات الغزو البحري التي أضرت بالتجارة الأوربية في عرض البحر الأبيض المتوسط.

ظهرت الفتنة بسبب تعيّين حسين بن علي التركي، لابن أخيه علي وليّا للعهد، قبل أن يولد له، وبعد أن رُزق بمولود، أزاح ابن أخيه عن ولاية العهد، 1139هـ/1726م[2]، فثارت حافظة الأخير وأعلن الثورة على عمّــه، و دامت هذه الثورة قرابة خمس سنوات. مما أدى إلى تدخل باي قسنطينة، حيث وقف إلى جانب حسين بن علي، و هرب علي باشا إلى الجنوب، ومن ثم غادرها إلى الجزائر طالبا للنجدة، وبقي بها خمسة سنوات مسجونا بإيعاز من عمه حسين، مقابل دفع عشرة آلاف سكة ذهب كل سنة. ولكن حسين بن علي تخـلّى عن دفعها و خلع طاعة داي الجزائر [3]، فثارت ثائرة الأخير، و قرر أن يطلق صراح علي باشا مقابل شروط تعهد بها، انتقاما من حسين بن علي على فعلته [4].

1– معركة وادي مجردة 1148هـ/ 1735م:

أمر الداي خزناجيه بمواصلة الحرب ضد التونسيين، بتوصيات من باي التيطري الذي توسط لعلي باشا لدى الداي مقابل أموال وعد أن يمنحها له في حالة عودته للحكم، و عليه تحركت المحلة باتجاه مدينة تونس، وعندما وصلت تمركزت على ضفاف وادي مجردة، حيث خرج حسين بن علي لملاقاتها، في شهر ربيع الأول 1148هـ/ أوت 1735م. وقد انضمت إليه قبيلة دريد و أولاد سعيد ومحلة ابنه محمد [5]. نلاحظ أن هذه القبائل كان لها دور فعال في المواجهة بين الإيّالتين؛ ذلك أنها لا تستقر على رأي واحد وإنما تتغير مواقفها، و غالبا ما تكون مع من كان أكثر جمعا لضمان الانتصار و الحصول على الغنائم.

---

(1) مقديش محمود، المصدر السابق، مج2، ص159.

(2) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص122.

(3) الزهار أحمد الشريف، مذكرات الشريف أحمد الزهار، تحقيق المدني أحمد توفيق، دار البصائر، الجزائر 2009م، تهمبش ص33.

(4) ابن المفتي حسين، المصدر السابق، ص72.

(5) ابن يوسف الصغير، المصدر السابق، مج2، ص ص84-87.

قاد المحلة الجزائرية صهر الداي إبراهيم خوجة الخزناجي، وحسين باي قسنطينة وعلي باشا التونسي، مما أعطى للجيش وزن ثقيل وثقة بالنفس[1]، التقى الجيشان في المكان المسمى (سمنجة)[2]، و اقتصر القتال في بادئ الأمر على مناوشات بين الطرفين دون تلاحم كبير، ودائما و في كل مرة انحازت القبيلتين السابقتين للجيش الجزائري، و من ثمّة حميَ وطيس المعركة، التي كانت مسألة حياة أو موت بالنسبة للباي التونسي، فإما التخلص من التبعية للجزائر أو بقائه تحت سلطتهم، و عليه زحف الجيش الجزائري على المحلة التونسية بغتة، بحيث كان الكثير من الجنود في حالة نوم، وبعضهم منشغل بأمور أخرى، و من ثم شتت الجيش الجزائري شمل المحلة التونسية [3]. وهناك عوامل كثيرة ساعدت الجزائريين على تحقيق هذا الانتصار منها:

أ – تخاذل القبائل التونسية لنصرة الباي حسين بن علي، كأولاد سعيد ودريد.

ب – قدوم المدد من الجزائر يتمثل في محلة ثانية، بقيادة حسين كيلاني[4].

ج – تفوق الجيش الجزائري عدة وعتادا.

د– اكتساب الجيش الجزائري للخبرة والسرعة مقارنة بالجيش التونسي الذي يفتقر إليها.

ه – انحياز الكثير من الأهالي الذين كانوا يكرهون حسين بن علي؛ لصف علي باشا.

إذن انهزم الجيش التونسي، و غادر حسين بن علي مدينة تونس مكرها إلى مدينة القيروان القريبة منها لعله يجد فيها ملاذا آمنا، ويقال أن علي باشا لم يرد اخراج عمه من العاصمة، ولكن العمّ أصرّ على الخروج، و كل ما سعى إليه الباشا أن تكون له قيادة المحال. ومهما كان الأمر فإنّ خروج العم حسين أدى إلى اشتعال نار الفتنة بينه وبين ابن أخيه، وتطورت الأمور إلى حد لا يطاق، وبذلك خرج علي باشا في عساكره يود إخماد الفتنة، ليس بقطع رؤوس المتسببين فيها بل بقتل عمه، وعليه ضرب حصارا على مدينة القيروان، انتهى في الأخير بمقتل الباي حسين بن علي، عام 1153هـ / 1740م، مؤسس حكم الأسرة الحسينية بإيّالة تونس قبل خمسة وثلاثين سنة قد خلت [5]. فهل ستنتهي الفتنة بهذا الحدث؟

---

(1) ابن المفتي حسين، المصدر السابق، ص72.

(2) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص122.

(3) ابن المفتي حسين، المصدر السابق، ص72.

(4) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 178.

(5) مقديش محمود، المصدر السابق، مج2، ص159.

2- حكم علي باشا ولجوء أولاد حسين بن علي إلى الجزائر:

تُوِّج الانتصار الذي حققه الجزائريون بتنصيب حاكم جديد على إيّالة تونس يساير سياستهم ولا يمنعهم الحصول على الأموال، و لم يُثنهم ذلك على مغادرة البلاد سريعا كما كان يحصل في المرات السابقة، فقد بقي الجيش الجزائري مُعَسْكِرًا حول مدينة تونس يراقب الأوضاع عن كثب، و يقال أن جنود الجزائر نهبوا أموالا كثيرة طيلة الأيام التي بقوا فيها هناك، كما ألحقوا أضرارا بالغة بالسكان و المدينة، وهي أمور تصاحب مثل هذه الأحداث في الكثير من الأحيان نتيجة الملل من طول الانتظار دون تحرك.

غنم الجيش الجزائري ما تقدر حمولته بخمسة وثلاثين بغلا، من الأموال التي وعد بها علي باشا إبراهيم الخزناجي، كتعويضات عن الحرب، بالإضافة إلى إتاوة مقدرة بخمسين ألف قرش عثماني، يدفعها الباي لحكومة الجزائر، بعد الهزيمة النكراء التي مُنِيَ بها حسين بن علي و أبنائه، يقال أن الأخير كان يعلم باتفاق إبراهيم الخزناجي مع الباي علي باشا على ضرورة قطع دابر مؤسس الأسرة الحسينية، و خاصة أنه لا يملك جيشا يقاتل به الباي الجديد ولا حلفائه الجزائريين[1].

يروي لنا أصحاب المصادر من خلال الأحداث أن الجزائريين كانوا يقفون مع من يدفع أموالا أكثر، و الذي يدفع الأموال هو حتما موافق على سيادتهم عليه. و نجد أن أبناء حسين بن علي بعد وفاته غادروا البلاد إلى الجزائر لحضرة إبراهيم الخزناجي الذي وقف ضدهم بالأمس، و كان سببا في مقتل أبيهم، حيث يُذْكَر أنه اعتذر لهم على ما بدر منه، و وعدهم بإعادتهم إلى عرش تونس، و بقي الإخوة هناك، و لكن الداي لم يوف بوعده؛ لأن الأجل قد وافاه قبل ذلك، عام 1158 هـ/1745م [2].

لم تستقر أوضاع الإيّالة التونسية بعد الذي حدث، فالفتنة لا زالت قائمة، و كذلك أمور الحكم ما فتئت هي الأخرى في الاضطراب و التصدع بسبب سياسة علي باشا وعناده وتكبره، و تكون هذه الخصال هي التي ستؤدي إلى زوال حكمه كما فعلت بآخر البايات المراديين، و من مظاهر ما يدل على ذلك أنه طلب من القنصل الفرنسي كوتير " M.Gauthier" أن يُقَبِلَ يده كما كان يفعل سائر القناصل الآخرين عند مقابلتهم للباي [3] ولكن امتناع القنصل المذكور عن ذلك وبشدة أدى إلى توتر العلاقات بين الطرفين، وبالتالي تطورت الأمور لإعلان حالة الحرب والقطيعة[4]. وهكذا فتح هذا الباي جبهة أخرى من الأعداء فهل سيتوقف عند هذا الحد؟ أم أن تهوره سيسلط عليه أعداءا جدد؟

---

(1) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 181.

(2) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 33.

(3) De Flaux(Armand), La régence de Tunis au 19ème siècle, Alger, libraire Bastide, 1865, p209.

(4) ابن أبي الضياف أحمد، المصدر السابق، مج1، ج2، ص ص 125- 126.

3- فتنة يونس باي و تدخل الجزائر:

أضمر يونس باي لأبيه الشّر مع بداية، عام 1164هـ/ 1751م، كما فعل أبوه علي باشا بعمّه حسين بن علي من ذي قبل، و مع مرور الأيام استحكمت العداوة بين الأب و الابن، وأصبح كل واحد منهما يخشى الآخر[1]. إن هذه الفُرْقَة ستفتح الباب للتدخل الجزائري من جديد في الشأن التونسي، وبالتالي عودة أبناء حسين بن علي إلى المطالبة بالحكم ثانية، مما سيدخل البلاد في دوامة فتن و حروب أخرى لا تقل ضراوة عن سابقتها، وهكذا ستعيد هذه الفتنة إلى الأذهان ما كان يحصل بين أشقاء الحكم المرادي أواخر القرن السابع عشر ميلادي.

اندلعت الحرب بين الأب و ابنه يونس، و لم يكن الأب من يقودها، و إنما كان ابنيه محمد وسليمان يخوضانها وكالة عنه ضد أخيهما، و مهما يكن من أمر فقد انتهت بانتصار الأب و استرجاعه للحكم من جديد. وما كان على يونس باي إلا اللجوء إلى الجزائر، لعل حكامها يقفون معه، حيث توجه إلى قسنطينة التي كانت يومئذ تحت حكم حسن باي الملقب بـ زرق عينو(1754- 1756م). بيد أن ذلك لم يؤد إلى نتيجة تذكر على صعيد استقرار البلاد، لأن العداوة ستعرف طريقها كذلك إلى قلب محمد ضد أخيه سليمان، الذي كان ذو سمعة طيبة ويحظى بحب كبير من لدن السكان و العسكر العثماني مما أهّله لقيادة المحال [2]. إن هذا الحسد قد أعمى الأخ الأكبر إلى درجة كبيرة، فقد فكر في قتل أخيه بدس السم له، و مات سليمان، في 22 صفر 1168هـ/ 08-12- 1754م[3]، و لكن هناك من يشير إلى وفاته بمرض مزمن [4]. و عليه أصبح محمد بايا على الإيّالة التونسـية، غير أنّ منافسوه على الحكم كانوا يتربصون به الدوائر، خاصة أبناء حسين بن علي الثلاثة المتواجدين بالجزائر لطلب المساعدة[5].

مكث يونس بالجزائر مدة غير يسيرة، و أثناء تواجده هناك كان يعمل على استعطاف داي الجزائر، لعل الأخير يشفق عليه ويجهز له محلة يعود بها إلى بلاده لاسترداد حكمه، و لكن ذلك كان يتوقف على حنكته السياسية، وطبيعة الظروف التي يمر بها حكم الداي. فهل سينجح يونس في إقناع السلطة بالجزائر على تنفيذ مساعيه كما نجح والده سابقا؟

---

(1) ابن أبي الضياف أحمد، المصدر السابق، مج1، ج2، ص 136.

(2) ابن يوسف الصغير، المصدر السابق، مج 3، ص186.

(3) Maggil (M.T), op. cit, p77.

(4) ابن يوسف الصغير، المصدر السابق، مج3، ص190.

(5) De Paradis (V), Tunis et Alger au XVIII siècle, Paris, sindbad, 1983, p30.

انتظر يونس الفرصة المناسبة لشن الهجوم على والده، و بالسرعة التي كان يتوق إليها لاسترجاع حكمه، غير أن الأوضاع في الجزائر لم تكن تنذر بالخير ليقدم له الداي المساعدة؛ ذلك أن داي الجزائر قد اغتيل غدرا و أجمع ديوانها على تنصيب أحد أكبر عساكر العثمانيين، و هو علي باشا الملقب ببوصباع في عام(1168هـ/1754م-1766م). و عليه كانت الجزائر تلملم جراحها من جراء اغتيال الداي السابق، و هكذا أدت هذه الحادثة إلى تدخل الجند الإنكشاري حيث تم القبض على القاتل. فضلا عن تعرض الجزائر لزلزال عنيف و مدمر، أدى إلى تعطل لمظاهر الحياة اليومية في مدينة الجزائر و المناطق المحيطة بها، و كان ذلك طيلة شهرين كاملين نوفمبر و ديسمبر من عام 1755م[1].

احتدم التنافس على أشده بين يونس أسير باي قسنطينة و أبناء عمّه حسين بن علي بالجزائر، وبالرغم من محاولات يونس استعطاف داي الجزائر لإعادته إلى العرش، إلا أن الأخير كانت بينه و بين يونس حزازات، منذ أن كان يعمل تحت إمرة والده علي باشا، فلم يعامل الجزائريين معاملة حسنة [2]، موقف يونس السابق و غير المشرف أدى بداي الجزائر لمساندة الأخوين أبناء حسين بن علي لاسترجاع ملكهما بدلا من يونس. فقد توجهت محلة جزائرية ضخمة نحو تونس، عام 1169هـ/ 1755م، بقيادة حسن باي زرق عينو و هو ابن أخت داي الجزائر علي باشا. و مما تجدر الإشارة إليه، أنه في فترة 1748- 1754م، لم يتم ذكر في كم من موضع و في عدة مؤلفات حكم الداي محمد باشا. الذي تولى الحكم بعد إبراهيم باشا وقبل علي باشا بوصباع، حتى و إن لم تشهد فترة حكمه أمورا تستحق الذكر.

و مهما يكن من أمر فإن باي قسنطينة قد عزم على التدخل في تونس، ولضمان تدخل ناجح كان قد ضيق الأسر على يونس بمدينة قسنطينة [3]، وهكذا غادر الباي الجزائر نحو هدفه و اجتاحت محلة الجزائر الأراضي التونسية، إلا أنها كادت أن تتوقف في طريقها بسبب خلاف بين الباي المذكور والشيخ بوعزيز من قبيلة الحنانشة [4] وهذا الأخير ليس هو الشيخ بوعزيز السالف الذكر، و هناك بالمقابل من يقول أن داي الجزائر راسل حسن باي بالعدول عن شن الحملة، التي لا يمكن التكهن بنتائجها، بإيعاز من أنصار علي باشا بالجزائر، و كان الداي أيضا مترددا في ذلك بسبب وباء الطاعون[5].

---

(1) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص ص 29- 34.

(2) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 210.

(3) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 34.

(4) ابن عبد العزيز حمودة بن محمد، الكتاب الباشي، تحقيق ماضور محمد، ج1، الدار التونسية للنشر، تونس 1970م، ص280.

(5) ابن يوسف الصغير، المصدر السابق، مج4، ص 29.

صدرت الأوامر بعدم المضي قدما لإخضاع باي تونس، و تنصيب علي باي بن حسين بن علي بدلا عنـه إلا أن الباي حسن رغم ذلك استطاع أن يقنع داي الجزائر بتَغْيِير رأيه في أمر سير المحلة، و فعلا أمر الداي بمواصلة السير، حيث وصلت المحلة أسوار مدينة تونس، وضربت حولها حصارا شديدا، تبـادلت من خلاله طلقـات البـارود و المدافع، و كادت الأمور أن تحسم لصالح جند مدينة تونس من الإنكشارية المتحصن بأسوارها، غير أنّ حُسن تدبير علي بن حسين و معرفته بخبايا العاصمة تونس، استطاع أن ينفّذ هجوما كاسحا قضى به على مقاومة ابن عمّه علي باشا و ابنه محمد، وبذلك تم الاستيلاء على المدينة و القبض عليهما و قطع رأسيهما، و من جراء ذلك أعيد محمد باي بن حسين بن علي إلى عرش البلاد لكونه الوريث الشرعي للحكم حسب ما تنص عليه الأعراف آنذاك، عام 1169هـ/ 1756 م[1].

يَذكُر حمدان خوجة أن هذا التدخل كان، عام 1754م، و أن غرضه تنصيب علي باشا ابن أخ حسين بن علي[2]. و لكن هدفه كان إعادة أولاد حسين بن علي للحكم، لأن علي باشا كان يحكم تونس منذ عام 1735م وما يزيد من تأكيد ذلك هو أن حادثة محاولة اغتيال باي قسنطينة بتونس من طرف علي باي بن حسين بن علي بسبب الغنائم، و التي سنسردها لاحقا، تدل على أن التدخل كان عام 1755م كما أسلفنا. و ليس كما يقول حمدان خوجة. و مهما كان الأمر فقد تمخضت عن التدخل نتائج متعددة نذكر منها:

أ- تنصيب محمد بن حسين بن علي بايا على تونس، كما بايعه أهل المدينة، و عفى عن كثير ممن كان يساند ابن عمّه علي باشا و أبنائه[3].

ب- التخلص من فتنة يونس باي بن علي باشا، باحتجازه في قسنطينة، حتى وافاه الأجل بها، في ربيع الثاني 1282هـ/سبتمبر1768م[4].

ج- غنم الجيش الجزائري و الباي التونسي الجديد، غنائم كثيرة من الأموال المختلفة، وحتى خزانة كتب علي باشا الباي السابق[5].

د- نهاية الفتنة الحسينية الباشية بتونس.

---

(1) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، مج1، ج 2، ص ص151- 154.

(2) خوجة حمدان بن عثمان، المصدر السابق، ص162.

(3) مقديش محمود، المصدر السابق، مج2، ص165.

(4) ابن عبد العزيز حمودة بن محمد، الكتاب الباشي، مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية، ج2، تحت رقمA.MSS-18666، ورقة43.

(5) ابن عبد العزيز حمودة، الكتاب الباشي، ج1، المصدر السابق، ص 47.

4- محاولة اغتيال باي قسنطينة بتونس1756م:

انتصر باي قسنطينة في معركته، و رغم إتمامه للشروط المتفق عليها بإعادة تنصيب محمد باي و الحصول على الغنائم، إلا أن بعض النهايات لم تكن سعيدة، فتدخل الجزائر كان يُرجَى منه جلب غنائم وفيرة ترضي داي الجزائـــر، و العساكر التي خاضت غمار المعركة، و عند تقسيم هذه الغنائم اختلف حولها باي قسنطينة مع علي بن حسين، و أطلق الأخير النار على باي قسنطينة، و لحسن حظه لم يُصَبْ بأذى، و هكذا عادت الحرب من جديد و لكن هذه المرّة مع طرف كان بالأمس حليفا، فقد تحصن محمد باي بقصر باردو [*]، أمّا علي فقد انسحب إلى مدينة صفاقس جنوبا، و منه أعادت محلة الجزائر ضرب حصار محكم على مدينة تونس للانتقام من المتآمرين على باي الشرق الجزائري[1].

رأى علي باي شدة ما لحق بأخيه من جراء فعلته، و لعلمه ما قد يلحق به هو أيضا؛ فقد سارع إلى الدخول في مفاوضات مع الجزائريين لعلها تعيد الأمور إلى نصابها وتنهي حالة هذه الأزمة؛ حيث تم إمضاء اتفاقية تقضي بفك الحصار و منح الجزائريين مبالغ مالية معتبرة [2]، كما أُهْدِي حسين زرق عينو هدايا قيمة، و وافق على تهديم الحصون الجزائرية التي كانت موجودة على الحدود ما بين الإيّالتين حيث خرب باي قسنطينة إحداها بمدينة الكـــاف، عند رجوعه إلى الجزائر. كما أنه تم الموافقة على إمداد الجزائر بشحنتين كبيرتين من زيت الزيتون، لإضاءة المساجد، وأضحى داي الجزائر هو سيد الإيّالتين الفعلي[3]. و هناك نتائج أخرى نذكر منها:

أ- وفاة أعداد كبيرة من الجند العثماني في حروب لا طائل منها إلا الشهرة والمنصب والمال.

ب- الخراب الكبير الذي كان السمة الغالبة للمدن التونسية الواقعة في طريق المحلة الجزائرية من الكاف إلى تونس.

ج- هلاك العديد من سكان مدينة تونس، لكونها مركز الخلاف حول السلطة و تحمل سكانها لتبعات الصراع لفترات طويلة دون فوائد تعود عليهم.

د- عودة الحكم لأبناء حسين بن علي المؤسس الفعلي لحكم الأسرة الحسينية بإيّالة تونس و نهاية حكم الباشية[4].

(*) قصر للبايات يبعد بواحد كلومتر و نصف عن مدينة تونس. أنظر بيسونال جون اندري، المصدر السابق، ص30.

(1) Ben Youssef (Mohammed Seghir), Soixante ans d'histoire de la Tunisie 1705-1765 ,R.T,T7,n°25,Tunise,1900, p104.

(2) المدني أحمد توفيق، محمد بن عثمان، المرجع السابق، ص71.

(3) خوجة حمدان بن عثمان، المصدر السابق، ص164.

(4) ابن أبي الضياف أحمد، المصدر السابق، مج1، ج2، ص154.

5- تجدد الفتنة حول العرش التونسي:

اعتلى محمد باي بن حسين بن علي عرش تونس، و كان حكمه فاتحة خير على البلاد فقد استبشر السكان به، و توسموا فيه الخير العميم، ولكن شاءت الأقدار أن يُتوفى بعد مضي ثلاث سنوات فقط من الحكم. وترك ولدين و هما: إسماعيل و محمود، ولم يكونا قد بلغا سن الرشد بعد لاعتلاء العرش، غير أنه تم الإجماع على منح الحكم لعمهما عليّ(1)، بعد أن تعهد بتسليم السلطة للابن الأكبر إسماعيل حين ما يبلغ سن الرشد(2).

انتهج علي باي الحسيني سياسة تدل على أنه سيخل بالشروط التي وافق عليها سابقا، بأن يمنح مقاليد الحكم لابن أخيه؛ حيث قرب ابنه حمودة و أشركه في الحكم، و بالمقابل كان ليونس بن علي باشا أبناء يسعون لاسترداد ملكهم و هم إسماعيل، محمد ومصطفى. فقد عمل إسماعيل جاهدا على حشد الأنصار بالجنوب التونسي و انضمت إليه قبائل كثيرة أهمها أولاد سعيد و السواسي، و استطاع أن يُكَوِّنَ جيشا كبيرا في ظرف وجيز، ولم يحالفه الحظ في الاستفادة من دعم حاكم طرابلس التي كان بها(3).

وهكذا سار هذا الرجل في إشعال نار الفتنة التي أحرقت الأخضر واليابس، و ما أكثر تردد السكان في تأييد صاحب السلطة، فما إن تلوح بوادر في الأفق توحي بحدوث انقلاب حتى تنظم إليها قبائل كبيرة كالتي ذكرنا، هذا فضلا عن انضمامها للجيش الجزائري في قتاله للبايات التونسيين، و عموما فإنّ فتنة أبناء يونس بن علي باشا لم تخمد حتى أزهقت المئات من الأرواح و أهلكت الحرث والنسل، و رغم حشوده إلا أنّه في الأخير اضطر إلى مغادرة التراب التونسي إلى مدينة قسنطينة، حيث أبوه أسيرا هناك لدى الباي أحمد القلي(1756م-1771م)، و بعدها رحل إلى مدينة الجزائر، لعله ينجح فيما فشل فيه والده من قبل، و لكن تشتت شمله و انطفأت نار الفتنة، التي أحدثها هذا الباي، عام 1175هـ/ 1761م(4).

يذكر أنه بنهاية الفتنة السابقة الذكر استقرت الأمور و هدأت الخواطر و استقام أمر الرعية على حكم رجل واحد، أحسن بكثير مما كان، كما انتعشت الحياة الاقتصادية بتوفير مداخيل مالية جمّة للخزينة من جراء عائدات النشاط البحري و التجاري، و الاتفاقيات التي عُقدت مع الدول الأوربية كجمهورية البندقية و فرنسا و غيرهما بخصوص تنظيم التجارة من خلال الامتيازات الممنوحة لهم خير دليل على ذلك، خاصة وأن التوتر مع دايات الجزائر قد بدأ يهدأ ولكن أمر التبعية لم يزل قائما.

---

(1) De Paradis (V), Tunis et Alger, op, cit, p 31.

(2) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 21.

(3) ابن عبد العزيز حمودة، الكتاب الباشي...، ج2، المصدر السابق، ورقة58.

(4) ابن عبد العزيز حمودة، الكتاب الباشي، ج1، المصدر السابق، ص90.

انتهى النزاع حول العرش في إيّالة تونس، الذي أدى إلى تدخل الجزائر في كم من مرة، أفضت هذه النهاية المؤقتة في الأخير إلى استقرار الأوضاع داخليا كما أسلفنا، و لكن على الصعيد الخارجي في إطار العلاقات مع الدول الأوربية المتنافسة على الظفر بموطأ قدم رغم الاتفاقيات، كانت قد توترت، و لعل بعض النعم تصبح في يوم ما نقمة على صاحبها، فوجود المرجان بالسواحل التونسية كان قد أسال لعاب الأوربيين للاستيلاء عليه، ولم تكن هذه الثروة جديدة أو غير معروفة بالإيّالة فقد كان السكان المحليون يستفيدون منها منذ القديم، إلى أن تفطن لوجودها في البداية بحارة جنوة[1]. و هكذا دخلت البلاد في صراع شبه دائم مع القوى الأوربية، التي لها أطماع في البلاد، مثل فرنسا و البندقية و غيرهما، كما سبق الإشارة إليه، مما ترتب عن ذلك نتائج وخيمة على استقرار البلاد.

نلاحظ أنه من الصعب جدا إنهاء الصراع الجزائري التونسي، و بأي شكل من الأشكال؛ ذلك لأّن الأداءات المالية التي حصلت عليها الجزائر كانت فوق طاقة الخزينة التونسية، وخارج عن إرادة شعبها، كما أن الجزائر لم تكن لتتخلى عنها أو حتى تعيد النظر فيها [2]، خاصة أن أبناء يونس ما زالوا بالجزائر، و وجودهم يعد ورقة ضغط على حكّام تونس في يد دايات الجزائر[3]، و من جراء ذلك عجز الباي علي بن حسين على التخلص من الالتزامات المالية الموجهة للجزائر، و التي أقرّها أخوه محمد من قبل. يقال أن الأخير هو أول من قَبِلَ في تاريخ تونس الحديث أن يلتزم لداي الجزائر بدفع أموال ضخمة سنويا [4]، و هو الأمر الذي سوف لن يتخلى عنه دايات الجزائر، و يكون الشرط الأساسي في أي اتفاقيات قادمة.

و نرى أنّ فترة حكم الباي علي كانت طويلة نوعا ما فقد حكم من عام 1759م حتى عام 1782م تاريخ وفاته و اعتلاء ابنه حمودة باشا العرش التونسي، و بالمقابل استقرت أمور الجزائر باعتلاء الداي محمد بن عثمان الحكم (1766-1791م)، ليتم فيما بعد تعيين صالح باي على رأس بايليك قسنطينة(1771- 1792م)[5]، وسوف يكون له شأن كبير في إدارة هذا البايليك الضخم، و التصدي لسياسة حمودة باشا، الرامية إلى التخلص من الأداءات المالية التي عليه للجزائر.

---

(1) التمقروتي أبو الحسن سيدي علي، النفحة المسكية، مطبوع بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 2120، ص132.

(2) هلايلي حنيفي، المرجع السابق، ص49.

(3) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص234.

(4) رشاد الإمام، المصدر السابق، ص60.

(5) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص40.

ثانيا- سياسة علي باي الحسيني و ابنه حمودة ضد الجزائر و تداعياتها 1759م- 1821م:

1- أسباب انتهاج هذه السياسة:

استطاع علي باي بدهاء كبير، أن يعالج تقريبا كل المشاكل التي تسبب فيها الأوربيون مع بلاده، نتيجة العلاقات التي تربط الطرفين، فقد نجح في العديد من المرات في إخضاع هؤلاء للشروط التي يضعها هو، رغم القوة التي كانت تتمتع بها هذه الدول، حيث تعرضت جزيرة طبرقة إلى هجوم فرنسي في عام 1183هـ / 1770م[1]. ولكن عندما تسلم ابنه حمودة الحكم، كان أشد ما يؤرق هذا الباي و يقض مضجعه هو تبعيته لدايات الجزائر، من خلال الأداءات المالية التي كان يدفعها فضلا عن شحنات الزيت و غيرها. مع العلم أن أبوه علي كان يؤدي ما عليه من هذه العوائد، و حمودة باشا كان يعلم أن جزءا كبيرا منها يذهب لصالح الحساب الخاص للدايات [2]. إن هذه المسألة لم يستطع أسرها في قلبه، فقد صرح بها في الكثير من المرات للعامة، الذين تساءلوا عن مصير هذه الأموال، و جدوى دفعها للجزائر، و لماذا لا يتم الامتناع عن دفعها، و من جملة ما قال الباي لأعضاء ديوانه في هذا الشأن"... لم أجد من أتحرّم به منكم على دفع هذا الضيم..."[3].

و يذكر أصحاب المصادر أمورا أخرى تحكمت في منحى العلاقات بين الإيّالتين، و هي أن داي الجزائر و باي قسنطينة كانوا يشترون الأنعام من الجزائر و يرسلونها للبيع بتونس، و لا يسمح لأهل تونس ببيع أنعامهم؛ حتى تباع أنعام الجزائر، و بِسِعْرٍ يُحدد سابقا، وإذا نقص عدد من الرؤوس يضاف سعره على رؤوس العدد الباقي.

كما كان الجزائريون يَدَّعُونَ السرقة على أهل تونس، ويطلبون معاقبتهم بمجرد رفع الدعوة ضدهم، كما أنّهم كانوا ينزلون بقصر باردو و بدار الضيوف بمدينة تونس، و يلاقي القائمون على خدمتهم عنفا كبيرا و تعسفا، مما يُستفز به حدود هؤلاء و يدخلون معهم في شحناء، لا طائل منها إلا إذلال التونسيين [4]. يروي حمدان خوجة أنّه عندما كان عائدا صحبة خاله من اسطنبول، سنة 1801م، أقاما أسبوعا بمدينة تونس، و هناك اشتكى لهما حمودة باشا، من تصرفات وكيل الجزائر و قسنطينة المقيمين بتونس غير المقبولة، و أكدا له بأنّها لا تمثل حكومة و أهالي الجزائر البتّة[5]، كما كانت الجزائر ملاذا للمتآمرين على السلطة التونسية، أمثال يونس و ابنه إسماعيل[6].

---

(1) ابن عبد العزيز حمودة، الكتاب الباشي، ج2، المصدر السابق، ورقة47.

(2) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 277.

(3) ابن أبي الضياف أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، مج2، ج3، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس2004م، ص 40.

(4) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 123.

(5) خوجة حمدان بن عثمان، المصدر السابق، ص165.

(6) Louis (Frank), op, cit, p197.

2- نُذُرُ الحرب في عهد صالح باي(*) قسنطينة:

نُصِبَ علي باشا بن محمد بن علي التركي على عرش إيّالة تونس؛ من طرف الجزائريين. و يكون ذلك قد تم وفقا لشروط، أبرزها أن يدفع أداءات مالية لخزينة دايات الجزائر، ثمنا لمساندته. حيث استقرت الأمور على ما هي عليه طيلة فترة حكم هذا الباي، وبالرغم من تغير الحكم حيث آل إلى أبناء حسين بن علي، بتدخل من الجزائر وبشروط كذلك لا تقل عن سابقتها. وعليه استقر الحكم عند الباي علي بن الحسين بن علي في جمادى الثانية 1172هـ/فيفري 1759م، الذي التزم بدفع الأدءات كثمن تأييد الجزائر له، بالإضافة إلى كميات من زيت الزيتون و الصابون و غيرها من الهدايا [1]. صادف حكم هذا الباي، و لسوء حظه، حكم صالح باي قسنطينة [2]، الذي يُشهد له بالجرأة والحزم في إدارة شؤون بايليك الشرق. و كنتيجة حتمية لإذعان الباي التونسي و التزامه بما عليه لم تكن هناك مظاهر للصراع بين الإيّالتين تقريبا حتى تاريخ وفاة الباي التونسي.

خلف الباي المتوفى ابنه حمودة باشا (1782- 1814م)، وكان أبرز حدث دشن حكمه على صعيد العلاقات الخارجية، هو عقد الصلح مع إسبانيا التي اشترطت أن يتم ذلك على يد الجزائر [3]، وهذا يدل على تبعية تونس للجزائر، و إدراك الإسبان لذلك على الرغم من أن الجو كان مشحونا بين الطرفين الأخيرين، و بالمقابل كان الباي الجديد يتهرب من أداء ما عليه للجزائر، و بداية تهربه هذه من الأداءات المالية أدت إلى فتح بــاب الحرب بين الإيّالتين مرة أخرى. ويروي أبو راس الناصري الجزائري أنّه عندما نزل بتونـس أثنـاء رحلته، استدعاه الباي حمودة باشا و سأله عن مدينة قسنطينة، و لم يذكر تاريخ هذه الواقعة [4]. نستشف من هذه الحادثة أن لدى باي تونس نِيَةٌ في الاستيلاء على المدينة. و الظاهر أن الباي لم يكن قادرا على مجابهة الجزائــر في بداية حكمه، وما إن استقرت أموره حتى بادر إلى قطع ما كان يؤديه إليها، و كخطوة أولى حاول التقرب من المغرب لعلّه يعيد التحالف القديم لضرب استقرار إيّالة الجزائر، غير أنّ هذا التقارب لم يكتب له النجاح[5].

(*) ولد بأزمير التركية غرب الأناضول سنة 1137هـ/ 1725م، تولى منصب باي قسنطينة، في حكم الداي محمد بن عثمان باشا. أنظر: الزهار أحمد الشريف، تذييل مذكرات الشريف الزهار، دار البصائر، الجزائر 2009م، ص159.

(1) هلايلي حنيفي، المرجع السابق، ص 50.

(2) ابن أحمد محمد الطاهر، ذكر طرف ولاية المرحوم السيد صالح باي أمير بلد قسنطينة، مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية، رقم00263، ورقة1.

(3) بوعزيز يحي، المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1780- 1798م)، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر2009م، ص79.

(4) أبو راس الناصر محمد الجزائري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل رب و نعمته، تحقيق و تعريب ابن عبد الكريم محمد الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986م، ص115.

(5) هلايلي حنيفي، المرجع السابق، ص 51.

فشل مشروع التقارب التونسي المغربي القديم و الجديد بالنسبة لحكّام البلدين ضد إيّالة الجزائر. و شَعَرَ صالح باي بأنّ مركزه مهدد و أنّ الباي التونسي سلك سياسة لا تخدم مصالح الإيّالتين و خاصة الجزائر، ليس ماليا فحسب و إنّما حتى على صعيد الاستقرار السياسي و العسكري، لذا أظهر صالح باي منذ بداية عهد حمودة باشا موقفا حازما تجاهه، و لعل هذا الموقف لم يكن وليد الساعة و إنّما كان منذ زمن؛ ذلك أنّ حمودة باشا كان له شأن في إدارة تونس في حياة والده، و هو يعلم جيدا ما كان يعانيه والده من جراء تبعيته للجزائر.

تَعلَّلَ الباي حمودة باشا بعدم قدرته على دفع الأداءات المالية، لذا أصر صالح باي على المطالبة بدفع الأداءات نفسها التي كانت تدفع من قبل، كما طلب دفع تعويضات أخرى ناتجة عن الخسائر التي تسبب فيها حسن الكبير قائد جيش علي باي سابقا؛ عندما كان يلاحق القبائل التونسية الهاربة من دفع الضرائب و التعسف الممارس عليها نحو الجزائر، حيث استقرت جنوب تبسة. وعليه أذعن الباي التونسي لطلب صالح باي، و دفع تعويضات قُدِرت بخمسة وعشرين ألف سكين [1]، أرسلها مع المبعوث ابن زكري؛ و لما قدمها للباي صالح بُهِتَ و لم يكد يصدق ذلك[2]، لأنها تدل على خوف الباي التونسي من باي قسنطينة، فهل سيبقى خوفه هذا أم أن الحادثة ستجعله يفكر مليا في طريقة للتخلص من التبعية؟

إذن خضع باي تونس لإرادة داي الجزائر كما أسلفنا وهدأت الأمور نسبيا، و لكن لم يدمْ ذلك طويلا بسبب وقوع حادثة كانت قد عكّرت صفو الهدوء الظرفي، عندما عبرت قبيلة جزائرية الحدود باتجاه تونس، هروبا من الضرائب المفروضة عليها [3]. و كان نجم صالح باي قد سطع، حيث اكتسب من الأموال و الخيول بأعداد كبيرة وكميات من الحبوب مما يؤهله للقيام بأي عمل عسكري ضد باي تونس[4]. فقرر ردّ هذه القبيلة، و عليه جهز جيشا قارب عدده ستة آلاف جندي، و لما سمع حمودة باشا بهذه التحضيرات، جهز هو الآخر نفسه و أعد جيشا قوامه ثلاثة آلاف جندي من العثمانيين، الكراغلة و فرسان عرب، و يبدو أنه كان يعرف غريمه حق المعرفة، فاضطر في آخر المطاف إلى الخضوع للأمر الواقع، خوفا من وقوع الحرب و بالتالي انهزامه، فبعث صالح باي محمد خوجة العجمي لاسترداد الفارين؛ حيث تمكن من جلب كل من أراد منهم [5]. تُعَدُ هذه العملية رسالة واضحة تحمل تحد كبير للباي التونسي وتحذير شديد اللهجة.

---

(1) فايست أوجين، تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي1792-1873م، ترجمة نور صالح، تقديم شيبان عبد الرحمان، ط1، دار قرطبة، الجزائر2010م، ص40.

(2) محمد الطاهر بن أحمد، المصدر السابق، ص31.

(3) رشاد الإمام، المصدر السابق، ص415.

(4) مجهول، تاريخ بايات قسنطينة المرحلة الأخيرة، تحقيق حساني مختار، منشورات دحلب، الجزائر1999م، ص 44.

(5) سعيدوني ناصر الدين، المرجع السابق، ص 245.

3- ثورة ابن الأحرش(*) 1218هـ/ 1804م:

تُعَدُ هذه الثورة واحدة من أهم الثورات التي شهدتها إيّالة الجزائر ضد حكومة العثمانيين، و يجب أن نوضح أنّ ابن الأحرش هذا قد ذاع صيته منذ أن كان نابليون بونابرت الأول على أرض مصر التي احتلها، عام 1798م؛ حيث قاتل ابن الأحرش جيش الفرنسيين، وسبب ذهابه إلى مصر أنه كان يقود ركب الحجيج، و هناك التف حوله أُناس كُثُرْ، و عندما هَّمَ بالعودة مرَّ بتونس، حيث دعاه الباي حمودة باشا و استقبله بل و أكرمه، وكان هذا الباي يتمنى أن يثور ابن الأحرش ضد حكومة الجزائر، و لم يستطع البوح له بذلك مباشرة، خوفا منه، إلّا بعد أنْ تأكد من كره الرجل الشديد للجزائر، و من حبه للسلطة، حيث فاجأه بالقول أنّ عليه القيام بالثورة، و بأنه سيدعمه، طالما هناك ظلم من قِبَلِ العثمانيين حسب زعمه، و على ما يبدو فإنّ الرجل ما صدق أن سمع هذا الكلام، حتى عاد إلى الجزائر وأعلن ثورته.

عيّن داي الجزائر في هذه الأثناء عثمان باي (ماي 1803- نوفمبر 1804م) و هو ابن صالح باي على بايليك قسنطينة، بعد أن فرّ الباي السابق مصطفى انجليز إلى تونس عندما تم تنحيته. على أنّ هذا التغيير ستكون له عواقب وخيمة سنذكرها لاحقا، بعدها بدأ الباي الجديد بتجهيز محلته و التوجه لقتال ابن الأحرش الذي كان مُخَيِمًا بمنطقة وادي الزهور، و لكنّ القتال لم يقع بسبب هدوء الأوضاع و عدم ظهور الثائر مجددا(1).

غادر الباي عثمان بمحلته، في فصل الربيع من عام 1804م إلى مدينة الجزائـر كي يقدم الدنـوش للداي كما جرت العادة، و استغل ابن الأحرش غيابه فحاصر مدينة قسنطينة، حيث هُزِمَ بها، فولى الأدبار راجعا إلى مرابضه(2). عندما عاد الباي عثمان من سفره قرّر محاربة الثائر، وعليه جهّز نفسه و اتجه بمحلته إلى موضع تخييم ابن الأحرش بوادي الزهور، وخيم الباي بأرضٍ سبخة بين جبلين، وكانت تلك الليلة ممطرة، حيث فتح أعوان الثائر سَدًا كان مليئا بالمياه، فغرقت محلة الباي ولم يجد سبيلا للهرب، حيث مات من جراء الحادثة عدد كبير، و أصبحت تعرف هذه الحادثة بواقعة وادي الزهور، و هكذا انتصر ابن الأحرش، ولما وصلت أنباء الهزيمة مسامع الداي بعث إلى أحد شيوخ قسنطينة و ولاه عليها؛ حيث هَزَمَ صاحب الثورة و فرق جموعه عن آخرها، و هكذا استقرت أوضاع بايليك الشرق (3).

(*) هو محمد بن عبد الله الشرقي المدعو ابن الأحرش، يقال أنه من المغرب قام بالتمرد على باي قسنطينة. أنظر: حمدان خوجة، المصدر السابق، تهميش ص170.

(1) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص ص 114- 115.

(2) قنان جمال، نصوص و وثائق...، المرجع السابق، ص 339.

(3) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص ص 115- 116.

4- إعلان حمودة باشا الحرب على الجزائر1222هـ/ 1807م:

ضاق صدر الباي التونسي حمودة باشا ذرعا من جراء تصرفات الجزائريين، و التي كان آخرها هجوم باي قسنطينة عبد الله على عرش أولاد بوغانم على الحدود[1]، حيث أتيحت له فرصة للتخلص من التبعية للجزائر، عندما وفد عليه باي قسنطينة مصطفى انجليز، فارًا من أمر القتل الذي أصدره بحقه داي الجزائر رفقة ابنه علي. و من ثمة وجد الباي التونسي فرصة لإعلان الحرب على الجزائر، فأكرم ضيافته و أحسن إليه، كما فعل مع ابن الأحرش سابقا وعلاوة على ذلك وعده بالوقوف إلى جانبه لاسترجاع منصبه، أو الظفر بمنصب الداي نفسه، و قبل أن يتخذ حمودة باشا أيّ إجراء تجاه الجزائر، دعا إلى عقد مجلس وزرائه للنظر في الأمر بروية و الأخذ بالرأي الصواب، طالما كان ذلك الأمر يتعلق بالجزائر[2].

اقترح وزيره و رئيس الكتبة أبو عبد الله رأيًّا هذا نصه"...نساعد أحوالنا و لا نقطع سياستنا، فإنها أحسن من الحرب...". أما الوزير صاحب الطابع فقال "...إن الأمر قد عظم و اتسع الخرق على المخيط و الإتاوة هي التي أوصلتنا لهذه الدرجة من الذل و الهوان..." [3]. و هكذا توفرت الأسباب لإعلان الحرب، فبعد أن كان بايات تونس يستنجدون بدايات الجزائر لاسترداد ملكهم. نرى أن حمودة باشا قد عرف كيف يحارب الجزائريين بسلاحهم الذي حاربوا به التونسيين طيلة الفترة الماضية، ولكنه ليس أول من هاجم الجزائر في عقر دارها، ومهما كان الأمر فقد بادر إلى الهجوم عليهم دون انتظار قدومهم إليه.

انفض المجلس الوزاري و خرج بقرار أخير لشن الحرب، حيث بدأ الاستعداد لها، بتجهيز المحلة. وبالمقابل استشاط داي الجزائر غضبا بعد أن استقبل حمودة باشا باي قسنطينة الهارب، واعتبر الأمر موجه ضده. لذا أراد الداي أن يجس النبض و يعرف رد فعل الباي التونسي، فأرسل إليه أنعاما جزائرية لتباع في تونس كما جرت عليه العادة، حيث عيّن ثمنها مسبقا و بصيغة صريحة، خلافا لما كان يجري سابقا عند عملية البيع، تحمل كثيرا من الازدراء و الاستخفاف بالباي التونسي، الذي أمر بقرع طبول الحرب للتخلص من هذه التبعية [4]. و على كل حال كانت هذه فرصة لجلب الغنائم، قد أسالت لعاب الباي التونسي للاستيلاء على مدينة قسنطينة خاصة بعد ما سمع عن غنى أهلها و ثراء أرضها[5].

---

(1) السلسلة التاريخية، الملف384، الحافظة223، الأرشيف الوطني التونسي، ص104.

(2) ابن المبارك أحمد، تاريخ قسنطينة، تحقيق بونار رابح، د ت، ص 50.

(3) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، مج2، ج3. ص 41.

(4) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 123.

(5) ابن العنتري محمد، مجاعات قسنطينة، تحقيق تقديم بونار رابح، ش و ن ت، الجزائر1974م، ص 37.

4.أ- معركة قسنطينة1222هـ/1807 م:

استنفذ داي الجزائر كل السبل من أجل أداء باي تونس ما عليه من مال كما كان يؤديها أسلافه، و عليه بعث بالمراكب الجزائرية لغزو سواحل تونس، انتقاما منه، و لما وصلت هذه المراكب إلى تونس وعلى الأرجح إلى مرسى حلق الوادي لم تجد سوى مركبين أو ثلاث هناك فأخذتهم على حين غفلة، و كان هذا بمثابة تهديد لإرغام الباي حمودة على الخضوع، وإلا سيلاقي عملا أشد من هذا[1].

جهّز باي تونس محلته بقيادة وزيره أبو الربيع سليمان كاهية الأول، و بصحبته ابن باي قسنطينة علي بن الحاج مصطفى انجليز. و اقتصر الباي في تجهيز هذه المحلة على الجند الإنكشاري، لما لهم من سطوة وقوة، بالإضافة إلى المخازنية. كما أنّ قبيلة دريد قد انضمت للمحلة، و كان الباي يعلم أنه إذا أراد غزو قسنطينة يجب عليه تأمين قواعده الخلفية ليست من ناحية الأمن فحسب بل بالمؤن و الذخائر الحربية و المواد الغذائية خاصة القمح و الشعير و أعلاف الخيول و الإبل وكل ما تستلزمه هذه الحالة.

وقع اختيار الباي على تحصين مدينة الكاف لأسباب عديدة أهمها: أنها تقع في آخر طريقه إلى الجزائر وتكاد تكون المعبر الوحيد للمحلة الجزائرية عند دخولها للبلاد، هذا وقد تم تدعيم المحلة الكبرى بمحلة ثانية بقيادة سليمان كاهية آغا عسكر إقليم باجة الذي كان بصحبته الحاج مصطفى انجليز نفسه، و مجموعة من الفرسان الخفاف.
توحي هذه الترتيبات بعزم الباي على إلحاق الهزيمة بالجزائر، كما تبين عدم استهانته بقوة خصمه لتجنب خسائر كبيرة قد تنهي حكمه[2].

توجه الحملتين صوب مدينة قسنطينة، التي كانت يومئذ تحت حكم الباي حسين بن صالح باي، منذ أواخر 1221هـ/1806م[3]، و يُذْكَرُ أن عدد الجيش كان عشرون ألف مقاتل، و هناك من يقدره بأربعين ألف مقاتل[4] و الفرق بين العددين كبير جدا، و على أية حال كان الجند مزود بآلات حربية و أسلحة هامة على رأسها المدافع وعندما وصل الجيش بنَى التونسيون أخبيتهم، بمكان استراتيجي يسمى كدية عاتي وسطح المنصورة الواقعتين في مدخل مدينة قسنطينة من ناحية الجنوب الشرقي[5].

---

(1) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص122.
(2) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، مج2، ج3، ص ص 41-42.
(3) ابن المبارك أحمد، تاريخ قسنطينة...، المصدر السابق، ص51.
(5) ابن العنتري محمد الصالح، مجاعات قسنطينة...، المصدر السابق، ص37.
(6) plantet (E), Correspondance des Beys de Tunis et des consuls de France avec la cour,T3, (1770-1830), Paris, ancienne librairie, 1899, p470.

4.بـ- حصار مدينة قسنطينة 1221هـ / 1807م:

وصلت المحلة التونسية أسوار مدينة قسنطينة، وخيمت في مناطق حساسة عندها ضُرِبَ حصـار على المدينة، بقي لمدة شهر كامل يرميها كل يوم، وقد عاث المحاصرون في أرياف المدينة فسادا كبيرا، حيث نهبوا عربانهـا و أحرقوا دورها و أمطرت المدافع المدينة بالقنابل طيلة فترة الحصار [1]، حتى مَّلَ المحاصرون و تمنوا أكثر من مرة الهزيمة بدل البقاء هكذا بدون تحرك، و كان أشدهم مللا قبيلة دريد، كما أن الباي أضاف لهم مددا آخر و كان كله عزم على افتكاك المدينة عنوة، و بذلك يشغل دايات الجزائر عن التفكير في غزو تونس بتحرير مدينتهم. تم تدعيم المحلة التونسية بأربعمئة جندي إضافي، و زودهم بأسلحة كثيرة، وأثناء الحصار حصلت مناوشات بين الفريقين أسفرت عن وضوح ضعف المحلة التونسية، و عدم تلاحمها و بالسرعة نفسها التي أتت بها المحلة، فرَّت منها فرسان قبيلة دريد وبذلك بدأ الوهن يصيب الجنود[2].

استمات أهل المدينة في الدفاع عنها، رغم القوة الكبيرة التي قصف بها الجيش التونسي أسوار المدينة وعمرانها[3]. و هكذا قُلِّصَتْ حظوظ التونسيين في السيطرة عليها، و في غضون ذلك وصلت أنباء الحصار الخانق لمدينة الجزائر، فأمر الداي على الفور بتجهيز محلة ضخمة سلكت طريق البر، كما أرسل محلة أخرى عن طريق البحر قوامها ثلاث فرقاطات تحمل كل منها الجنود و الآلات الحربية، و أرسل معها خمسة قطع من اللنجور ترافقها يحمل كل منها مدفعين كبيرين و أبحرت صوب مدينة عنابة أقرب مرسى بحري لمدينة قسنطينة، حيث نزل الجيش هناك وتوجه نحو المدينة المحاصرة[4].

لم تكن حالة الفرار تخص فرسان قبيلة دريد لوحدها حتى و إن كانت تعد عادة قد اشتهرت بها كما ذكرنـا فالباي حسن بن صالح فرَّ من مقر حكمه كذلك، إلى الجبال القريبة منه ليتحصن بها، خوفا من دخول التونسيين إلى المدينة، التي تركها تواجه الحصار و المصير المجهول، فالعطش كان سيد المشهد بلا منازع، و لما دنت المحلة البرية من المدينة كادت أن تُهزم لولا وصول المحلة التي أتت بحرا، و هكذا استطاعت بحركة التفاف سريعة أن تضع الجيش التونسي في موضع لا يحسد عليه، و تم سحقه من الوهلة الأولى، و الاستيلاء على خزائن أمواله، و جزء كبير من عتاده الحربي[5].

---

(1) ابن المبارك أحمد. تاريخ قسنطينة...، المصدر السابق، ص53.

(2) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، مج2، ج3، ص 42.

(3) ابن العنتري، مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص38.

(4) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 122.

(5) مجهول، تاريخ بايات قسنطينة، المصدر السابق، ص34.

4.ج– معركة وادي سراط1221هـ/1807م:

مُني الجيش التونسي بهزيمة نكراء، و بعدها ولّى مدبرا إلى تونس يجر أذيال الخيبة ، تاركا خلفه600 قتيل و1167أسيراً[1]، و أكمل الجيش الجزائري سيطرته على المدينة، و غنم عتادا حربيا كبيرا، و سار في أثر المحلة التونسية التي كانت تسير بسرعة فائقة جدا، عندما وصل أولها العاصمة تونس مَثَلَ قائدها أمام الباي حمودة باشا الذي لم يستطع تمالك نفسه من جراء النكبة التي حلت به، خاصة و أنه علم بقدوم الجزائريين نحو العاصمة، فما عساه يفعل يا ترى؟

استطاع الباي أن يتجاوز هذه المحنة، و اقتنع في الأخير بدل الاستسلام بتجهيز محلة لصد الجيش الجزائري و كان من جملة التدابير المتخذة أنه منح يوسف صاحب الطابع قيادة المحلة لكونه محل ثقة الباي ولا أحد سواه [2] و استطاع كسب تأييد قبائل المزارقية و الوسالتية [3]. في هذه الأثناء بعث داي الجزائر إلى باي تونس، كتابا لإقامة الصلح؛ كتبه الفقيه محمد بن العنابي قاضي الحنفية، للعدول عن حالة الحرب، و الإذعان للأوامر و تأدية ما كان عليه من المال، و لكن ذلك لم يجدِ نفعا، حيث مضى الباي التونسي في تنفيذ مسعاه، ضاربا هذا الجهد عرض الحائط لأن أي تراجع سيعيد سياسته إلى نقطة البداية بل كان سيزيد من عناد خصومه. نلاحظ أن ابن العنتري ذكر أنّ المحلة الجزائرية طاردت فلول الجيش التونسي الهاربة بدون توقف [4]. بينما الزهار يروي أن الداي أمر بتجهيز محلة جديدة و أوكل قيادتها لحسن بن صالح باي قسنطينة السابق، و التجهيز طبعا يستغرق وقتا، و هذا بعد رفض حمودة باشا لكتاب ابن العنابي[5].

و يبدو أنّه كان من الصعب جدا على باي تونس، تجهيز هذه المحلة؛ لأنّ جل الأسلحة و الذخائر و الأخبية فُقدت من جرّاء هزيمة قسنطينة، و على الرغم من ذلك استطاع حمودة باشا أن يحشد حوالي، أربعين ألف مقاتل، من الفرسان المخازنية و المزارقية و القبائل، و سبعة عشر ألف من الراجلين، أغلبهم من العناصر المحلية و قبائل زواوة فضلا عن رجال المدفعية، فهناك من يقول بأن الوضع الاقتصادي والعسكري لإيّالة تونس كان وضعا مريحا لذا استطاع الباي بهذه السرعة تشكيل قوات لصد المهاجمين[6].

---

(1)Gsell (Stéphane), Notes chronologiques pour l'histoire de Constantine, Raf, n°39, 1895, p170.

(2) الهويدي سلوى، أعوان الدولة للإيّالة التونسية1735م–1814م، مجلة إيبلا، العدد205، تونس2010م، ص54.

(3) ابن أبي الضياف أحمد، المصدر السابق، مج2، ج3، ص 44.

(4) ابن العنتري، مجاعات قسنطينة...، المصدر السابق، ص39.

(5) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 125.

(6) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، مج2، ج3، ص 47.

جهّز داي الجزائر محلة إنطلقت من مدينة الجزائر بقيادة حسن آغا، التحمت بالجيش الموجود بمدينة قسنطينة بقيادة حسن باي، و مِنْ ثم سارت المحلة إلى تونس، وفي الوقت نفسه كانت المحلة التونسية في طريقها إلى الجزائر و بذلك التقى الجمعان في وادي سراط[1]، و يذكر أنهما التقيا بالضبط في منطقة تسمى (سُلاطَة) ليست ببعيدة عن وادي سراط، الواقع بين مدينة الكاف و الحدود التونسية الجزائرية، كان يوم اللقاء الاثنين 08جمادى الأولى1221م/ جويلية 1807م، و دارت بين الطرفين معركة كبيرة هناك، شهد ذلك اليوم انتصارا واضحا للجزائريين، وتم تفريق المحلة التونسية التي فرّ معظم جنودها، و كان من جملة القادة التونسيين باي قسنطينة سابق الذكر، الذي مَثّل دورا بارزا في بقاء بعض الجنود صامدين دون الهروب إلى مناطق بعيدة و عندما جنى الليل كان قد ستر هؤلاء الجنود، حيث توقفت المعركة[2].

لما رأى حسن باي ذلك رجع قافلا إلى قسنطينة و ترك الجيش وحده، و بدل أن يقوم حسن آغا بتوحيد الجيش و رص صفوفه ترك هو الآخر قواته وقفل راجعا إلى مدينة قسنطينة، و بقي كل شيء على حاله، بعدها قام العسكر بنهب أموال الخزانة، وبقيت الأخبية على حالها [3]. و في تلك الأثناء لم يسمع قادة الجيش التونسي أي صوت في محلة الجزائر و اقتربوا منها شيئا فشيئا حتى وصلوا إلى خيمة الآغا فوجدوها خاوية، و لم يبق في ساحة المعركة إلا الجرحى الذين لم يقدروا على الفرار، و بذلك شاع خبر هروب الجزائريين، حيث هبت العربان لنهب المحلة و نقل الخبر للباي الذي سُرَّ بذلك. و هكذا انقلب نصر الجزائريين إلى هزيمة محققة، و لما عاد الآغا إلى قسنطينة ألقى القبض على حسن باي و أودعه السجن؛ لكونه المتسبب في الهزيمة و أرسل إلى الداي يخبره بما آل إليه أمر المحلة، و ما فعل حسن باي، حيث أمره بقتله و ولّى مكانه علي شاوش على رأس هذا البايليك[4].

تعود أسباب هزيمة الجيش الجزائري، لعدم خبرة قائد جيشها حسن بن صالح باي لصغر سنه و فراره من أرض المعركة و حتى آغا العسكر بالدرجة الأولى، فالباي فرّ أثناء حصار عاصمة ملكه سابقا فكيف يوثق به مرة أخرى و تترك له قيادة المحلة، بالمقابل كان الجيش التونسي يتألف من عناصر محلية من دون الإنكشارية التي كانت تتسبب في الهزيمة على عكس المعركة السابقة، و هذه العناصر قاتلت باستماتة، و قد استفادت من خبرة مصطفى انجليز الذي كان أدرى بالجزائريين[5].

---

(1) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص125.

(2) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، مج2، ج3، ص ص 47- 48.

(3) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص125.

(4) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، مج2، ج3، ص49.

(5) رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس1782م-1814م، منشورات الجامعة التونسية، تونس 1980م، ص429.

4.د–نتائجها :أسفرت هذه المعركة عن نتائج عديدة نوجزها فيما يلي :

أ– انتصار الجيش التونسي انتصارا معنويا أكثر منه ماديا، رغم أنّه لم يبذل عناءا و جهدا في هذه المعركة.

ب– انكسار المحلة الجزائرية، و فقدان جل عتادها الحربي، و مختلف مؤنها التي نُهبت من طرف الأعراب و جنود المحلة التونسية.

ج– موت ما يقارب 2000 جندي جزائري، و أسر 800، يقال أنه أطلق سراحهم فيما بعد(1).

د– مقتل حسن باي قسنطينة الذي وُصف بالجبان(2)، بعد أن بَلَّغ عليه الآغا حسن قائد المحلة داي الجزائر بأنه هو المتسبب في الهزيمة و أنّه كان بينه و بين التونسيين اتصالات(3).

هـ– تمكن علي شاوش من حكم بايليك الشرق خلفا لحسن باي.

و– ذياع صيت حمودة باشا و محبّة الأهالي له.

ي– التخلص من دفع الأداءات المالية لدايات الجزائر(4).

ن– ثورة الجند الإنكشاري على داي الجزائر أحمد باشا التي انتهت بمقتله.

ك– محاولة الجزائريين إعادة الكَرَّة للنيل من المحلة التونسية في جوان 1808م، لمحو آثار الهزيمة السابقة(5).

لم تكن نشوة الانتصار هذه لدى الباي، التونسي و جيشه لتبقى طويلا، فقد مرت مَرَّ السحاب و لم يفقد دايات الجزائر محلتهم و عدد من جنودهم فحسب بل الأكثر من ذلك، فقدوا الأموال التي كانت تونس تدفعها لهم كل سنة. لذا لن يسكت دايات الجزائر عن ذلك، و سيعاودون الكرة لإخضاع هذا الباي، كما فعل الداي أحمد باشا من ذي قبل. و هنا نلاحظ أن حماسة هذا الجند كانت قد زادت أكثر لإعادة تبعية تونس للجزائر، رغم خطورة الحرب عليهم، كما كانت أنفسهم تتوق لجمع الغنائم، و هم الذين كانوا كثيرا ما يتخلصون من الدايات، لرفع مرتباتهم أو الحصول على الأموال و الغنائم.

---

(1) السلسلة التاريخية، الملف384، المصدر السابق، ص 104.

(2) ابن العنتري محمد الصالح، مجاعات قسنطينة...، المصدر السابق، ص39.

(3) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 125.

(4) عميراوي أحميدة، علاقات بايليك الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، دار البعث، الجزائر 2002م، ص45.

(5) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، مج2، ج3، ص 50.

5- فتنة أحمد شاوش بقسنطينة 1223هـ/1808م:

نجا أحد الجنود العثمانيين على إثر حادثة وادي الزهور و لجأ إلى القبائل المجاورة بالمنطقة، و عندما علم به الداي أرسل إليه بعد ولاية علي باي القصيرة (1807م) كتاب الأمان، و ولّاه على عسكر المحلة، و لما قدم و كان بوادي الرمل بالقرب من مدينة قسنطينة، سولت له نفسه بقتل آغا العسكر و الباي معا لعله يصبح دايا، و أعطى مكافأة مالية للجنود الذين ساعدوه على فعلته، و عيّن أحد أتباعه بايا على قسنطينة يدعى أحمد طوبال، و ارتحل هو على رأس محلة قسنطينة قاصدا مدينة الجزائر للإطاحة بالداي، و لكن الداي كان قد علم بالأمر بواسطة أعوانه فأرسل بسرعة كبيرة إلى أحمد طوبال يولّيه بايا و يأمره بقتل أحمد شاوش المدعو القبائلي صاحب الفتنة، حيث لحق به ببرج حمزه و قتله و قاد المحلة مكانه، و هكذا انتهت هذه الفتنة[1].

غير أننا نجد صاحب الحوليات التونسية يروي أن هذه الأزمة أتاحت لحمودة باشا إمكانية ضم إقليم قسنطينة، و كأنه يستهزأ بقوة إيّالة الجزائر، وهي أن علي باي قسنطينة أرسل إلى أحمد شاوش، و أعطاه الأمان للاستفادة من خبرته؛ حيث كان بينهما صداقة و عَمِلَا مع بعضهما لوقت طويل فيما مضى، كما وعده بالتوسط لدى داي الجزائر لتعيينه في منصب هام، على الأرجح يكون حكم البايليك. و قد استجاب هذا المتمرد لعهد الأمان وجاء إلى قسنطينة رفقة صاحب له.

وفد رجل على القبائلي بينما هو في المدينة يخبره بأن صاحبه تم إلقاء القبض عليه، وفي تلك الأثناء كان الباي بالمسجد فقام أحمد شاوش باستمالة مجموعة من العسكر و أعطاهم مالا كثيرا، و دخل بهم إلى المسجد و لمّا رآهم الباي شك في آغا عسكره، فبادر بإطلاق النار عليه و لكنّه أخطأه، وعليه قام الآغا و صوب نحو الباي بندقيته فأرداه قتيلا. و بذلك استغل المتمرد أحمد شاوش الوضع و قضى على آغا العسكر، و أعلن نفسه بايا.

حَكَمَ القبائلي فترة قصيرة كباي للشرق مابين (1807م و1808م)[2]، راسل خلالها الوزير التونسي يوسف صاحب الطابع، عندما كان متواجدا بمحلته بمدينة الكاف ينظم شؤونها خشية تجدد الحرب، حيث عرض عليه الصلح و إقامة تحالف عسكري يدرأ بواسطته الخطر عن الإيّالتين حسب زعمه، وكأنه في منصب الداي أو هو مستقل بحكمه، و لكن صاحب الطابع اعتذر لكون الأمر ليس من اختصاصه، و راسل الأخير حمودة باشا للنظر في الأمر، إلاّ أنّ الباي رفض لكونه يشك في نوايا الباي الجديد لبايليك قسنطينة[3]، و نجد أن النتيجة واحدة لهذه الفتنة و هي مقتل الداي أحمد باشا، من طرف الإنكشارية، و اعتلاء علي باشا الغسال للحكم، في رمضان من عام 1223هـ/1808-1809م[4]. فهل سيستطيع الداي الجديد مواجهة أعدائه في الخارج ليضمن استمراره في الحكم دون اثارة غضب الجند.

---

(1) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 126.
(2) غطاس عائشة، المرجع السابق، ص214.
(3) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص ص286 -287.
(4) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 127.

6- الاستعدادات الحربية بعد عام 1808م:

سبق لحمودة باشا في المعركة السابقة أن خَيَّرَ الأسرى الجزائريين ذوي الأصول العثمانية بين البقاء في خدمة باي تونس أو العودة إلى الجزائر، ولكنّ أكثرهم اعتبر ذلك معروفا لم يكن يخطر على بالهم وطلبوا العودة إلى الجزائر. و هنا نلاحظ أن سبب إقدام الباي على هذا الفعل هو محاولته إقناع داي الجزائر بأن يطلق أسرى تونس، و الذين تم إطلاق سراحهم فيما بعد.

أطلق سراح خمسمائة أسير جزائري، و كان لهذه الحادثة وقع كبير على نفس الداي الذي اعتبرها إهانة كبيرة له، وسانده أعضاء الديوان في ذلك، حيث أعاد على متن السفن نفسها حوالي مائتي أسير تونسي من الكرغولية غير أنه احتفظ بالجنود ذوي الأصول العثمانية الخالصة [1]. و حسب رواية الشريف الزهار فإنّ داي الجزائر نفى الجند الإنكشاري و لم يحتفظ بهم، على عكس ما قاله صاحب الحوليات التونسية، الذي استند في حديثه عن ذلك على ما رواه ابن أبي الضياف. و مهما يكن من أمر الأسرى، فإنّ حالة الاحتقان لدى داي الجزائر، كانت في ذروتها لعدة أسباب نذكر منها:

أ- سلوك حمودة باي الذي لم يعجب داي الجزائر أحمد باشا.

ب- الهزيمة التي مُنيَ بها جيش الجزائر، من جراء خيانة حسن باي قسنطينة.

ج- ثورة قسنطينة التي أحدثها أحمد شاوش[2]، فضلا على تحالفه مع باي تونس[3].

عَمِلَ الداي على استجماع قواه، و الاستعداد للهجوم ثانية على تونس، لإخضاع هذا الباي المتطاول عليه حيث توجّهت المحلة إلى قسنطينة، وفي المقابل جهّز الباي التونسي محلته بقيادة صاحب الطابع وسليمان كاهية اللذين غنما في المرة السابقة محلة الجزائر، لعلهما في هذه المرة سينتصران انتصارا ساحقا ينهي حالة التبعية للجزائر و كان ذلك في 1223 هـ/ جوان1808م، و لما تحقق جند الجزائر من كثرة جنود المحلة التونسية رجعوا وبقيت المحلة التونسية مرابطة، حتى تأكدت من أمر الرجوع و رجعت هي كذلك، و لم تقم الحرب بين الطرفين، و لكن الداي لم يستكن بل فكر في مهاجمة تونس عن طريق البحر[4].

---

(1) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 286.

(2) مجهول، تاريخ بايات قسنطينة...، المصدر السابق، ص35.

(3) عميراوي احميدة، المرجع السابق، ص ص45.46.

(4) ابن أبي الضياف، المصدر السابق, مج2، ج3، ص 50.

7- أول حرب بحرية بين الإيالتين1224هـ/1811م:

شكّل الأسطول البحري الجزائري أهم أَذْرُعْ الأسطول العثماني، في البحر الأبيض المتوسط. و قد قدم نموذجا من التعاون الفعّال مع الأسطول التونسي ضد القوى الأوربية عامة و البندقية خاصة، في كم من مناسبة، وكان السبب الرئيسي لهذا التعاون هو الانهزام في موقعة فالونا، حيث تمّ الانتقام من البنادقة، بإعلان الحرب عليهم، بداية من عام 1645م[1]، غير أن الأمور تغيرت فيما بعد.

اشتهر من بين قباطنة الجزائر في هذه الفترة عدد كثير، و لعل أشهرهم هو الريّس حميدو [*]. و في سياق الصراع بين الإيّالتين تكون هذه أول معركة بحرية جرت، بطلها هذا القبطان حيث أسر في إحدى غزواته ضد النصارى، سنة 1225هـ/ 1810م، مركبا تونسيا موسوقا بالشاشية، التي كانت إيّالة تونس تشتهر بصناعتها و كانت هناك عداوة بين الإيّالتين رغم أن الحرب بينهما قد وضعت أوزارها، ولكن ذلك لم يثن الريّس الجزائري على أخذ هذا المركب و الاستيلاء على ما فيه من بضائع [2]. تعد هذه الحادثة ما هي إلاّ بداية للمعركة القادمة حيث أمر داي الجزائر علي باشا، (1809- 1815م)، الريّس حميدو بتجهيز 04 من سفن اللنجور الكبيرة و 06 مراكب أخرى، لأخذ جزيرة جربة التونسية التي كانت قد استرجعتها من طرابلس، عام 1014هـ/1604م[3]. و هناك من يقول أن عدد المراكب 12 و 15 لنجور وعندما نزل بها الريّس حميدو و جنوده فرّ أهلها منها، و بقوا بها مدّة من الزمن و ارتحلوا ولم تذكر المصادر أمر الغنائم[4].

لما بلغ هذا النبأ مسامع باي تونس أمر بتجهيز أسطول بحري يتألف من 14 قطعة بحرية، و جعل على رأسها القبطان محمد ريس المورالي، الذي أبحر، في يوم 14 ربيع الثاني 1226هـ/ 07 ماي 1811م، و كانت في هذه الفترة أكثر رياس البحر التونسيين من الأرناؤوط، الذين سئم منهم البحارة لكونهم عنصرا أجنبيا، ولم تشفع لهم خبرتهم في مجال البحار من أن ينالوا قدرا من الاحترام. و مهما يكن من أمر فقد التقى الجمعان بجزيرة قرقنة، و يقال أنهم التقوا قبالة ساحل مدينة سوسة و وقع بينهما القتال، حيث أسر الريّس حميدو إحدى السفن، و لاذت الأخرى بالفرار، ولم يكلف نفسه عناء مطاردتها[5].

---

(1) الساحلي خليل، الصراع بين قراصنة تونس و الجزائر والبندقية، في القرن السابع عشر، المجلة التاريخية المغربية، العدد4، تونس1975م، ص106.

(*) بحار من أصل جزائري، أعاد أمجاد البحرية الجزائرية، في زمن وجيز توفي في جوان 1815م. أنظر: دوفو ألبير، الريّس حميدو، تعريب الزبيري محمد العربي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، د ت، ص21.

(2) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص132.

(3) فيرو شارل، المرجع السابق، ص135.

(4) السلسلة التاريخية، الملف384، المصدر السابق، ص107.

(5) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 132.

– نتائجها:

يرجع سبب الهزيمة التي حلت ببحارة تونس في هذه المواجهة البحرية بين الطرفين، إلى تقاعس جنود البحرية التونسية في محاربة المراكب الجزائرية، لكرههم الشديد للريّس التونسي محمد المورالي. حيث تركوه منذ البداية في مواجهة الهجوم، و مصيره المجهول، و بالمقابل كانت جرأة الريّس حميدو و خبرته القتالية في إدارة المعارك هي الفاصل في المعركة. و من بين أهم نتائجها نذكر:

أ– تم أَسْرْ الريّس التونسي و خادمه و أَخذ مركبه، بعدها عاقب الباي حمودة بحارته، الذين وُصفوا بالخونة على صنيعهم، حيث نفاهم إلى قرى جنوب تونس(1).

ب– زيادة حماس الجزائريين بعد نيل هذه الغنائم، وبالتالي أعلن داي الجزائر الحرب على تونس، بعد إعلام الدول الصديقة بذلك(2).

ج– مقتل 41 بحارا جزائريا و230 بحارا تونسيا، و أسر الريّس حميدو سفن تونسية عاد بها إلى مرسى مدينة الجزائر منها مركبا ذو 38 مدفعا(3).

د– وصول مبعوث من اسطنبول، في الخامس مارس 1812م، و بحوزته أمرا سلطانيا يحمّل حكّام الإيّالتين على التخلي عن الحرب بينهما(4).

هـ– إرسال داي الجزائر إلى باي تونس، مبعوثا خاصا ليخطره بأمر التهديد الذي بات يشكله عليهم، و يطلب منه أداء ما عليه من الأموال، و هدم قصر الكاف الذي يعد رمزا للحرب، كما طلب منه عدم رفع لواء تونس إلى أكثر من نصف السارية(5).

و– اتخاذ الصراع بين الإيّالتين منحا جديدا، بتطور المواجهة من البرية إلى البحرية، بعد رفض الباي التونسي للشروط الجزائرية التي يراها غير منطقية.

---

(1) ابن أبي الضياف أحمد، المصدر السابق، مج2، ج3، ص 51.

(2) فايست أوجين، المصدر السابق، ص ص157- 158.

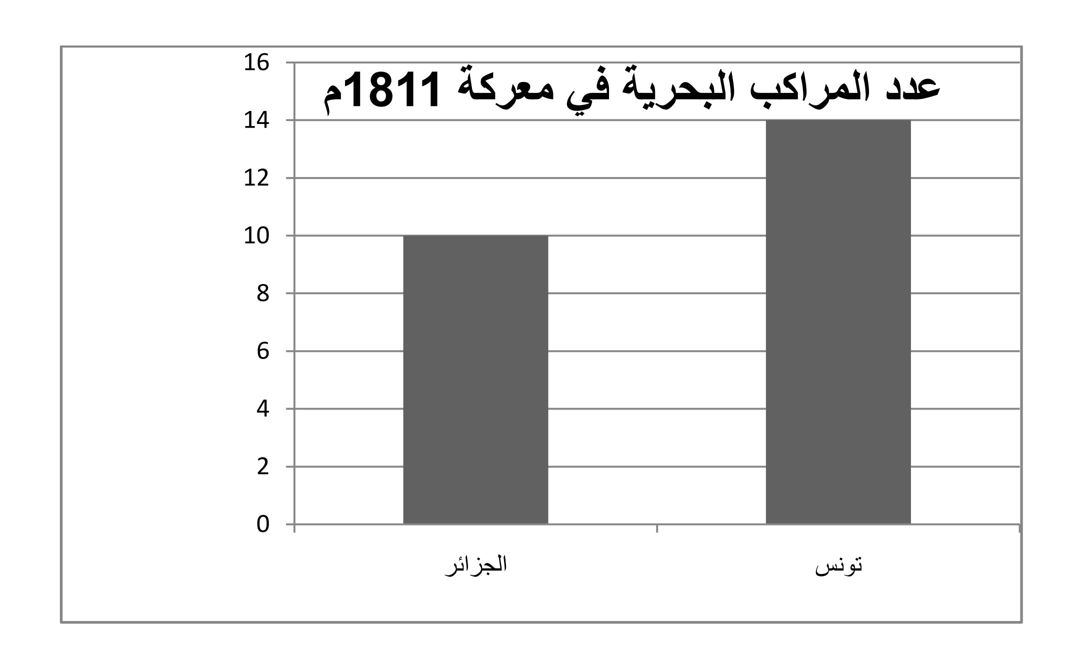
(3) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 289.

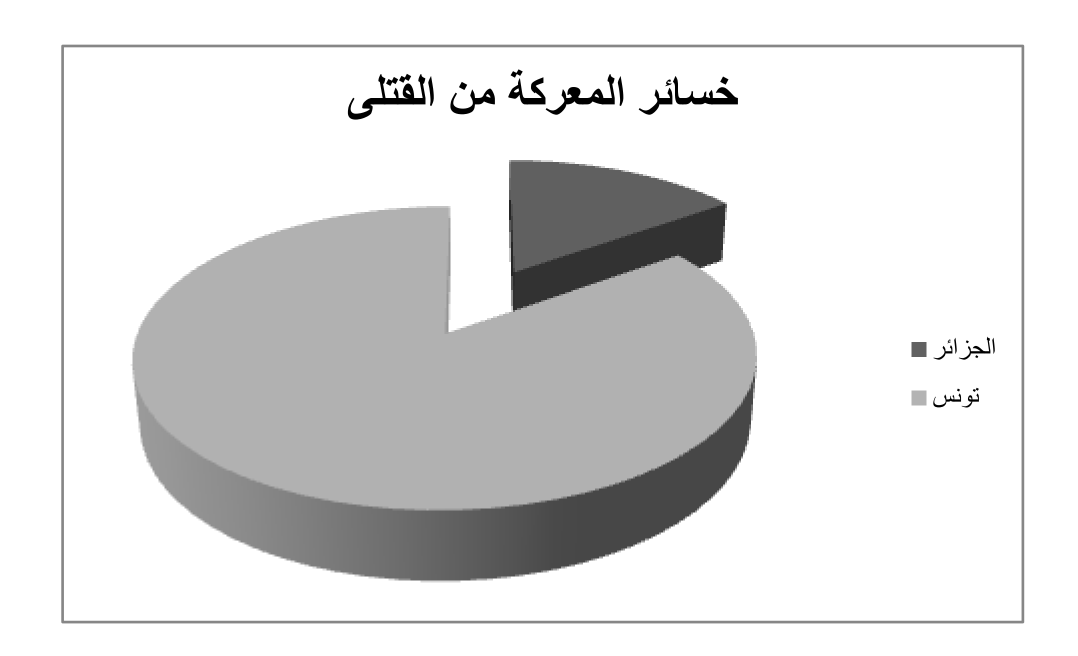
(4) Broughton, Six years residence in Algiers, London, Saunders and otley, 1839, pp 248-249.

(5) فايست أوجين، المصدر السابق، ص 158.

- عدد المراكب البحرية الجزائرية و التونسية في أول معركة بحرية بينهما، ونتائجها على الطرفين.

المراكب والقتلى / الإيّالة	الجزائر	تونس
عدد المراكب البحرية	10	14
عدد القتلى من البحارة	41	230





نلاحظ أن عدد المراكب التونسية كان يفوق نظيرتها الجزائرية، و رغم ذلك انتصر الجزائريون في المعركة، و عدد القتلى من الجانب التونسي يوضح ذلك، فقد بلغ عددهم 230 شخصا، فهو ضعف قتلى الجانب الجزائري ستة مرات الذي بلغ41بحارا.

8- المواجهة البحرية الثانية1226هـ/1811م:

يبدو أنّ الريّس حميدو كان يعي ما يفعل في المرة السابقة حينما ترك السفن التونسية في حالة الفرار، حيث تجنب الدخول معها في حرب شاملة، لقربها من السواحل التونسية. و كله عزم على إعادة الكرَّة للاستيلاء على ما أمكن من السفن و الغنائم مرة أخرى، و عليه جهز 16 مركبا، و أبحر باتجاه تونس، و بالضبط إلى حلق الوادي حيث أمطرها بالقنابل محدثا فزعا كبيرا بين سكان المدينة، و أجبرهم على الفرار، و فعل مثل ذلك بمدينة تونس هي الأخرى، بعدها رجع قافلا إلى الجزائر. و لم يُذكر أمر الغنائم التي تم جلبها، و لابد أنها كانت كثيرة، لأنّه لم يذكر كذلك مقاومة السكان لهذا الهجوم البحري، و من المستبعد أن يجد ميناء المدينة خاويا بدون سفن فالغرض من هذا الهجوم هو جلب الغنائم، وإرباك باي تونس[1].

توالت هجمات البحارة الجزائريين على تونس، و كان لها مفعول كبير في زيادة ثراء هذه القوات الغازية و أثر سيئ على المدن التونسية الساحلية. و السؤال المطروح هنا: أين هو دور الباي حمودة باشا من سلسلة هذه الهجمات؟ و هو الذي تجرأ سابقا على قطع الأداءات المالية و مهاجمة مدينة قسنطينة، بل فكّر مرارا و تكرارا في أخذ هذا البايليك الشرقي بأسره.

يظهر لنا أن الجواب يكمن في أن الرجل كان يعاني من اضطراب في حكمه، وعلى أية حال فقد شارف على نهايته، فالمؤامرات أصبحت تحاك ضده، ففي 30 أوت 1811م[2]، كاد أن ينتهي حكمه و حكم أسرته و إلى الأبد؛ ذلك أن هذا الباي و أبوه من قبله قامت سياستهما على تقوية الجيش بالعناصر العثمانية، لما أظهره هؤلاء الجنود من كفاءة عالية و مهارة فائقة في القتال، و هذا ما نلمسه في عسكر الجزائر أيضا. و بمرور الزمن وُلِدَ لهؤلاء العسكر أولاد وهم الكراغلة، و لم يستطع الباي إدخال هذه العناصر إلى الجيش، و عليه خطط الكراغلة لإعلان الثورة، غير أنّه لم يكتب لها النجاح، و أدت بالباي إلى إعادة النظر في تصرفه تجاه العسكر، بإدخال عناصر محلية من الزواوة[3]. و هناك من يرى أن قوة حمودة باشا تعود لاعتماده على هذه العناصر دون العناصر الإنكشارية، كما يجب الإشارة إلى أن هذه الفئة من الجند لم تكن كلها ضعيفة، وإنما لم تكن ترغب في قتال إخوانهم من جند الجزائر، وكان همها الوحيد هو الحصول على الغنائم بأقل الخسائر[4].

---

(1) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص133.

(2) روسو أ لفونسو، المرجع السابق، ص241.

(3) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، مج2، ج3، ص 54.

(4) رشاد الإمام، المرجع السابق، ص429.

9- محاولة السيطرة على تونس1226هـ/ 1812-1813م :

تولى الداي علي باشا الحكم (1809- 1815م)، مباشرة بعد علي باشا الغسال؛ ذلك أن الاضطرابات التي حدثت بتونس أغرت الجزائريين، و زادت من أطماعهم للسيطرة على تونس على حين غرّة، فقد رأى هذا الداي ضرورة تجهيز محلتين للإيفاء بالغرض، واحدة تكون عن طريق البحر، و الأخرى عن طريق البر. وعليه أمر باي قسنطينة محمد بن نعمان(ماي 1811- 1814م) بتجهيز محلة كبيرة بمعية عمر آغا، ولكنّ العلاقة بين الرجلين لم تكن على ما يرام، لأسباب شخصية سابقة، مما سيجعل الآغا يستغل الظروف للظفر بمنصب الباي و إزاحة غريمه في أول فرصة ستسمح بذلك، ولكن ليس قبل أن يكون هذا الأخير في موضع حرج، و ما أكثر هذه المواضع التي فَقَدَ فيها حكام الجزائر أرواحهم.

يعود سبب الخلاف بين الرجلين إلى اغتيال باي قسنطينة لأخ عمر آغا، قبل أن يتولى الأخير هذا المنصب[1]. و مهما يكن من أمر فيبدو أن الداي كان عازما على اكتساح تونس و أخذها عنوة بحشد أكبر عدد من الجنود، يظهر ذلك من خلال مراسلته لباي وهران محمد بن عثمان بوكابوس(1809- 1813م)، يدعوه فيها للمشاركة في العملية، غير أنّ أخبارا غير سارة وصلت الداي تفيد بأن باي وهران قد خرج عن طاعته، حبّا في المال أو كما يرويه أصحاب المصادر بأنه خضع لرأي حاشيته التي أغرته بالانفصال عن داي الجزائر، بعد أن وعده الملك مولاي إسماعيل المغربي بالمساعدة[2].

جعلت هذه الأحداث الداي في حيرة من أمره، ولكنه رأى أنه من الضروري توجيه عمر آغا للفتك بالباي بوكابوس على إثر هذا التمرد، حيث تم للآغا عمر ذلك. إن هذه الحادثة كانت قد أخرت انطلاق المحلة الجزائرية نحو تونس. و مهما يكن فإن محلة البحر قد تم تجهيزها على قدم وساق و كانت تضم 64 مركبا، حيث أبحرت صوب عنابة و في طريقها أجمع الريّاس على أنهم سيقصدون حلق الوادي، و تعاهدوا على أن لا يقاتلوا إلاّ من قاتلهم[3]، و عندما وصلت المحلة الجزائرية إلى السواحل التونسية، هاجمتها اللنجور التونسي المقدر عددها 100 قطعة، يذكر بعض المؤرخين أن عددها كان 175، و الفرق بين العددين كبير، و على كل هي تتفق في أنها ذات مدفع واحد، و منها ما تحمل مدفعين، و ذكر أنّ عدد المراكب الجزائرية 19 مركبا فقط، و كان يوم اللقاء هو 13 رجب 1227 هـ/ 23 جويلية 1812م[4].

---

(1) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص ص134-135.

(2) ابن عبد القادر مسلم، تاريخ بايات وهران المتأخر، تحقيق و تقديم بونار رابح، ش و ن ت ، الجزائر1974م، ص28.

(3) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص136.

(4) ابن أبي الضياف أحمد، المصدر السابق، مج2، ج3، ص58.

أوشكت المحلة الجزائرية أن تُهزم بمحاولة فرارها، ولكن الريّس حميدو أمرها بالاستقرار و الدفاع لرد كيد المهاجمين، وبالفعل فقد تم إبطال الهجوم التونسي، حيث ولّى الأدبار هاربا، و لم يحدث بين الطرفين قتال كبير يذكر وعليه غادرت المراكب الجزائرية للتو نحو الجزائر. و في تلك الأثناء كانت محلة البر قد تجاوزت الحدود الشرقية، ودخلت البلاد التونسية، و عند وصولها إلى بلدة الكاف ضربت حصارا حولها في جويلية 1813م[1]. و حدثت مناوشات بين الطرفين لم تؤد إلى اشتباكات عنيفة، كما عَلِمَ قائد الجيش الجزائري بأن المحلة البحرية قد رجعت إلى الجزائر؛ دون تحقيق هدفها[2]. و من أسباب الإخفاق نذكر:

أ- تأخر محلة البَّر لانشغالها بقمع تمرد باي وهران.

ب- غياب التنسيق بين المحلتين في كيفية شنِّ الهجوم و توقيته بسبب الخلافات بين القادة.

ج- اكتشاف داي الجزائر مساعدة الفرنسيين للجيش التونسي، بالجنود و الأسلحة.

د- رفض داي الجزائر للتراجع الذي طلبه قائد المحلة، نتيجة للأسباب السابقة، فضلا عن خيانة شيوخ العرب[3].

تجدر الإشارة إلى أنّه أثناء بقاء الأسطول الجزائري قبالة مرسى حلق الوادي، سَلّمَ الريّس حميدو رسالة للباي حمودة باشا، أراد من خلالها عقد الصلح بين الإيّالتين، بشروط جزائرية. أهمها: الالتزام بدفع كميات من الزيت للجزائر، و لكنّ الباي رفضها في البداية، ثم وافق عليها شريطة عدم التزامه بأي شيء آخر طالما كانت الشحنات لإضاءة مساجد مدينة الجزائر، يقال أنه من هذه اللحظة بالذات تخلص بايات تونس من الأداءات المالية التي كانت حملا ثقيلا عليهم[4].

وهكذا فشل داي الجزائر في الاستيلاء على تونس، و لكنّ الذين دفعوا ثمن هذا الفشل هم من المخلصين إليه وعلى رأسهم الباي محمد بن نعمان باي قسنطينة حينما أمر الداي بقتله، وهو يقوم بمهامه كالمعتاد، إرضاءا وطاعة لسيده، و لم يخطر على باله أن سيده هذا هو الذي أمر بالتخلص منه جراء ما لحقه من الوشايات على يد غريمه عمر آغا للأسباب التي أوردناها سابقا[5].

---

(1) فالنسي لوسيت، المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790- 1830م، ترجمة مرقص إلياس، ط1، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت لبنان 1980م، ص12.

(2) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص135.

(3) فايست أوجين، المصدر السابق، ص ص158-159.

(4) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 300.

(5) مجهول ، تاريخ بايات قسنطينة...، المصدر السابق، ص 68.

10- توتر العلاقات ونذر قيام حرب جديدة1813-1820م:

عادت المحلتين الجزائريتين البريّة والبحريّة إلى أرض الوطن، إلاّ أنّ ذلك لم يثن الطرفين على مواصلة الحرب بينهما و ظلت العلاقات مضطربة كأمواج البحر، الذي أصبح ميدانا للحرب الجديدة بين الجانبين و كأنّ الحرب البرية لم تعد تجدي نفعا، أو كأن الانتصار البحري شبه مؤكد بالنسبة لداي الجزائر، طالما كان مصدرا للغنائم التي ستعوض ما فقدته الجزائر من أموال سواء في الحرب المعلنة، أو من جراء امتناع الباي التونسي عن دفع ما عليه.

لكن إرادة حكام الإيّالتين كانت تتوق لرأب الصدع و إنهاء حالة الحرب، و حتما ستكون على حساب أحد الطرفين[1]. لأسباب عديدة تخص الجانبين كذلك و سنذكر منها:

أ – طول فترة الحرب بين الجانبين، لم تكن ذات فائدة كبيرة؛ بل على العكس من ذلك تماما فقد جلبت لهما الدمار و الخراب و أضعفت قوتيهما.

ب – تعكّر صفو العلاقات بين الإيّالتين من جهة و الدول الأوربية من جهة ثانية، بسبب الاضطرابات التي شهدتها أوروبا في هذه الفترة من جراء حروب نابليون بونابرت في القارة الأوربية.

ج – تعالي أصوات من دعاة الصلح بين الإيّالتين، و حتى من قبل سلطان الدولة العثمانية، و لكن تعنت الباي التونسي حال دون الأخذ بهذا الرأي، فلطالما اعتبر بايات تونس وطرابلس أنفسهم مستقلين عن دايات الجزائر[2].

د- اضطراب الأوضاع في الجزائر قبيل حكم الداي علي باشا، نتيجة لما آلت إليه الأمور بسبب تسلط اليهود وسيطرتهم على جزء كبير من تجارة الجزائر الخارجية[3].

هـ- اجتياح المجاعة للبلاد التونسية، نتيجة سيادة الجفاف، حيث اضطر الباي إلى طلب كميات من القمح من المغرب بعد أن كان يصدره لأوربا[4].

و مهما كانت هذه الأسباب فإن حالة التوتر لا زالت تلقي بضلالها على مستوى العلاقات، فهل سَيُغَلِبْ حكام البلدين العقل و ينهيان الصراع في أول فرصة تتاح لهما؟ أم أن عزة النفس و الكبرياء لن تترك لذلك سبيلا؟

---

(1) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 299.

(2) المودن عبد الرحمن و بنحادة عبد الرحيم، العثمانيون في المغارب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية، ط 1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المغرب2005م، ص207.

(3) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص79.

(4) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص 138.

10. أ- محاولة بحرية الجزائر لإخضاع باي تونس1813م:

حقّق الأسطول الجزائري انتصارا على سفن تونس بمرسى حلق الوادي، و يبدو أن هذا الانتصار لن يتكرر ثانية، و ذلك لعدة اعتبارات أهمها: أن الأسطول كان هدفه دائما مرسى حلق الوادي؛ حيث عمل حمودة باشا على تحصينه جيدا بالمدفعية و استطاع أن يرد الهجوم البحري الثاني. و هكذا لم تكن الحرب البحرية التي خاضتها الجزائر ضد باي تونس ذات فائدة كبيرة. عندها عزمت الجزائر على العودة إلى الحرب البرّية فقد كانت القوات مرابطة على الحدود مع إيّالة تونس، وبالمقابل كانت قوات تونس تراقب الأوضاع عن كثب بتواجدها بمدينة الكاف مركز تجمعها و اقتصرت الحرب على مناوشات بين الجانبين لم تأت بنتائج تذكر[1].

نلاحظ أنّ هذه الاستعدادات لم يتم التطرق لها من قِبَلِ المؤرخين التونسيين، وحتى المؤرخ الجزائري الشريف الزهار. مع أنّ هذه الفترة عرفت المواجهة البحرية السابقة الذكر وانتهت دون تحقيق نتائج هامة خاصة بالنسبة للطرف الجزائري. أما الأوضاع في البلدين فحتمت هي الأخرى على الطرفين إنهاء حالة الصراع و لو لبرهة من الزمن ونذكر منها:

أ- وفاة الباي حمودة باشا، في 01 شوال 1229هـ/ 16 سبتمبر 1814م[2]، بعد أن حكم اثنين و ثلاثين عاما كرس جهوده فيها لقطع التبعية للجزائر حتى و إن اضطر إلى تقديم شحنات من الزيت، متحججا بأنها لإنارة المساجد ولكنها تبقى رمز للخضوع.

ب - توتر العلاقات بين الجزائر و الولايات المتحدة، ثم مع الإنجليز[3]، و بين تونس وفرنسا بسبب اليهود[4].

ج- تغيير قيادة الإيّالتين ففي إيّالة الجزائر آل الحكم إلى الداي عمر باشا (1815-1817م)، أما تونس فقد حكمها الباي عثمان بن علي باشا بن حسين بن علي، ولم تدم فترة حكمهما طويلا.

د - تمكن إيّالة الجزائر في هذه الفترة، من عقد الصلح مع الفلامنيك و الإنجليز بشروط جزائرية، رغم الأصوات التي كانت تعلو يوما بعد يوم ضدها[5].

---

(1) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص301.

(2) ابن أبي الضياف أحمد، المصدر السابق، مج2، ج3، ص88.

(3) Pellissier (E), Annales Algériennes, T1, Paris, libraires pour L'ART, Militaire, 1836, p16.

(4) Grand champ(Piérre), Auteure de consulat de frans a Tunis (1577_1881),Tunis, imprimerie j. aloccio, 1943, p171.

(5) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 155.

نرى أنّ هناك أحداثاً كثيرة غفل عن ذكرها مؤرخي الدولتين لسنا ندري لماذا، و قد ذكرها صاحب الحوليات التونسية. إنّ هذه الأحداث كانت تدل على توتر العلاقات بين الإيّالتين، و استمرار مظاهر الصراع الذي لم تنفك أواصره عن الانقطاع، رغم المساعي الحثيثة لإنهائه، سواء من قبل عقلاء الإيّالتين أو حتى من لدن الدولة العثمانيـــة. و من مظاهر هذا الصراع استمرار دايات الجزائر في مطالبة بايات تونس بدفع ما عليهم من الالتزامات [1]، و نحن قد ذكرنا أنهم تخلو عنها، بالمقابل ظل هؤلاء يمتنعون عن ذلك بل يرفضونه بشدة، تتجلى أسباب ذلك في أن الطرفين كانا في ضائقة مالية.

ظلت العلاقات بين البلدين قائمة رغم حالة الحرب بينهما، ولكن تغيير حكّام البلدين خاصّة في تونس لم يكن ليترك الأمور تستقر، كما أن بايليك قسنطينة شهد اضطرابات في هذه الفترة [2]، أدت بداي الجزائر في منتصف سنة1814م، إلى التفكير في ضم مدينة الكاف، ليشغل بايات تونس عن التفكير في مهاجمة الجزائر، لكن مشروعه هذا باء بالفشل [3]. و على الرغم من ذلك كانت هناك محاولات للصلح، لعل أبرزها في هذه الفترة إرسال داي الجزائر علي خوجة برسالة إلى باي تونس محمود باشا، يحثه فيها على نبذ الخلافات.

بينما كانت الشروط التي طالما اعتبرها الجانب الجزائري حقّا من حقوقه، لتدع الطرف التونسي قبول الصلح، فإنّ هذه الشروط والتي من أهمها دفع الأموال كانت تَرْضية لأعضاء ديوان الجزائر الناقمين على الداي؛ من جراء الصلح المهين الذي عُقِدَ مع الولايات المتحدة، و حتى الأضرار التي لحقت بالجزائر نتيجة الحملة الإنجليزية بقيادة الأميرال إكسماوث. ولعلها كانت تَنُمُّ على خوف الداي من عاقبة لا تحمد، أخفها إزهاق روحه [4]. ومن جملة هذه الشروط نذكر:

أ – إعادة العلاقات إلى سابق عهدها و تسديد تونس ما عليها من إتاوات لخزينة الجزائر.

ب – هدم تونس جميع التحصينات التي وضعتها على حدودها الغربية مع الجزائر خاصة في مدينة الكاف.

جـ – تخلي تونس عن الاستعدادات الحربية التي يراد من خلالها استهداف الجزائر.

و في ختام الرسالة هدد الداي علي خوجة باي تونس، إذا لم يوافق على هذه الشروط سوف يعلن عليه الحرب[5].

---

(1) فايست أوجين، المصدر السابق، ص158.

(2) مجهول، تاريخ بايات قسنطينة، المصدر السابق، ص37.

(3) التميمي عبد الجليل، بحوث و وثائق في التاريخ المغربي، تونس الجزائر ليبيا 1816م-1871م، ط1، الدار التونسية للنشر، تونس1972م، ص238.

(4) المرجع نفسه، ص236.

(5) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 316.

10.بــ- توتر العلاقات:

واصل باي تونس استعداداته الحربية، تحسبا لأي طارئ، و قد بدأ بتجهيز المراكب البحرية و إصلاح ما هو عاطل منها، بالإضافة إلى الترتيبات التي تسبق عادة حالة الحرب [(1)]. غير أننا نجده قد أرسل مبعوثا وهو أحمد قبطان المورالي للأستانة بشأن الصلح مع الجزائر، في سنة 1231هـ[(2)]. و في هذه الآونة شهدت الجزائر تمرد كبار ضباط الإنكشارية الذين قتلوا الداي عمر باشا، و الأوضاع كانت سيئة للغاية، نتيجة لترسبات عديدة أهمها:

أ – انعقاد مؤتمر فيينا إبتداءًا، من أواخر 1814م إلى غاية منتصف سنة 1815م، و الذي نوقشت على هامشه قضية ما تسميه القوى الأوربية بالقرصنة الجزائرية.

ب – عقد الصلح مع الولايات المتحدة الأمريكية- وهي التي قتلت الريّس حميدو- دون فوائد تذكر.

ج – تحطم الأسطول البحري الجزائري، في حملة إكسماوث فضلا عن الخسائر التي طالت مدينة الجزائر.

د- حدوث فتنة كبيرة في حكم الداي عمر باشا، بسبب إقدامه على قتل بايات البايليكات الواحد بعد الآخر، دون مراعاة استقرار الإيّالة في هذه الظروف العصيبة.

آل الحكم إلى الداي علي خوجة (1817- 1818م) و من جملة التدابير التي قام بها تحويل مقرّ الحكم من الجنينة إلى أعالي القصبة[(3)]. و بدأ بشنّ حملة انتقام واسعة على المقربين من الداي السابق، حيث أثخن في قتلهم و مصادرة ثرواتهم الواحد تلوى الآخر، و هناك من بينهم من فرَّ إلى تونس حيث أعطاهم الباي عهد الأمان و كان وصلوهم 26 – 09 -1817م، زاد هذا السلوك من نقمة داي الجزائـر، مما سيـؤدي إلى توتر العلاقات مجددا. لكن على الرغم من ذلك فإن الداي كانت لديه رغبة حقيقية في إقامة الصلح؛ حيث أرسل مبعوثا في 1817م للباي التونسي و تم الاتفاق على إنهاء التوتر، حيث تخلى الداي على مطالبه المالية [(4)]، و قد أكد السلطان العثماني ذلك بفرمان جاء فيه بأنّ الجزائريين يريدون الصلح مع تونس، لأن بلادهم خُرّبت بهذه الحرب، و أردف قائلا بأنّ الجزائريين خرجوا عن دائرة الصواب[(5)].

---

(1) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص317.

(2) السلسلة التاريخية، الملف354، الحافظة221، الأرشيف الوطني التونسي، ص2.

(3) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 161.

(4) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص330.

(5) خط همايون، رقم33301، تاريخ1230هـ، تعريب طونا فكري، الأرشيف الوطني الجزائري، العلبة23، ص2.

10.ج – وساطة الباب العالي وعقد الصلح 1232هـ/1817م:

حرصت الدولة العثمانية على عقد الصلح بين الإيّالتين الجزائرية و التونسية، ففي عام 1812م، أرسل السلطان العثماني فرمانا مع المبعوث أحمد بيجان بك، ولكن القائمين على حكم الإيّالتين في تلك الفترة لم يضعوه حيز التنفيذ، ومما تضمنه الفرمان هو أمر لحاكم تونس بأن يؤدي ما عليه من هدايا لداي الجزائر، كما جرت العادة و ذَكّره بما كان يدفعه أسلافه للجزائر بدون خجل، كما وضح أن الرسالة (الفرمان) وقعت خارج تونس ومن ثمة حصل عليها ابن الباي الذي سلمها لوالده، حيث امتنع الأخير عن تنفيذ ما طُلب منه. و بَيَّنَ فرمان عام 1816م أن السلطان العثماني يسعى جاهدا لإقامة الصلح بين الطرفين، كما بَيَّنَ موقف تونس من أمر الهدايا، والذي يتمثل في موقف صريح لباي تونس و مواصلة رفضه تقديمها [1]. وهكذا لم يكتب لجهود السلطان العثماني النجاح على الأقل في هذه السنة.

حاول الداي علي باشا إقامة الصلح مع تونس، حيث بعث الحاج يوسف والشيخ العلامة سيدي علي النيكرو و الباش كاتب إلى تونس بكتاب يقضى بإقامة الصلح [2]، ويقال أنه تم فعلا بوساطة الباب العالي في غضون عام 1817م [3]، بسبب تخلى الطرف الجزائري هذه المرة عن مطالبه المتمثلة في الالتزامات التي كانت عبارة عن 250 جرة من الزيت، و 20 جرة من الصابون و الهدايا كالبرانس و العطور و الورود والشالات وغيرها، التي تقدر قيمتها الإجمالية بحوالي 150000 جنيه فرنسي [4].

يقول الشريف الزهار بأنّ الصلح لم يتم أصلا بين الطرفين، و برهن على ذلك مستندا على أنّه بعد هذه المحاولة أرسل باي تونس مراكب لضرب مدينة الجزائر، ولكنها لم تقترب من الساحل لخوف بحارتها من دفاعات الجزائر، على أن هذه الدفاعات لم تحرك ساكنا هي الأخرى، لفقدان معظم القطع البحرية في هجوم إكسماوث الانجليزي في العام الماضي، و عندما عاد بحارة تونس كذبوا على سيدهم الباي بأنهم ضربوا المدينة و أحدثوا فيها خسائر كبيرة، غير أنه لم يصدق ذلك، بعدها أمر بتجهيز مراكب أخرى لإعادة الكَرّة ثانية؛ و يبدو من محاولاته هذه أنه كان يستغل ضعف الجزائر و انكسارها و فقدان أشهر بحارتها ومعظم مراكبها، وهكذا هبت عاصفة هوجاء خربت هذه المراكب في بلدة رادس و وَأَدَتْ المحاولة في مهدها [5].

---

(1) خط همايون، عدد31210، تاريخ 1231هـ، تعريب طونا فكري، الأرشيف الوطني الجزائري، العلبة 24، ص ص 1– 2.

(2) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص169.

(3) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص142.

(4) هلايلي حنيفي، المرجع السابق، تهميش ص 52.

(5) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 169.

10.د- حادثة عبور سرية فرسان جزائرية للأراضي التونسية1235هـ/1820م:

عُقِدَ الصلح بين الإيّالتين و على الرغم من ذلك فإن النفوس لم تهدأ، و ظَلّ الجانبان يرقبان بعضهما بعضا و يتوخيان الحذر، و لكن الخوف كان سيد الموقف لدى الباي التونسي؛ لأنه يعرف جيدا طبيعة خصمه، ففي إحدى المرات عَبَرَتْ مجموعة من الفرسان الجزائريين الحدود الشرقية إلى داخل إيّالة تونس، في مارس 1820م. و عليه دخل الباي وحاشيته في قلق وترقب شديدين، و ظن أن هذه المجموعة تكون سِرِّيَةً للمراقبة و الاستطلاع لتنفيذ هجوم شامل، و بدأت الاستعدادات الدفاعية بإرسال قوة عسكرية قوامها ألف فارس لمنطقة تواجد الجزائريين، كما أرسلت الأخبار لمحلة ابنه ببلاد الجريد تطلب منه الانضمام للدفاع عن الإيّالة.

سرعان ما تبددت مخاوف التونسيين، بعد رجوع الفرسان الجزائريين إلى بلدهم، محملين بأعداد من الأسرى وقطعان من الماشية. كانت هذه الحادثة قد أوقعت رجة من الهلع و الخوف في قلوب الأهالي و الباي. عندها أوقف الباي تدابيره الدفاعية و عادت الأمور كما كانت، و بقى الحذر قائما، لعل الجزائر تشن هجوما مباغتا. كما أنّ هذا الانتهاك لحدود الإيّالة التونسية سيشكل حجر عثرة أمام أيّ محاولة للصلح.

زادت شكوك الباي بنوايا الجزائريين؛ ذلك أنّ حادثة أخرى قد وقعت و أثرت على التقارب بين الجانبين وهي أنّ مركبا تونسيا كان راسيا بميناء مدينة الجزائر، لإفراغ حمولته، ولم يقم عمّال الميناء بإفراغه، و كذلك لم يسمحوا له بالمغادرة. وفي تلك الأثناء وصلت أنباء إلى صاحب المركب تفيد بأن الداي يريد مصادرة حمولته و القبض عليه حيث تأكّد له الأمر بعد أن رأى الجهود الحثيثة لتجهيز المراكب، في كل يوم بَقيه في الميناء. و في إحدى الليالي هرب صاحب المركب إلى تونس، و لما وصل أخبر الباي التونسي بنوايا الجزائريين، عندها تأكدت شكوكه و زاد من عملية الاستعداد للحرب[1]، و في نفس السياق استولى بحارة جزائريون في شهر جوان من السنة نفسها على سفن تونسية في عرض البحر لعلهم يحصلون على غنائم وفيرة[2].

كان الوضع التونسي يسير من سيئ إلى أسوء من شدة الترقب والخوف التي أحدثها الطرف الجزائري، فالتوتر بلغ أشده بعد الأحداث السابقة التي سردناها، وهنا يجب علينا أن نوضح بأنه لم تكن الجزائر وحدها هي التي تزعج الباي فالصادرات التونسية من القمح والشاشية هي الأخرى بدأت في التراجع بداية من عام 1820م مع أوربا وعليه أصبح الباي في موضع لا يحسد عليه[3].

---

(1) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص ص337 – 338.

(2) plantet (E), Correspondance des Beys de Tunis, op, cit, p579.

(3) هنية عبد الحميد، تونس العثمانية...، المرجع السابق، ص209.

10.هـ- عودة التوتر في البحر1236هـ/ 1820م:

صَبَّ الباي التونسي اهتمامه على تقوية حدوده البرّيّة مع إيّالة الجزائر، مع عدم إغفاله للجانب البحري و بينما كان كذلك حتى آتاه خبر، و مفاده أن مراكب الجزائر قد أَسَرَتْ له مركبين، وكان من بينهما مركب تحت قيادة حسّونة و رديان باشا و الآخر هدية من سلطان الدولة العثمانية، حيث تم جرهما إلى ميناء عنابة، و مما أقدم الجزائريون عليه هو إطلاق سراح كل من كان على ظهر المركبين، و أكملوا طريقهم إلى مدينة الجزائر [1]. و في هذه الآونة أمر باي تونس أسطوله البحري بالخروج، في عام 1236هـ/ 18- 10- 1820م، لمهاجمة الجزائر و استرجاع المركبين، و كان من جملة ما بعث من السفن التي تحمل الأسماء التالية : الفرقاطات – الهجينة – المحرزية – الإسلامبولية.

أمر داي الجزائر بعد أن وصلت المراكب الجزائرية و بحوزتها المركبين ببيع واحد منها، أمّا الآخر الذي كان هدية السلطان العثماني للتونسيين فأمر بإرجاعه لتونس وذلك بعد أن تمت مصادرة حمولتهما القيّمة. و بالمقابل عندما خرج الأسطول التونسي وضع في الحسبان تعقب بحارة الجزائر ما بين ميناء ليفورنة و جزيرة سردينيا، و جاب معظم مياه المتوسط حتى وصل جزر البليار، ثم مرّ قبالة السواحل الجزائرية مستعرضا قواه، لعله يجد لنفسه مجالا للنشاط بِحُرية تامة [2].

لم يعر بحارة الجزائر أدنى اهتمام لهذه المراكب؛ ربما لأنهم لم يعرفوا أصلا سبب تواجد هؤلاء حتى و إن كانت المراكب قد أطلقت عيارات نارية بمدافعها و لا نظن أنّ بحارة الجزائر لم يكونوا على أهبة الاستعداد لأي طارئ أو لم يكونوا هناك أصلا، لأن الفصل غير ملائم للإبحار. ومهما يكن من أمر فإن بحارة الجزائر كانوا يأتون بالسفن التونسية يجرونها من سواحلهم كحلق الوادي، فكيف إذا كانت لقمة صائغة أمامهم. أو ربما لم تكن لديهم نيّة في المواجهة ثانية مع تونس. و على العموم يعد هذا مكسبا معنويا بالنسبة لبحارة تونس، على أن غايتهم لم يتم الوصول إليها[3]. تجدر الإشارة إلى أن الجزائر في غضون هذه السنة كانت قد سّوت بعض مشاكلها مع فرنسا، التي تسبب فيها اليهود في إطار قضية الديون [4]، حيث ستركز فرنسا على هذه النقطة من الآن فصاعدا لإعادة خلق المشاكل فيما بعد تمهيدا لشن حملة على الجزائر[5].

---

(1) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 178.

(2) ذكر ابن أبي الضياف في كتابه الإتحاف المصدر السابق، مج2، ج3، ص134. بأن هذه السفن لم تخرج أصلا بسبب العواصف.

(3) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 339.

(4) Perrot (A. M), La Conquête d'Alger, ou Relation de La Compagne d'Afrique, Paris, H. Langlois Fils, Éditeurs, 1830, p12.

(5) أمين محمد، احتلال الجزائر سنة1830م الأصداء والأبعاد، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد30، تونس2004م، ص19.

10. و- وساطة الباب العالي1237هـ/1821م:

تُعَد حادثة أسر المركبين التونسيين و إخلاء سبيل البحارة كما أسلفنا، مبادرة طيبة تدل على حسن النية التي أبداها الداي حسين باشا (1818- 1830م) في إنهاء حالة التوتر و إبرام صلح دائم. و جاءت الفرصة المواتية للقيام بذلك بعد أن أرسل السلطان العثماني محمود الثاني (1808- 1839م) رسالة إلى داي الجزائر و باي تونس و كلفهما ببعث ممثلين عنهما إليه للنظر في قضية الحرب بينهما و كان الباي التونسي حريص على أن يبعث برجل يحسن تمثيل بلاده ذو لباقة عالية في الكلام و التعامل في مثل هذه المواقف، و لكن على العكس من ذلك فالداي حسين باشا أرسل رجلا لا يفقه في أمور السياسة كثيرا.

عندما وصلا المبعوثَيْنِ، أمر السلطان الصدر الأعظم بالنظر فيما أتيا من أجله، فدافع التونسي عن وضع بلاده أحسن دفاع. أمّا الجزائري فلم يستطع المرافعة على وضع بلاده وأسباب تهجمها على إيّالة تونس؛ لأنه كان رجلا غليظا ليس له تجربة في التفاوض، ولسنا ندري لماذا اختار الداي هذا الرجل، و على ما يبدو أنه كان رجلا عسكريا والعسكريون غالبا ما تكون طباعهم خشنة. و راح يتحدث عن أسباب العداوة مبينا أن للجزائر دور في تحرير تونس وعليهم أداءات يدفعونها كل عام و قد امتنعوا عن ذلك، عندها قرر الصدر الأعظم إرغام المَبْعُوثَيْنِ على التوقيع على شروط الصلح، و لما وصلا إلى بلديهما تم العمل بها(1).

قِيلِ أنّ الصلح تم، يوم الثلاثاء منتصف جمادى الثاني 1236هـ/ 20 مارس 1821م، و نص على رد جميع ما أُخِذَ للتونسيين من أموال و مراكب، حيث تم إطلاق المدافع إعلانا عنه (2)، و عليه تَمَّ إنهاء حالة الصراع المرير الذي بدأ مع القرن السادس عشر و استمر حتى القرن التاسع عشر ميلادي، بعد عجز جميع الأطراف على إقامة الصلح رغم الفرص التي كانت مواتية.

يروى أن السلطان العثماني قد أرسل مبعوثا قضى بإقامة الصلح بين الإيّالتين، وليس حكام الايالتين هم من بعثوا بالرسل. ويظهر من خلال ذلك أن الباب العالي كان حريصا على عقد هذا الصلح لإظهار تبعية الإيّالتين لسلطته خاصة في هذه الفترة الحرجة، التي بدأت معالمها تزيد خطورة بإشراف اليونانيين على إعلان ثورتهم، و في السياق نفسه أرسل زوارق بحرية إلى تونس وأمر الباي بإرسال مراكبه للانضمام إلى الأسطول العثماني بالأرخبيل اليوناني قصد مراقبة الأوضاع عن كثب(3).

---

(1) الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص ص 178- 179.

(2) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، مج2، ج3، ص 134.

(3) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 342.

ثالثا– موقف إيّالة تونس من احتلال فرنسا للجزائر1825– 1830م:

كانت العلاقات بين الشعبين الجزائري و التونسي، تتعدى الروابط التي لا يمكن تخيلها، فجغرافية البلدين واحدة و الدم الذي يسري في شعوبها دم واحد، ولغته واحدة وعادات وتقاليد مشتركة، و المصير لا يختلف عن ذلك، إن التاريخ في هذه الفترة وضعه أبناء المنطقة، و قد سبق وأن أشرنا إلى أنّ الحروب التي كانت بين الإيّالتين تسبب فيها بالدرجة الأولى الجند الإنكشاري و أقحم فيها قبائل عديدة من الجانبين، أما الأهالي فكانوا يتمنون نهايتها ولكن لا حول لهم و لا قوة، فأمرهم بيد أسيادهم.

1– موقف أهالي تونس:

وقف الشعب التونسي عند إعلان فرنسا الحرب على الجزائر، إبتداءا من فرض الحصار البحري عليها، موقفا مساندا[1]، فقد كان منشغلا تمام الانشغال بحالة الحرب المعلنة، و القلوب مشدودة تترقب ما سيحدث ويحل بالجزائر وعمّ السخط فئات الشعب على موقف الباي التونسي المخزي [2]، إنّ أمر الرعية لم يخرج عن ما يتوقعه أي شخص عاقل. و هناك سؤال ملح يجب أن نطرحه و هو: لماذا لم يهبّ سكان القطر التونسي لإجهاض مشروع الاحتلال قبل أن يصبح أمرا واقعا، و لعل الإجابة تكمن في جملة من النقاط سنبين أبرزها:

أ – عدم قدرة الأهالي على الخروج عن طاعة سيِّدهم، الباي حسين باشا التونسي [*]، الذي سلك هذا المسلك.

ب – استسلام حكومة الجزائر العثمانية، و لا يوجد من ينظم المقاومة، حتى وإن كان هناك أحمد باي الذي امتنع عن قبول إعانة التونسيين، و قال بأنّه قادر على الدفاع عن نفسه و افتكاك الجزائر من يد الفرنسيين[3].

لم يكن خوف الشعب التونسي نابع من عاطفة الانتماء للوطن الواحد فحسب، و لكن كان حدسه أكثر من أي تفكير آخر، ذلك أن مصيرا مجهولا ينتظره مع الفرنسيين، الذين هددوا الباي بإعلان الحرب عليه إن هو ساند الجزائر، و لكن الباي التونسي كان موقفه مغاير، لذا نجده قد ورث الحقد عن أجداده تجاه الجزائريين، فكيف سيغيره بين عشية وضحاها.

---

(1) هلايلي حنيفي، المرجع السابق، ص53.

(2) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 357.

(*) حسين باي بن محمود، تولى الحكم في29مارس1824م توفي عام 1835م. أنظر:بوذينة محمد، مشاهير التونسيين، ط2، دار سراس للنشر والتوزيع، تونس1992م، ص ص181-183.

(3) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، مج2، ج3، ص175.

2 – موقف حسين باي تونس:

تدل مظاهر كثيرة على العداء الذي يُكنّه الباي التونسي لحكام الجزائر، و من أبرزها :

2.أ– رفض أمر داي الجزائر باعتقال زعيم التجانية 1240هـ/ 1825م:

لا زال الصلح المبرم بين الطرفين قائما، منذ عام 1821م، زيادة على محاولات الدولة العثمانية لرأب الصدع منها رسالتين مؤرختين في شعبان سنة 1240هـ/1825م، تنص كل واحدة على ضرورة التعاون بين الإيّالات الثلاث ضد الخطر الخارجي، الأولى من الصدر الأعظم لباي تونس[1]، و الثانية من قبودان البحر للباي كذلك[2].

ولكن الأوامر كأن لم تصل مسامع الحكام، فقد مرّ أبو عبد الله محمد التجاني ابن شيخ الطريقة الصوفية التجانية بالأراضي التونسية، عام 1825م و كان هذا الشيخ ثائرا على حكومة العثمانيين بالجزائر، و بهذا الخصوص راسل الداي حسين باشا، الباي التونسي آمرا إياه باعتقال الرجل لديه أو إرساله إلى الجزائر، ولكن باي تونس رفض هذا الطلب بشدة. مما يدل على كرهه لداي الجزائر[3]، و لم تكن هذه الحادثة إلاّ واحدة من الوقائع التي سنذكرها.

2.بـ– مساندة الأسطول البحري الفرنسي ضد الجزائر1242هـ/1827م:

ضربت فرنسا حصارا بحريا على سواحل الجزائر، بعد حادثة المروحة أفريل 1827م، ومعركة نافرين في أكتوبر من السنة نفسها. وهكذا ظهرت سوابق تدل على سوء نية باي تونس ضد الجزائر، فقد سُرَّ بسماع مثل هذه الأخبار[4]، وعليه شجع القوات البحرية الفرنسية على تكثيف تواجدها في السواحل الشرقية للجزائر، و لم يكتف بهذا فحسب بل جهّز أربعة من المراكب البحرية بمدفعيتها لحماية القوات الفرنسية من أي اعتداء جزائري [5]. ترجمت هذه الخطوة مدى تحامل هذا الباي على حكومة الجزائر و كرهه الشديد لها، و فيما يبدو أن التواجد الفرنسي بالشرق الجزائري كان الهدف منه وضع فرنسا يدها على هذه المناطق خوفا من أي طارئ، خاصة وأنها كانت مصدرا لاستيراد القمح، فضلا على أن المنطقة الشرقية غنية بالمرجان و لفرنسا امتيازات قديمة فيها منذ القرن السادس عشر ميلادي، كما أنها لم تكن تأمن تصرفات باي تونس.

---

(1) السلسلة التاريخية، الملف348، الحافظة220، الأرشيف الوطني التونسي، ص1.

(2) المصدر نفسه، ص3.

(3) هلايلي حنيفي، المرجع سابق، ص53.

(4) plantet (E), Correspondance des Deys d'Alger, T3, op. cit, 1889, p634.

(5) plantet (E), Correspondance des Beys de Tunis, op. cit, p630.

2.ج- تصريح الباي للقنصل الفرنسي بتونس بكرهه للجزائر1827م:

انتهت معركة نافارين التي أفقدت إيّالة الجزائر معظم قطع أسطولها البحري المتواضع و المنهك منذ زمن ليس ببعيد، و توالت المحن على هذه الإيّالة من كل صوب وناحية. أما في تونس ففي 15 ديسمبر 1827م، عُيّن السيد ماتيو دي ليسبس قنصلا عاما لفرنسا، و في هذه الأثناء كانت طبول الحرب الفرنسية ضد الجزائر تقرع و لا تكاد تتوقف، و كانت فرنسا غير متأكدة من موقف باي تونس، و بما أن الأخيرة كانت تريد أخذ الثأر و الانتقام لشرفها حسب زعمها من الجزائر، فطلب القنصل المذكور من باي تونس توضيح نواياه تجاه القضية الجزائرية. و إن كان الباي مساندا لداي الجزائر فسوف يلاقي معاملة مماثلة بعد الانتهاء من الجزائر، لذا طُلب منه الحياد وعدم التدخل، و كأن هذا الباي لديه قوة قادرة على إيقاف الحملة الفرنسية.

كان الباي خائفا كذلك من فرنسا فقد أُرْغم على إمضاء اتفاقيات تجارية لصالحها عدة مرات بالشروط التي تطلبها هي، و قد وافق الباي على بقائه محايدا، و أنه لن يستجيب لطلب الدولة العثمانية بتقديم يد المساعدة للجزائر. و الدليل على صحة موقفه أنه كان قد أَسَرَّ للقنصل بما يتمنى في قرارة نفسه أن تنتصر فرنسا على الجزائر في هذه المعركة[1]. ولكننا نجد بالمقابل أن الباي التونسي ساهم في معرفة نوايا الفرنسيين بعد معركة نافارين بخصوص التفكير الجاد في إعداد حملة لضرب الجزائر، وزوّد وكيل الجزائر بتونس بهذه المعلومات الهامة[2].

2.د- الموقف من الاحتلال 1830م:

كان لباي تونس منذ بداية حكمه سنة 1238هـ/1824م، موقفا واضحا تجاه ما يحدث في الجزائر [3] لسببين أولهما: كرهه لدايات الجزائر بصفة خاصة، و تمنيه زوال حكمهم، بسبب حالة الحرب التي كانت قائمة بين الإيّالتين منذ نهاية القرن السادس عشر ميلادي. ثانيهما: علاقة الصداقة التي كانت تربطه بفرنسا لعقده إتفاقيات تجارية معها[4]. إنّ هذا الوضع ترجمه الباي على أرض الواقع و بذلك ظهر جليا لأي متتبع للأحداث التي سنسردها لاحقا، إذ كان يتمنى زوال حكم دايات الجزائر، مع أنّه لم تَجْرِ معه و لا حرب واحدة، و إنما ورث هذا الحقد على آبائه و أجداده، فماذا كان يفعل لو خاض بعض تلك المعارك التي هزم فيها الجيش التونسي، وعلى أية حال هذا ما كان يفكر فيه.

---

(1) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص352.

(2) قنان جمال، نصوص ووثائق ...، المرجع السابق، ص ص 378-379.

(3) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص142.

(4) de Flaux(A), op. cit, p230.

2.هـ- تعطيل مهمة المبعوث العثماني للجزائر"الطاهر باشا"1830م:

وصل المبعوث العثماني إلى مرسى حلق الوادي بتونس، في شهر ذي العقدة 1245هـ/ أفريل1830م وكان سبب مجيئه هو محاولته لخلع داي الجزائر بعد ما تسبب في حادثة المروحة(المنشة)، التي أفضت إلى توتر العلاقات و ضرب فرنسا لحصار بحري على الجزائر، بداية من الحادثة عام 1827م، و استمر حتى تاريخ قدوم حملتها عام 1830م. وبالعودة إلى موضوعنا فقد شاور باي تونس رجاله في قضية نزول المبعوث العثماني على الأراضي التونسية ذلك لأن الأخير أراد أن ينزل بتونس ليذهب إلى الجزائر عن طريق البرّ لعدم قدرته على الذهاب بحرا بفعل الحصار و لا يمكن أن يذهب إلى الجزائر بدون مرافقة محلة عسكرية لحمايته، خاصة وأن الطريق طويلة وشاقة كما هي محفوفة بالمخاطر أيضا[1]، على أن أسباب منعه من النزول كانت مختلفة تماما.

بينما يروي صاحب الحوليات التونسية أنّ سبب نزوله بتونس هو تأكده من عدم جدوى ذهابه للجزائر بعدما التقى بالأسطول الفرنسي ومنعه من التوجه إلى الجزائر، وأخبره بأن أمور الاحتلال قد حسمت في باريس ولا يمكن التراجع عن مشروع الغزو هذا، عندها قرر المبعوث أن يغير وجهته و ينزل بتونس بعدها يذهب إلى الجزائر عن طريق البرّ، وطلب مرافقة مجموعة من الجند لحمايته[2].

كانت هناك أسباب أخرى أدت إلى تعطل مهمة المبعوث، أقر بها رجال الإيّالة التونسية في عرض آرائهم على الوزير ومنها أن الطاهر باشا لن يستطيع تقبيل يد الباي التونسي والأخير لن يسمح بذلك لذا لا يمكنه النزول لأن المبعوث أعلى مقاما من الباي ولن يرضى بهذا التصرف، وبقي المبعوث على هذه الحال ينتظر بدون فائدة، غير أن الوزير كان قد تدارك الأمر و أكرمه وأجزل عليه العطايا كي لا ينقم على الباي ودولته، وينقل ما جرى له للسلطان العثماني عند عودته.

ظن الوزير أن المبعوث سيرضى عليه، ولكن المؤرخ التونسي ابن أبي الضياف ذكر أن المبعوث بقى يتذكر ذلك السلوك المشين الذي سلكه باي تونس معه باعتباره ممثلا للسلطان، رغم أن البلاد التونسية هي جزء من الدولة العثمانية. فكيف يُمنع من النزول فيها، وظل يردد ذلك لكل من يأتي من تونس لاسطنبول ويقول المؤرخ أنّه سمعها منه شخصيا عندما كان قبطان باشا حيث قال"... ما يكون جوابكم لله عن تعطيلي الذي عطلتم به مصلحة جمهور من المسلمين لكن المقدر كائن..."[3].

---

(1) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، مج2، ج3، ص166.

(2) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص359.

(3) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، مج2، ج3، ص167.

و على كل حال فهذا موقف المبعوث العثماني من باي تونس. و الأمر الذي يجب أن نبيّنه أنّه غادر تونس إلى الجزائر عن طريق البحر [1]، بعد أن مُنع من الذهاب برًا كما أسلفنا، و عليه تكون المهمة قد فشلت لفوات الأوان. كما يجب أن نشير لكي نكون أكثر انصافا أن سياسة الداي حسين أولا وإصرار فرنسا على احتلال الجزائر ثانيا هما بالدرجة الأولى اللذين أوصلا الجزائر إلى هذا المأزق الخطير.

و علينا أن لا نغالي في هذا الموضوع لأنّ المهمة المنوطة بالمبعوث العثماني كان مكتوب لها الفشل من البداية فالأمور قد حُسمت منذ أعوام عديدة و لم تكن وليدة، عام 1827م أو عام 1830م[2]. و لكننا نجد بالمقابل أن الباي التونسي رحّب بالمهاجرين الجزائريين بعد احتلال فرنسا للجزائر، و أكرم ضيافتهم[3].

وافق الباي التونسي على مشروع فرنسا لاحتلال الجزائر، ضاربا بذلك عرض الحائط القيم التي اشتهرت بها الأمم الأوربية من مكر وتنكر للوعود، متناسيا بذلك حملة الإنجليز التي دمرت منذ أربعة عشرة سنة خلت، جزءا كبيرا من مدينة الجزائر، وأخضعت الداي لشروط أقل ما يقال عنها بأنها مجحفة، كان أبوه الباي محمود قد قَبِلَ بها هو قبل داي الجزائر وإلاّ لاقى المصير نفسه. فها هي الواقعة نفسها تتكرر معه و لكن مع فرنسا هذه المرة؛ ففي شهر صفر1246هـ/17أوت1830م حلت بساحل تونس سفن فرنسية، يظهر على قدومها مظهر التهديد، و هكذا كشفت فرنسا عن وجهها الحقيقي للباي المتعاون معها بالأمس القريب، و نسي قول الله تعالى﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ اَلْيَهُودُ وَلَا اَلنَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلِ إنَّ هُدَى اَللهِ هُوَ اَلْهُدَى ۗ وَ لَئِنِ اِتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ اَلذِي جَآءَكَ مِنَ اَلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اَللهِ مِنْ وَّلِيٍّ وِلَا نَصِيرٍ ۗ﴾[4].

و اتضح أنه كان على متن إحدى هذه المراكب مبعوثا فرنسيا جاء لإعادة النظر في الشروط السابقة للاتفاقية بين بلده وتونس، تحمل موقف أكثر ازدراءا وتحدّ للباي الذي كان بالأمس القريب حليفا لهم، منها أن تونس لا و لن تحتكر التجارة لوحدها وستصبح من اليوم فصاعدا مباحة لكل شخص يريد القيام بهذا النشاط، وتتم معاملة التجار الفرنسيين بنفس معاملة أهلها، كما طالبت بإلغاء ممارسة القرصنة البحرية وظاهرة الأسر التي كانت تمارسها سفنها[5].

---

(1) ابن أبي الضياف أحمد، المصدر السابق، مج2، ج3، ص167.

(2) روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص352.

(3) المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص143.

(4) الآية 120 من سورة البقرة.

(5) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، مج2، ج3، ص 168-169.

2.و- محاولة ضم إقليم قسنطينة1830م:

لا يخفى على أحد أن باي تونس كان قد امتلأ قلبه بالطمع، و كان متحمسا لسقوط الجزائر أكثر من الفرنسيين أنفسهم، ذلك أن الأخيرين كانت تساورهم الشكوك في إمكانية الاستيلاء على مدينة الجزائر التي أثبتت بأنّ إسم المحروسة كان واقعا و لا يخفى على أحد، و خاصة الإسبان و الفرنسيين. وعلى كل حال فإن الفرصة أصبحت مواتية للباي التونسي لإثارة الفتن داخل إقليم قسنطينة، تلك المقاطعة الأقرب إليه من أي منطقة جزائرية أخرى، كما أنها ذات طبيعة تضاريسية صعبة و ربما قد توهمت نفسه بأن الفرنسيين لن يقدروا على السيطرة عليها وهو بدوره سيمنع قيام أي مقاومة ضد الفرنسيين بمنع نقل البارود إلى مدينة قسنطينة(1).

هذا وقد أرسل الباي وفدا لتهنئة قائد الحملة الفرنسية الماريشال ديبرمون على نجاحه في الاستيلاء على مدينة الجزائر، كما بادر إلى منح كل التسهيلات لشراء ما يلزم للحملة من الحيوانات والمؤن لإنجاحها.

و مهما يكن الامر فإنّ الفرنسيين كانوا في حاجة للأموال، لذا حاولوا القيام ببيع إقليم قسنطينة لباي تونس(2)؛ ذلك أن الباي قد وافق على هذا المشروع الذي نسفته إخفاقات قائد الحملة بالتوسع والخروج من مدينة الجزائر، ولكن المشروع قد تم إحياؤه في عهد كلوزيل الأول، على أنّ البادرة كانت ستتم كذلك مع المغرب ولكن الظروف حالت دون تنفيذها(3). فقد تمّ إرسال حاكم تونسي لوهران وهو خير الدين آغا، و لم يستطع هذا الأخير بمجرد وضع أقدامه على الأرض أن يبسط نفوذه كما أن الأعــراب نفرت منه، و لم يقدر على جمع الضرائب إلا القليــل منـها، و على الرغم من ذلك فقد بعث بالأموال لتونس (4)، ولكن إلحاح الوزير شاكير صاحب الطابع (*) عليه بإرسال الأموال أكثر، مثّل له مشكلا كبيرا، خاصة و أنّ عدد الجند قليل معه ليرغم القبائل على دفع ما عليها ومن ثمة أُجْهِضَتْ هذه المحاولة اليائسة(5).

نلاحظ بأن الباي التونسي كان يستغل فرصة انكسار قوة الجزائر للسيطرة على شرقها، وهو الذي لم يستطع درأ الخطر عن نفسه، فكيف له بهذا المشروع الضخم، الذي كلف فرنسا قرابة السبع سنوات لبلوغه.

---

(1) هلايلي حنيفي، المرجع السابق، ص53.

(2)خوجة حمدان بن عثمان، المصدر السابق، ص257.

(3) سعد الله ابو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، القسم1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1992م، ص 169.

(4)السلسلة التاريخية، الملف11مكرر، مجلد3، الحافظة1، ص ص387-389.

(*) من أبرز وزراء حسين باي، يعود له الفضل في إستقرار ملكه. أنظر ابن أبي الضياف، المصدر السابق، مج4، ج8، ص28.

(5) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، مج2، ج3، ص177.

الخـــــــــاتمة

توصلنا في ختام البحث إلى بعض الملاحظات و النتائج، التي يمكن حصره ا فيما يلي:

1- ظهور العثمانيين بالمنطقة أنهى حكم الزيانيين و الحفصيين على حد سواء، و حطم المشروع الإسباني الرامي إلى السيطرة على شمال إفريقيا.

2- مظاهر الصراع المحتدم بين الإيّالتين ، لم تكن وليدة الساعة ، بل كانت مند سقوط الدولة الموحدية ، و قيام الدويلات الثلاثة الحفصية و الزيانية و المرينية على أنقاضها، ولم تكن حدودها واضحة المعالم، فقد رسمت وفقا لمنطق القوة، وكان التقاتل على السلطة و الاستنجاد بالأجانب سيد المشهد آنذاك.

3- اتخاذ العثمانيين من مدينة الجزائر مركزا لهم، انطلقت منه عمليات تحرير باقي سواحل شمال إفريقيا، و انتهت في الأخير بعثمنة هذه المنطقة عدا مملكة السعديين.

4- ظهور الصراع بين الإيّالتين في بادئ الأمر يعود إلى قضية الحدود بينهما، منذ تحرير تونس النهائي، وتجلى أكثر بعد فصلهما عن بعض بتأسيس نظام البشاويات، كل على حدا. أوجد صعوبة في قضية الفصل بينهما جغرافيا و سياسيا وحتى اقتصاديا و اجتماعيا.

5- حدوث تطورات في إيّالة تونس بإنفراد الدايات بالحكم بعد القضاء على البلوكباشية، لقطع تدخل الجزائر التي زادت إصرارا لبسط هيمنتها على تونس.

6- التنافس والتقاتل على السلطة بين ورثة حكم الأسرة المرادية ثم الحسينية بتونس، جلب تدخل الجزائر في العديد من المرات لصالح من يستنجد بها و يلتزم بدفع أموال لخزينتها، و كان بداية دفعها منذ تحرير تونس، و قد تطورت إلى تقديم الهدايا القَيِّمَة و شحنات من زيت الزيتون وأشياء أخرى.

7- كانت هناك محاولات حثيثة من طرف سلطة الباب العالي، لرأب الصدع بين حكام الايّالتين، و إلزامهم بتوحيد الجهود ضد الخطر الأجنبي، بدلا من إهدار الأرواح و الأموال، في أمور لا تستحق ذلك. وهي محاولات لإعادة سيطرتها على الإيّالات بعد شعورها بخروج القائمين عليها عن طاعتها و عصيان أوامرها، و من ثم الاستقلال عنهـــا و مثل البعد الجغرافي عن مصدر القرار باسطنبول دورا مهما في ذلك.

8- كل التدخلات الجزائرية في إيّالة تونس أريد من خلالها فك النزاعات العائلية، حول السلطة وتنصيب حاكم يوافق على سياستها ويعمل بشروطها خاصة فيما يتعلق بدفع الضرائب، ولم يكن لها أطماع توسيعية على حسابها.

9- أي تغيير في هرم السلطة التونسية كان ينذر بقيام حرب بين الإيّالتين و في بعض الأحيان يتعدى إلى إيّالة طرابلس، التي دخلت مع إيّالة تونس و مملكة العلويين في تحالف للقضاء على إيّالة الجزائر.

10- بروز المواقف الأوربية تجاه ما يحدث في شمال إفريقيا فيما يخص الحرب بين الإّيالتين، التي تعد مجالا خصبا للتغلغل وبسط الهيمنة، برز ذلك من خلال مراسلات قناصلها، وتقارير جواسيسها المفضية إلى تدعيم طرف على حساب آخر، فقد سلكت فرنسا هذا المسلك مدعمة تونس ضد الجزائر، ليس حبا فيها وإنما للنيل من الجزائر والخوف من أن تصبح قوة إقليمية تهدد مصالحها.

11- تطور المواجهة العسكرية بين الإيّالتين من الحرب البرية إلى المواجهة البحرية مع مطلع القرن التاسع عشر ميلادي، خاصة في عهد الريّس حميدو، الذي أعاد أمجاد البحرية الجزائرية إلى سابق عهدها في الحوض الغربي للمتوسط، ودفع بها قدما للذود عن حرمة الإيّالة التي انتهكت بمجرد موت هذا البطل.

12-كل المواجهات التي حدثت بين الطرفين انتصرت فيها الجزائر، و كلها كانت على الأراضي التونسية ما عدا معركتين كانتا على أرض الجزائر واحدة عليها ضد باي قسنطينة و أخرى لها بمنطقة جوامع العلماء مابين سطيف وقسنطينة. مثلت فيها القبائل القاطنة على التخوم بين الطرفين دورا محوريا بارزا، وكانت الخيانة مشهدا حاضرا في جل المعارك تقريبا.

13- قاد هذه الحروب الجند الانكشاري في غالب الأحيان، لذا كانت هذه الحروب خارجة عن نطاق أهالي الإيّالتين، وتحمل الطرفين أوزارها و استفاد منها الحكام وبعض من هؤلاء الجند.

14- تحمل أهالي مدينة تونس و مدينة قسنطينة خاصة و سكان المدن الواقعة أو القريبة من الطريق بينهما مشاق هذا الصراع لذا أقحمت فيه مرغمة و وجدت نفسها في خضمه فدفعت الثمن غاليا.

15- اختلاف الحكم العثماني للإيّالتين اختلافا جوهريا، ففي تونس كانت تمثله الأسرتين المرادية و الأسرة الحسينية و شيوخ القبائل، مع وجود منصب الداي المعين من طرف الدولة العثمانية، على عكس الجزائر التي أدار حكمها الأتراك والأعلاج، حتى الكراغلة لم يسمح لهم بذلك، لذا كانت عواقب هذا الاختلاف وخيمة على تونس أكثر من الجزائر، كما كانت سببا في الصراع بينهما.

16- لم تكن الجزائر تواجه هذا التحامل من طرف حكام تونس أو طرابلس الغرب أو حتى مملكة المغرب فحسب بل تحاملا أوربيا منقط النظير من طرف الإسبان في البداية ثم الفرنسيين فالأنجليز، وفي مراحل أخرى توحدت جهود بعضهم للفتك بالجزائر، أكثر من أي إيّالة عثمانية أخرى، وطيلة ثلاثة قرون، حتى وقعت فريسة أولى للاستعمار الفرنسي.

17- توافق المصادر الجزائرية و التونسية في ذكرها لتفاصيل المعارك التي دارت رحاها بين الإيالتين، ولم تختلف إلا في نقاط قليلة لا تؤثر على الحقائق التاريخية.

تردت الأوضاع السياسية ثم الاقتصادية و الاجتماعية من جراء الصراع المرير. فانضاف الإخفاق في غزو تونس لفرض التبعية و الحصول على الغنائم إلى جملة الأسباب المفضية لعزل الدايات أو قتلهم، وظهر هذا التأثير في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلاديين خاصة. و ذلك أن هذه الأمور كانت موجودة من قبل و ظهورها في هذه الفترة بالذات كان لتفاقم المشاكل جملة واحدة، أهمها سيطرة اليهود على مقاليد التجارة الخارجية للجزائر. وضعف السلطة العثمانية المتشبثة بالنظم القديمة على الرغم من محاولات الإصلاح المتعددة. هذه الدولة التي كانت تحاول استرجاع هيمنتها على الإيّالات المغاربية، و بالمقابل إزدياد قوة أوربا و تطورها، مما أدى إلى الطمع في أقاليمها و استهدافها الواحدة تلوى الأخرى. وكان الأجدر بحكام الإيّالتين توفير جهودهم وتناسي أحقادهم للوقوف في وجه القوى المتربصة بهم منذ أمد بعيد.

الملاحق

الملحق رقم 01: خريطة مملكة الحفصيين القرن 15(*).



(*) الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر،ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت1983م، ص48.

الملحق رقم 02: تعيين رمضان باي على بعض نواحي تونس1571م[1].

Tasnifin cinsi	Muhimme	12
Numarası	541	

الجمهورية الجزائرية
الديمقراطية الشعبية

رئاسة الجمهورية

الأمانة العامة

الجزائر في :

مهمة دفتري رقم 12 صحيفة 541 ـ 543 حكم رقم 1037

بتاريخ 25/ 10/ 979

ارسل الى صاحب السعادة في 28 شوال 979

حكم الى القائد رمضان قائم مقام ووكيل امير امراء الجزائر (جزر البحر الابيض) على ـ دام اقباله ـ في صوصه (سوسة) والقيروان (القيروان) ومنستر (منستير) وبلد حرجت (كذا) وبكزرت (بنزرت) من نواحي تونس.

بعث ابو الطيب وسائر اعيان ولاية تونس بخطابات يفيدون فيها بحسن استقامتك ومعاشرتك لاهالي الولاية من كل الوجوه، ويشهدون بكفائتك وبذل قدراتك وسعيك المشكور في سبيل كافة الامور الهمايونية وصيانة عرض وناموس الدين والدولة.

وبما ان تلك الولاية مع نواحيها المذكورة قد الحقت بامره المشار اليه، وبناء على التماسه باحتفاظك بمنصبك كقائم مقام له فيها فقد تم تعيينك في المنصب المذكور من جانب المشار اليه والسعي كما كنت عليه سابقا وامر نال بضبط تلك النواحي على الوجه المناسب وامرت:

حال وصول الحكم، عليك بموجب امري القيام بضبط تلك النواحي من جانب المشار اليه والسعي لحفظها وحراستها وضبطها وصيانتها وعلى بالجد والحزم في سبيل ذلك لما فيه رفاهية واطمئنان الرعايا والبرايا وامن وامان البلاد والولاية وعياذا بالله تعالى، فيما اذا حاول لاعداء اللئام الحاق الضرر والخسارة باي مكان فعليك انت ومن معك من عساكر المسلمين والجنود الموحدين واعيان الولاية واهل الراي باعداد العدة والعتاد والوقوف على اهبة الاستعداد فلتكن مع اولئك على اتفاق واتحاد، ولتكن كلمتكم ووجهتكم واحدة وعليك بانواع السعي الاهتمام لدفع ورفع ضرر الاعداء وعدم اضاعة دقيقة واحدة في سبيل المحافظة على البلاد وعليك ايضا ببذل المقدور بحسب الامكان في سبيل كافة الامور المتعلقة بالدين المبين والدولة الابدية ـ المقرونة بسعادتي ـ وحاذر ان يلحق ضرر باي مكان على حين غفلة وابعث لنا بما يجب عرضه عن احوال واطوار تلك الديار.

لقد ارسلت لك احكام شريفة موجهة الى اعيان الولاية المذكورة بخصوص تسليمها لهم فعليك بتسليمهم اياها، والعمل على استمالتهم عن جناب جلالتنا وكذلك العمل على غيهم بالمحافظة على الولاية كما ينبغي ان تظل معهم على حسن المعاشرة لحفظ الولاية والرعايا والبرايا وليكن بعلمك

رئاسة الجمهورية

الأمانة العامة

الجمهورية الجزائرية
الديمقراطية الشعبية



الجزائر في :

تابع

انه فيما اذا عرض قبوداني المشار اليه عن آثار حميتك وخصالك الحميدة
وتمكنك من جلب رضاء وشكران الاهالي الولاية فانشاء الله الاقدر ستكون
محط انواع عنايتنا ومن المؤكد انك ستكافئ وتجزى بذلك تماما و
بناء عليه فلتظهر غيرتك وحميتك بكل ما اوتيت من قوة .
ولتتصرف بما سهل تعيين لك من محاصيل لقاء امرة اللواء كما
كان عليه وان ذلك مخصص لمدار معيشتك وعليك بالسعي الاقدام وعدم
اضاعة دقيقة في امور الوكالة الموكلة اليك عن جانب قبوداني المشار اليه .

تعريب محمد داود التميمي .

(1) مهمة دفتري رقم 12، مصدر سابق.

الملحق رقم 03: خريطة الإيّالتين الجزائرية والتونسية القرن 17م[1].



(1) بوعزيز يحي، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ص397.

الملحق رقم 04: قائمة باشاوات و دايات الجزائر(*)، الذين لهم علاقة بالصراع.

الباشاوات	فترة الحكم
دالي احمد باشا	1587 – 1589م
حسين الشيخ	1613 – 1616م
حسين باشا	1626 – 1634م الفترة الثانية
الدايات	**فترة الحكم**
الحاج باشا	1671 – 1682م
الحاج حسين ميزومورتو	1683 – 1688م
الحاج شعبان باشا	1688 – 1695م
حسن باشا الشاوش	1698 – 1700م
الحاج مصطفى باشا	1700 – 1705م
حسين خوجة باشا	1705 – 1710م
إبراهيم باشا	1733 – 1745م
محمد عثمان باشا	1766 – 1791م
مصطفى باشا	1798- 1805م
أحمد باشا	1805 – 1808م
علي باشا الغسال	1808- 1809م
الحاج علي باشا	1809 – 1815م
عمر باشا	1815 – 1817م
علي خوجة	1817 – 1818م
حسين باشا	1818 – 1830م

(*)بوعزيز يحي، الموجز، ج2، مرجع سابق، ص ص394-396.

الملحق رقم05: بايات الأسرة المرادية في أبيات شعرية لـ محمد بيرم الثاني(*).

بَايَاتُ تُونُسَ إِنْ تَرُمْ عَدًّا لَهُـمْ فَالسِّـتُّ مَعَ عَشْـرَاهُمْ أَعْـدَادُ

رَمَضَـانُ أَوَّلُهُـمْ وَثَـانٍ بَعْـدَهُ مَوْلَاهُ ذُو الصِيتِ البَعِيدِ مُـرَادُ

ثُمَ ابْنُهُ حمُّـودَةُ بَاشَـا الَّـذِي أَيَّامُــهُ بَيْنَ الـوَرَى أَعْيَـادُ

ثُمَّ ابْنُه المُبْتَـزُّ لِلْدَّايَـاتِ مَـا لَهُمْ مِنَ المُـلْكِ الكَـبِيرِ مُـرَادُ

ثُمَّ الثَـلَاثَةُ مِـنْ بَنِيـهِ مُحَمَّـدُ وَعَلِيٌّ وَ رَمَضَـانُ هُمْ الأَطْـوَادُ

وَلَقَدْ تَخَلَـلَ بَيْنَ ذَلِكَ عَمُـهُـمْ بِمُحَمَّدَ الحَفْصِي الشَهِيرِ يُـرَادُ

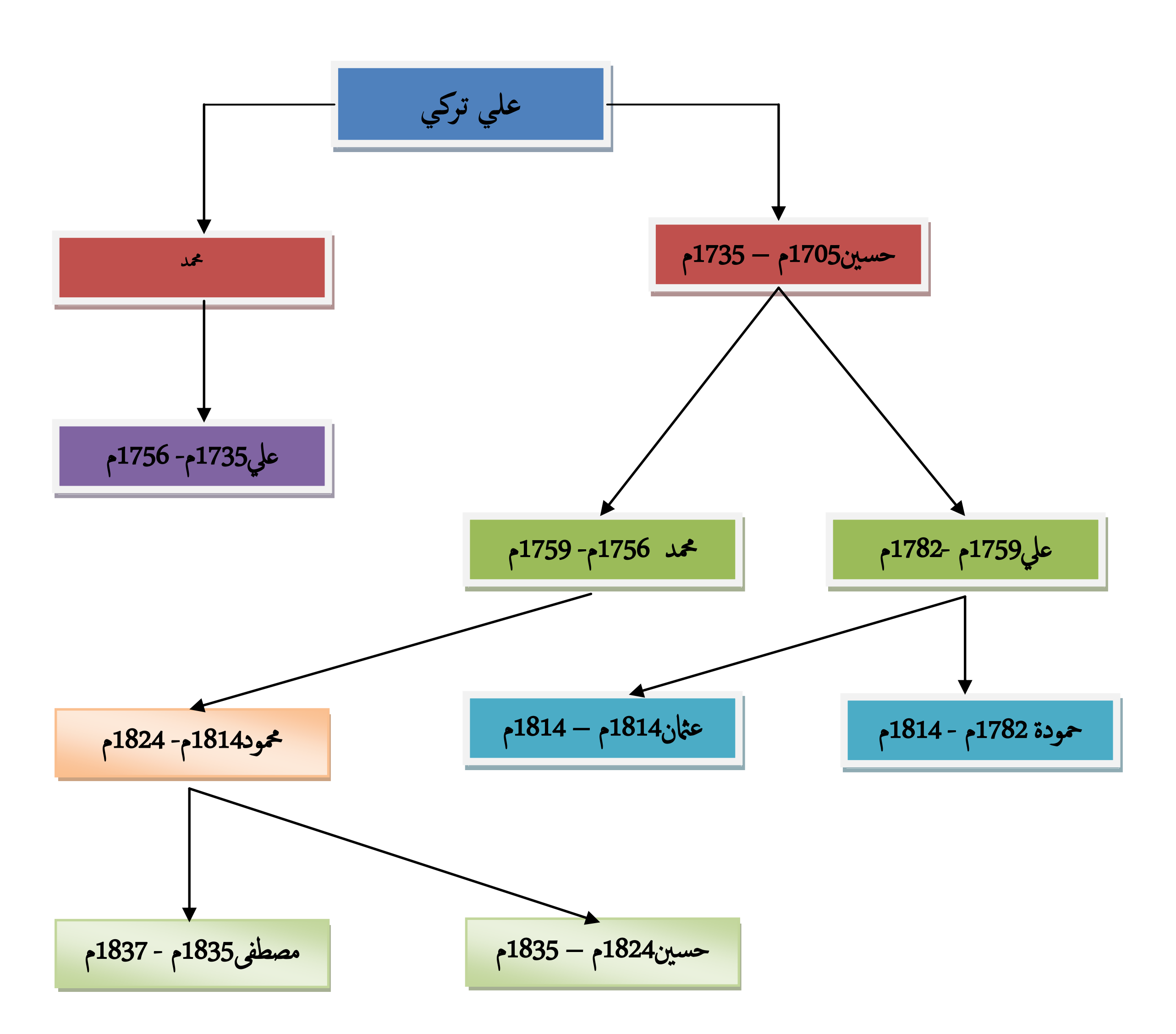
وَكَذَا ابْنُ شُكْرٍ صِهْرُهُمْ وَ عَتِيقُهُمْ مَنْ حَـرَكَتْهُ لِحَـزِبِهَا أَعْضَـادُ

وَمُـرَادُ بْنُ عَلِي الآَتِي مِنَ الأَسْـ ـوَاءِ مَا فَتَتَ بِهِ الأَكْبَـادُ

تَمَّ الشَرِيفُ إِبْرَاهِيمُ وَ بِهِ قَدْ انْقَـ طَعَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَهُ الإِمْـدَادُ

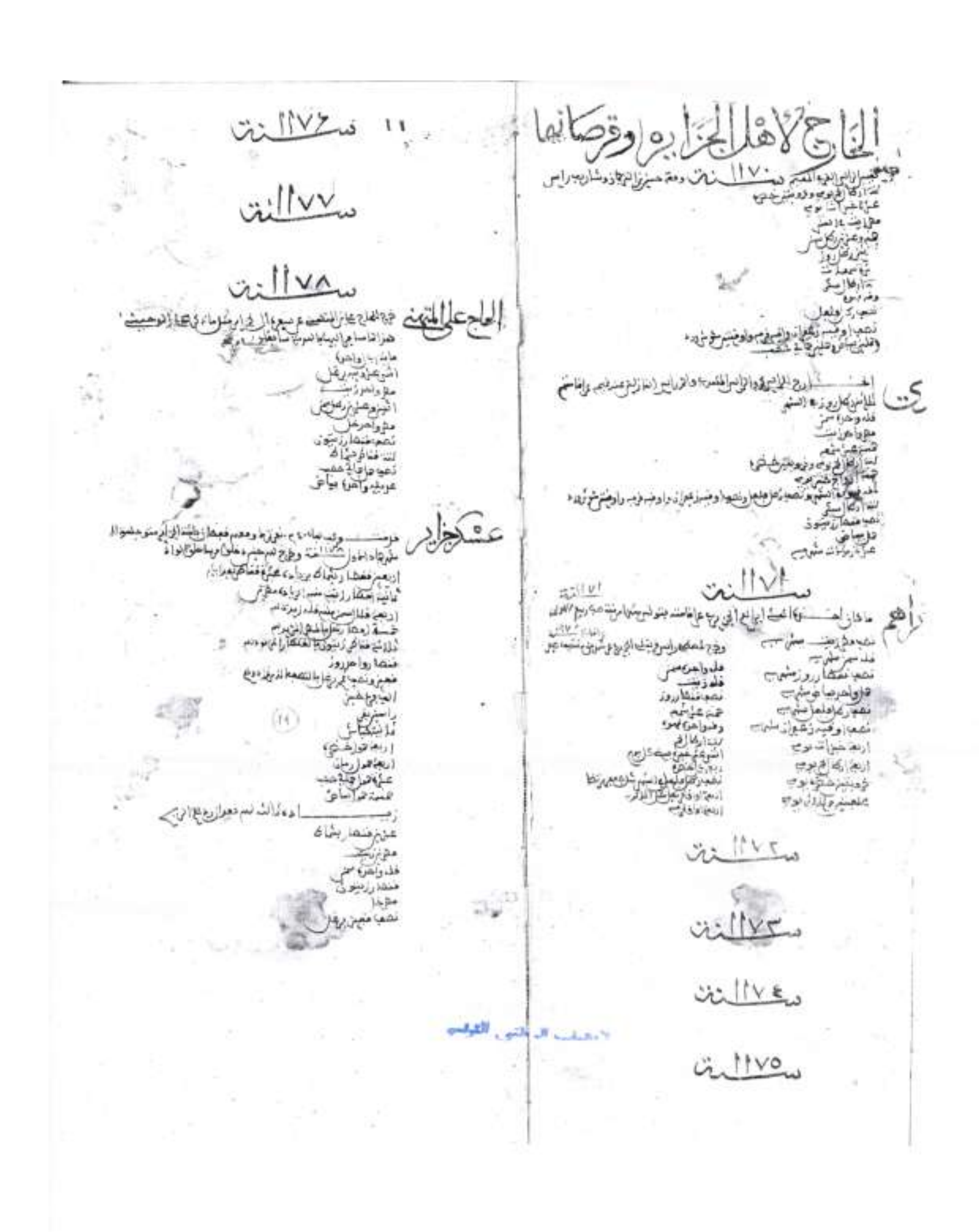
(1) ابن الخوجة محمد، المرجع السابق، ص60.

الملحق رقم06: بايات الأسرة الحسينية حتى عام 1835[*].



(*) مزالي محمد الصالح، الوراثة على العرش الحسيني و مدى احترام نظامها، الدار التونسية للنشر، تونس 1969م، ص8.

الملحق رقم 07: وثيقة تبين أداءات مالية كانت تؤديها إيّالة تونس لإيّالة لجزائر[1].


الخارج لأهل الجزائر وقرصانها

سنة ١١٧٠

سنة ١١٧١

سنة ١١٧٢

سنة ١١٧٣

سنة ١١٧٤

سنة ١١٧٥

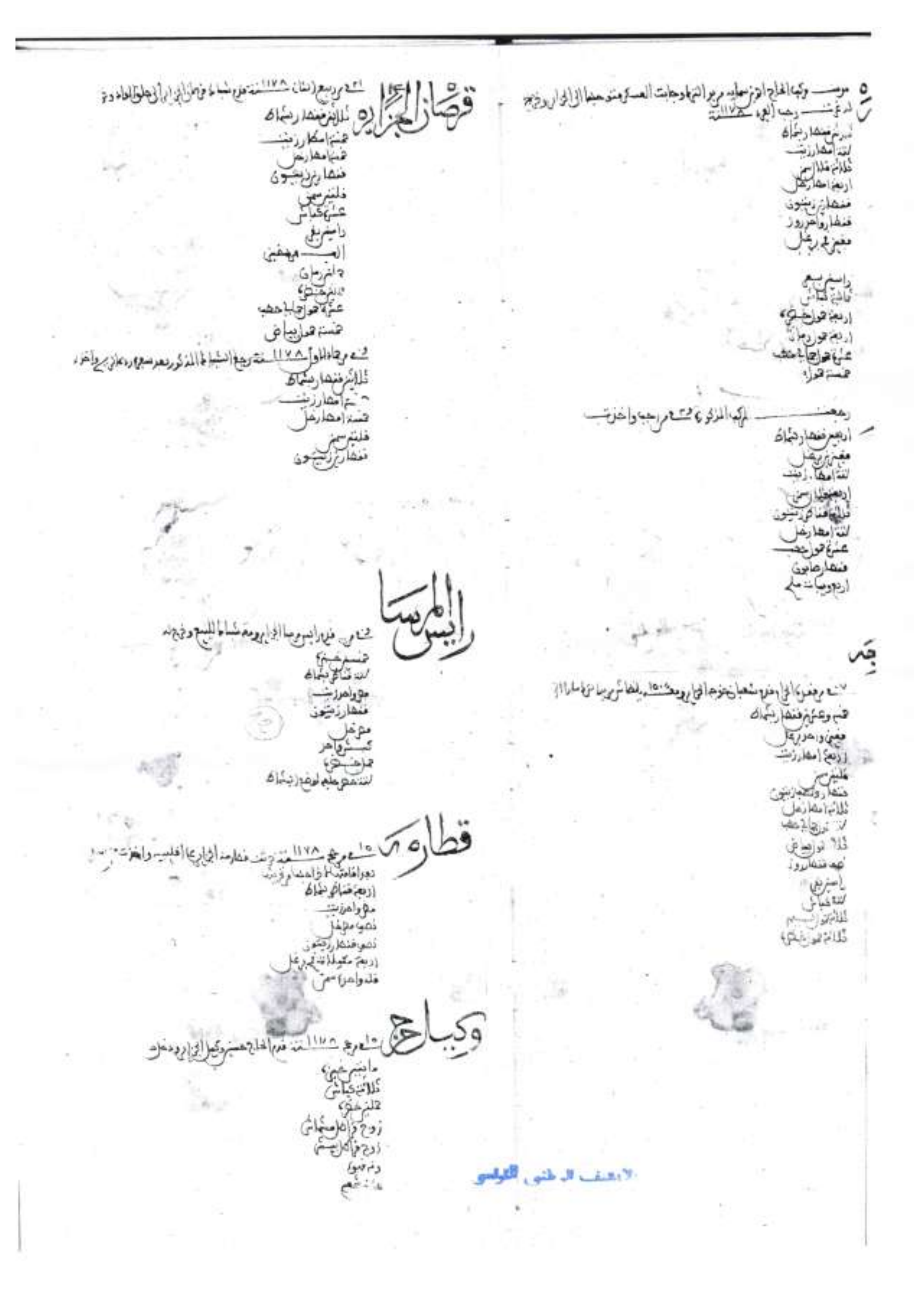
سنة ١١٧٦

سنة ١١٧٧

سنة ١١٧٨

الخارج على المتهني

عسكر الجزائر





(1)الدفتر الجبائي، مداخيل الدولة ومصاريفها، رقم1046، تاريخه 1170- 1178هـ، الأرشيف الوطني التونسي، ص ص11-12-13.

الملحق رقم08: تقرير من والي تونس إلى وكيل الوجق بأزمير حول إستعدادات الجزائر لمعركة وادي سراط 1758م(*).

(104)

مكتوب من والي تونس الى مقر الوجق المنصور ببلدة ازمير بدون تاريخ
وبدون امضا وهذه ترجمته :

الى جناب ذوي السعادة والعزة ابني ونور عيني محمد خوجه المقر الان
في خدمة الوجق المنصور ببلد ازمير والى ذي السعادة والرافة و
المودة اخي الاعز سلطاني شريف اغا وكيل الوجق المنصور
بعد تبليغ درر الدعوات الصالحات وغرر التسليمات الوافيات الى ذوي
العزة حضرات اولادنا الشجعان الموجودين بمعية ولدنا محمد خوجه المومى
اليه كبيراً وصغيراً نعرف جنابكم ان قبل تاريخه بمدة خمسة او ستة
شهور وقع الهجوم من عبد الله بيك باي قسنطينه بغتة بالغارة
على عرشي اولاد بوغانم الكائنين في راس الحدود بما اوجب مشيئا من
الخسارة وبعد ما اخرجنا محلة الشتاء مرتبة من طرفنا على حسب القاعدة
جهزنا محلة اخرى مرتبة ايضا على مقتضى الوقت والحال واخرجناها بمعرفة ذي
السعادة ولدنا سليمان اغا وارسلناها جملة واحدة على قسنطينه و
بعناية الله تعالى فانهم في اول الامر عند وصولهم الى قسنطينه اخذوا محلتها
ثم بعد ذلك حاصروها ودامت المحاربه هناك شهراً كاملاً ثم ظهر من طرف

الجزاير محلتين احداهما برا والاخرى على عنابه بحرا وقد كانت في اول يوم

بدو المحاربه محلتنا هي الغالبه وفي اليوم التالي بقضاء الله تعالى تمزقت

محلتنا ومات مقدار من عساكرنا والمقدار الاخر استوسر وارسل الى الجزاير

ولكن الاكثر منهم مع حكامهم وضباطهم وصلوا الى طرفنا والظاهر بغير شك

انكم تكدرتم للغايه بذاك الطرف من وقوع ذلك لكن بعد وصول عساكرنا

المهزومين على الوجه المحرر قد تاكد عندنا من صحة ما سمعناه ان باي

قسطنطينه مع اغة العرب قد جمعا محالا فيها ما يزيد عن الخمسة الاف رجل

ومائتي خيمه لغزوهم مع العساكر والمحال الواردين من الجزاير ما عدا طوائف العسكر

المتجمعين من عنابه ووادي الزيتون وبلاد زموره وبخلاف ساير الترايس

والعربان المجتمعه معهم للغزو وان قصدهم الوحيد يأتون علينا بهذه المحال العظيمه

ومعاذ الله تعالى يأخذون تونس المحميه ويقتلون ويأسرون الكبار والصغار

وبناء على ذلك رتبنا خمسين خيمه من العسكر وخمسين خيمه من الزواوه وعلى

مقتضاها جهزنا ساير الترايس وعربان شتى ايضا (عومان) ومتوكلين

على الله العظيم الشان الموجد العالم من العدم اخرجناهم بمعرفة مهردارنا (المهردار ... الكاتب)

ذي الرأفة ولدنا يوسف خوجه وعند المقابلة في رأس الحدود في اول

يوم ابتداء المحاربة اخذنا من محلة الجزائر مقدار مائتين رأسي واستأسرنا

اكثر من خمسين من فعالهم واثني عشر علما وقطعتين مدفع والحاصل ان

161

المحلة المذكوره تعفن رفقاتها قدر اربعمايه وخمسين وقدر اربعماية جرحوا
وهربوا راجعين بالهزيمة الى محالهم وبعد ذلك اخذنا فى الراحة يوم واحد
فقط وفى يوم الاربعا التاسع من شهر جمادى الاول ابتدانا بالمحاربة
ومكثنا فى القتال اثنى عشر ساعة ونصف تماما وبعون الله تعالى
عظيم الشان وعنايته قد تغلبنا على الحال المذكورة على وفق المراد
حتى ان حكامهم وضباطهم فروا هاربين بانفسهم طالبين النجاة لارواحهم
واستاسرنا منهم ثمانماية نفر وهلك من رفقاتهم ما يقرب الالفين
شخصا والباقين فروا هاربين والى النجاة طالبين ثم استولينا على
جميع حبال واحمال الحال المذكورة مع مدافعهم وكورهم وسائر المهمات و
الادوات الحربية والوطاقات ايضا وقدر اربعمايه خيمه مع جميع قياطينهم
وان جميع اولادنا / العسكر الموجودين فى الوغا اصبحوا مستغرقين فى الاموال [وانائل]
والغنايم

(*) السلسلة التاريخية، الملف384، المصدر السابق، ص 104.

الملحق رقم 09: رسالة من السلطان العثماني إلى ولاة الجزائر وتونس مؤرخة عام 1816م(*).



Tasnifin cinsi	H. H.
Numarası	31210 G
Tetkikçinin Adı, Soyadı	Z. Sr. [illegible]
İmzası	[illegible]
İnceleme tarihi	24 / 10 / 1976

دولتلو عنايتلو عطوفتلو ولي النعم سنيه الهمم افندم سلطانم حضرتلري

[illegible]

الرئاسة

الأمانة العامة



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

دفتر : خط همايون
عدد : 31٪10
تاريخ : 1٪31

صاحب الدولة و العناية و القدرة و الكرامة ولي النعم وسني الهمم
سيدي و مولاي حضرة الباد شاه المحترم .

جعل الله حياة سلطاننا المعظم في دائرة العز و الاقبال و السعادة و دائما بنصره المبين الباد شاه المعظم الذي نحن بحاجة ماسة اليه دائما والى الابد للاسترشا بمحاسن توجيهاته الشاهانية و الاستفادة من حسن نظره الهمايوني كما اننا بحاجة ماسة الى دعواته الصالحة و الخيرة لاوجاقه المنصورة حتى يمكن بفضلها التغلب على الكفار الذين يكيدون للاوجاق المنصورة كيدا و يريدون لها شرا اذ بدون هذه الدعوات الشاهانية و الاحسانات الهمايونية لا يمكن التغلب على الاعداء و الكفرة الذين لا يريدون لنا و لاوجاقنا المنصورة الا شرا و دمارا لان غالبيتنا عليهم نهي من اثار النظرة البعيدة للحضرة الملوكانية العليا صاحب القوة و القدرة و المهابة .

ولذا فاننا ازاء الارادة السنية عبيد مخلصون و مستعدون لان نفديه برؤسنا وارواحنا لاننا نعلم علم اليقين ان قوتنا و قدرتنا مرتكزة على الدعوات الصالحة التي تتجه نحو اوجاقنا من المقام الشاهاني العالي وبناء على هذا فان اجراء حكم فرمانه و تحصيل رضاء ملوكاد فريضة محكمة في اعناقنا اننا نرجو و نتمنى دائما ان تكون مشمول رعايته الشاهانية و توجيهاته الهمايونية .

ولعلم المقام الشاهاني انه كان قد صدر فرمان شاهاني عالي قبل اربع سنوات بخصوص التصالح مع التوانسة و كان احمد بيجان بك احد رؤساء الشريفاتيين هو الذي جاء بالفرمان الى اوجاقنا المنصورة الا ان الذين كانوا في سدة الحكم اذ ذاك لم يضعوا الفرمان موضع التنفيذ وانا بدوري لم اطلع عليه الا بعد ان صار الحكم الي وبعد ان اصبحت مطلعـــا عليه قمت فورا .

بالامتثال و الانقياد لمضمونه الشريف و العمل بمقتضاه ، و حررت رسالة الـــى التوانسة اذكرهم فيها بالوحدة و الاخوة القائمة بين الجزائر و تونس و احضهم على الطاعـــة و الامتثال الحكم و مضمون الفرمان الهمايوني الشريف الذي صدر في هذا الموضوع و على الاقدام بدفع الهدايا الى الجزائر كما جرت العادة في ذلك من قديم الزمان حسب الارادة الشاهانية التي امرت بذلك بدون مخالفة ولا عصيان للفرمان الشاهاني و مذكرا اياهم كذلك بان الذيـــن سبقوهم في الحكم في اوجاق تونس كانوا يمتثلون هذا الامر و يدفعون الهدايا المقرر دفعها الى الجزائر ، و كان هذا في المدة الماضية المباركة .

غير ان الرسالة المرسلة الى باشا تونس قد وقعت في خارج تونس في يد ابنـــه الذي اخبر اباه بمضمونه و هو غير راغب في تنفيذ المطلوب منهم .

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

الرئاسة

الأمانة العامة



— 2 —

ولذا فقد جاء الرد منهم مخالفا تماما للمطلوب منها حيث قالوا بانهم لا
يدفعون حبة كهدية للجزائر وان الذين كانوا يدفعون ذلك كانوا من المهابيل وهم ليســـوا
مهابيل مثلهم حتى يدفعوا هدايا للجزائر .

وبناء على هذا الرد تاخرت المسالة الى يومنا هذا ولم يبت في الامر شئ .

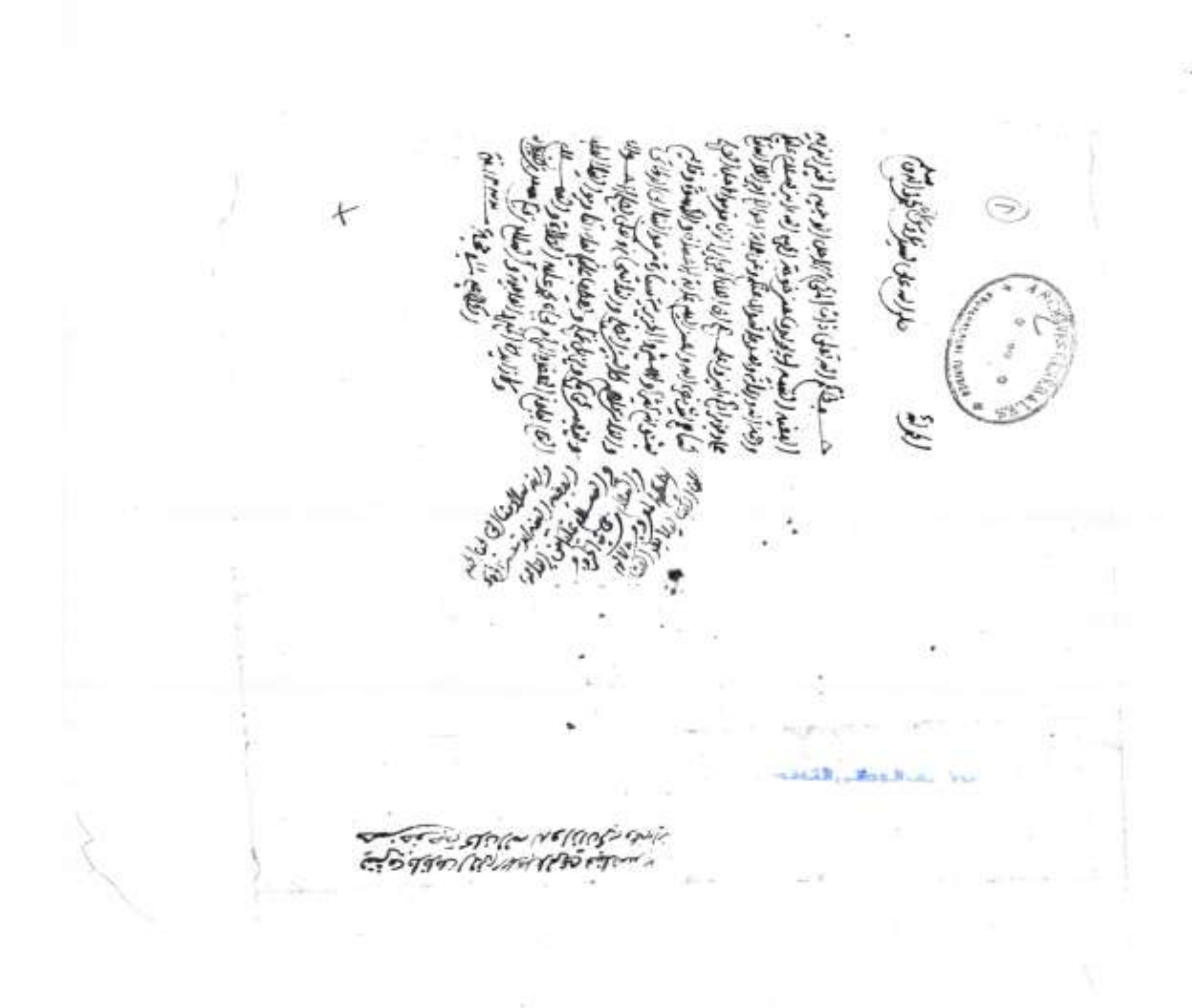
اما من جهتنا فانا الحمد لله لم نرتكب خطأ نحوهم ولم نخالف الشرع الشريف ولا الفرمان
الشاهاني العالي كما لم نقصر في السعي الى احلال الصلح وتحقيق الاخوة بين الطرفين .

ولذا فان اوجاقكم المنصورة ترجو وتتمنى في ان تكون مشمول الرعاية الشاهانية
والحماية الهمايونية بصدور الاوامر الشاهانية لاعطاء المطلوبات الاوجاقية من ذخائر ومهمات
وجلب الجنود الى غير ذلك من الاحسانات الشاهانية التي لا يمكن الاستغناء بالنسبة لاوجاق .

ومن اجل كل ذلك تم تحرير هذا التقرير من طرفنا لتوضيح ما تم في امر العداء
مع تونس وموقفها من الهدايا التي كانت تدفع عادة وبمقتضى الفرامين الى الجزائر والبيـــان
الوضعية التي نحن فيها من الاحتياج الى الاحسانات الشاهانية يتم رفعه الى العالم الشاهاني
السد تحقيق النظر الشاهاني والاطلاع الهمايوني ولا شك ان الامر والفرمان في هذا الميدان
لصاحب القوة والفرمان حضرة البادشاه المعظم .

(*)خط همايون، رقم31210، مصدر سابق.

الملحق رقم 10: بعثة أحمد المورالي للصلح بين الإيالتين عام 1817م[*].



(*) السلسلة التاريخية، الملف رقم 354، مصدر سابق، ص ص 1- 2- 3.

الببليوغرافيا

– **القرآن الكريم**: برواية ورش عن نافع.

– قائمة المصادر و المراجع:

I– الوثائق:

1– دفتر مهم:

1.1– مهمة دفتري رقم 10، حكم رقم10، 979/01/02هـ، تعريب التميمي محمد داود، الأرشيف الوطني الجزائري، علبة رقم2.

2.1– مهمة دفتري رقم 12، حكم رقم 1073، بتاريخ979/10/25هـ، الأرشيف الوطني الجزائري، علبة رقم3.

3.1– رقم12، حكم رقم 1088، بتاريخ979/11/07 هـ، الأرشيف الوطني الجزائري، علبة رقم3.

4.1– رقم14، حكم رقم 49، بتاريخ 979هـ، الأرشيف الوطني الجزائري، علبة رقم5.

5.1– رقم 16، حكم رقم 40، بتاريخ 979هـ، الأرشيف الوطني الجزائري، علبة رقم 5.

6.1– رقم 18، حكم رقم237، بتاريخ 979/10/19هـ، الأرشيف الوطني الجزائري، علبة رقم18.

7.1– رقم 35، حكم رقم314، بتاريخ 986/06/02هـ، الأرشيف الوطني الجزائري، علبة رقم 9.

2– خط همايون:

1.2– خط همايون، رقم33301، بتاريخ1230هـ، تعريب طونا فكري، الأرشيف الوطني الجزائري، علبة23.

2.2– ، عدد31210، بتاريخ 1231هـ، الأرشيف الوطني الجزائري، علبة 24.

3– السلاسل التاريخية:

1.3– السلسلة التاريخية، الملف11مكرر، مجلد3، الحافظة1، الأرشيف الوطني التونسي.

2.3– ، الملف348، الحافظة220، الأرشيف الوطني التونسي.

3.3– ، الملف354، الحافظة221، الأرشيف الوطني التونسي.

4.3– ، الملف384، الحافظة223، الأرشيف الوطني التونسي.

4- الدفتر الجبائي:

- الدفتر الجبائي، مداخيل الدولة ومصاريفها، رقم1046، تاريخه 1170- 1178هـ، الأرشيف الوطني التونسي.

II- باللغة العربية:

أولا المصادر:

1- المصادر المخطوطة:

1.1- ابن أحمد محمد الطاهر، ذكر طرف ولاية المرحوم السيد صالح باي أمير بلد قسنطينة، مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية، رقم00263.

2.1- ابن عبد العزيز حمودة بن محمد، الكتاب الباشي، مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية، ج2، تحت رقمA.MSS-18666.

3.1- التلمساني محمد بن محمد بن عبد الرحمن، الزهرة النائرة فيما جرى ببلاد الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1626.

4.1- مجهول، الخبر عن قدوم عروج رايس إلى الجزائر و قدوم أخيه خير الدين، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم1623.

5.1- المنوي محمد الفراتي الصفاقسي، تاريخ عروج رايس و أخيه خير الدين بمدينة الجزائر، مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية، رقم0231.

6.1- مراسلات بايات قسنطينة، مخطوط بأرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم1641.

7.1- المجموعة 3190، الملف الأول، أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية.

2- المصادر المطبوعة:

1.2- ابن أبي الدينار الرعيني القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس 1386هـ.

2.2- ابن أبي الضياف أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، مج1، ج2 ، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس2004م.

3.2- ابن أبي الضياف أحمد ، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، مج2، ج3، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس2004م.

4.2- ، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، مج4، ج8، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس2004م.

5.2- ابن حمادوش عبد الرزاق الجزائري، رحلة ابن حمادوش (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال)، تقديم و تحقيق سعد الله أبو القاسم، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر 2007م.

6.2- ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (1336 – 1406م)، ج6، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت 2000م.

7.2- ابن سحنون الراشدي أحمد بن محمد، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق و تقديم البوعبدلي المهدي، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر د ت.

8.2- ابن عبد العزيز حمودة بن محمد، الكتاب الباشي، تحقيق ماضور محمد، ج 1، الدار التونسية للنشر، تونس 1970م.

9.2- ابن عبد القادر محمد، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج 1، المطبعة التجارية بالإسكندرية، مصر1903م.

10.2- ابن عبد القادر مسلم، تاريخ بايات وهران المتأخر، تحقيق بونار رابح، ش و ن ت، الجزائر1974م.

11.2- ابن العنتري محمد الصالح، تاريخ قسنطينة (فريدة منيسة..)، مراجعة و تحقيق بوعزيز يحي ، دار البصائر ، الجزائر 2008م.

12.2- ، مجاعات قسنطينة، تحقيق بونار رابح، ش و ن ت، الجزائر 1974م.

13.2- ابن محمد حسين الورتلاني، الرحلة الورتلانية (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، مج2، مكتبة الثقافة الدينية والمكتبة الصوفية، القاهرة2006م.

14.2- ابن المفتي حسين بن رجب شاوش، تقييدات إبن المفتي في تاريخ باشاوات الجزائر و علمائها، دراسة و تحقيق كعوان فارس، ط1، بيت الحكمة للنشر و التوزيع، العلمة، الجزائر2009م.

15.2- ابن ميمون محمد الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم و تحقيق ابن عبد الكريم محمد، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر 2007م.

16.2- ابن يوسف الصغير، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، تقديم و تحقيق الطويلي أحمد، مج 1، المطبعة العصرية، تونس2009م.

17.2- ، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، تقديم و تحقيق الطويلي أحمد، مج 2، المطبعة العصرية، تونس2009م.

18.2- ، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، تقديم و تحقيق الطويلي أحمد، مج 3، المطبعة العصرية، تونس2009م.

19.2- ، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، تقديم و تحقيق الطويلي أحمد، مج 4، المطبعة العصرية، تونس2009م.

20.2- ابن يوسف محمد الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم و تعريب البوعبدلي المهدي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر2007م.

21.2- أبو راس الناصر محمد الجزائري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار ، ج 1، تقديم و تحقيق غانم محمد، منشورات المركز الوطني للبحث في الانثربولوجيا الاجتماعية والثقافية، الجزائر 2005م.

22.2- ، فتح الإلـــه ومنتــه في التحدث بفضل رب و نعمته، تحقيق و تعـريب ابن عبد الكريم محمدالجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986م.

23.2- الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و إسبانيا و فرنسا، ج1، تحقيق بوعزيز يحي، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر 2008م.

24.2- برباروس خير الدين ، مذكرات خير الدين برباروس، ترجمة دراج محمد، ط1، شركة الأصالة للنشر و التوزيع، الجزائر 2010م.

25.2- بيرم محمد الخامس، صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج2، دار صادر و المطبعة الإعلامية، بيروت، مصر1886م.

26.2- بيسونال جون أندري، الرحلة إلى تونس 1724م، ترجمة و تحقيق السنوسي محمد العربي، مركز النشر الجامعي، تونس 2003 م.

27.2- التمقروتي أبو الحسن سيدي علي، النفحة المسكية، مطبوع بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 2120.

28.2- حليم إبراهيم بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت1988م.

29.2- خوجة حمدان بن عثمان، المرآة، تقديم و تعريب و تحقيق الزبيري محمد العربي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1982م.

30.2- خوجة حسين، ذيل بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، مصر 2001م.

31.2- الزهار أحمد الشريف، مذكرات الشريف أحمد الزهار، تحقيق المدني أحمد توفيق، دار البصائر، الجزائر 2009م.

32.2- السنوسي أبي عبد الله محمد بن عثمان ، مسامرات الظريف بحسن التعريف، تحقيق و تعريب النيفر محمد الشاذلي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1994م.

33.2- العدواني محمد بن محمد بن عمر، تاريخ العدواني، تقديم و تحقيق و تعريب سعد الله أبو القاسم، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت2005م.

34.2- الغساني محمد الأندلسي، رحلة الوزير في إفتكاك الأسير(1690- 1691م)، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت2002م.

35.2- فايست أوجين، تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي(1792- 1873م)، ترجمة نور صالح، تقديم شيبان عبد الرحمان، ط1، دار قرطبة، الجزائر2010م.

36.2- الفكون عبد الكريم، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم و تحقيق و تعريب سعد الله أبو القاسم، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت1987م.

37.2- مارمول كاربخال، إفريقيا، ج3، ترجمة محمد حجي وآخرون، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط 1989م.

38.2- المبارك أحمد بن العطار، تاريخ حاضرة قسنطينة، تعريب نور الدين عبد القادر، الجزائر 1952م.

39.2- ، تاريخ قسنطينة، تحقيق بونار رابح، د ت.

40.2- مجهول، تاريخ بايات قسنطينة المرحلة الأخيرة، تحقيق حساني مختار، منشورات دحلب، الجزائر1999م.

41.2- مجهول، غزوات عروج و خير الدين ، تصحيح و تعريب نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية و المكتبة الأدبية، الجزائر1934م.

42.2- المحامي محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق حقي إحسان، ط 1، دار النفائس، بيروت 1981م.

43.2- المسعودي أبي عبدا لله محمد الباجي، الخلاصة النقية في أمراء افريقية، ط2، مطبعة بيكار، تونس 1323هـ

44.2- المشرفي عبد القادر، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق و تقديم ابن عبد الكريم محمد، دار مكتبة الحياة للنشر والتوزيع، بيروت، د ت.

45.2- مقديش محمود بن عمر، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، ج 1، مطبوع بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم 66، ب ت.

46.2- ، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق الزواري علي ومحفوظ محمد، ط 1، مج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988م.

47.2- الوزان حسن بن محمد، وصف إفريقيا، ترجمة حجي محمد و الأخضر محمد، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت1983م.

48.2- الوزير السراج محمد بن محمد الأندلسي، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم و تحقيق الهيلةمحمد الحبيب، ج2، القسم 1، دار الكتب الشرقية، تونس 1973م.

49.2- ، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم و تحقيق الهيلة محمد الحبيب، ج2، القسم 2، دار الكتب الشرقية، تونس 1973م.

50.2- ، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم و تحقيق الهيلة محمد الحبيب، ط1، مج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت1985م.

ثانيا- المراجع:

1- ابن الخوجة محمد، صفحات من تاريخ تونس، تقديم و تحقيق الساحلي حمادي و ابن يحي الجيلاني، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986م.

2- ابن عبد الكريم محمد، مقدمة كتاب ابن ميمون محمد الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم و تحقيق ابن عبد الكريم محمد، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر 2007م.

3- برنيان أندري و آخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة إسطنبول رابح، د .م .ج، الجزائر 1984م.

4- بروديل فرناند، المتوسط و العالم المتوسطي، تعريب أبي سمرا مروان، ط1، دار المنتخب للنشر و التوزيع، بيروت 1993م.

5- البشروش توفيق، جمهورية الدايات في تونس1591- 1675م، شركة أوربيس للطباعة، تونس1992م.

6- بوذينة محمد، مشاهير التونسيين، ط2، دار سراس للنشر والتوزيع، تونس1992م.

7- بوعزيز يحي، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، دار عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر2009م.

8- ، علاقات الجزائر الخارجية مع دول و ممالك أوربا 1500- 1830م، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر2009م.

9- ، المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد 1780- 1798م، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر2009م،

10- التميمي عبد الجليل، بحوث و وثائق في التاريخ المغربي، تونس الجزائر ليبيا 1816-1871م، ط1، الدار التونسية للنشر، تونس1972م.

11- ،تحية تقدير للأستاذ خليل الساحلي أوغلو، ج1، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس1997م.

12- الجمل شوقي عطاء الله، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، ط 1، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1977م.

13- حسني عبد الوهاب حسن، خلاصة تاريخ تونس، ط3، تونس1954م.

14- دوفو ألبير، الريّس حميدو، تعريب محمد العربي الزبيري، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، د ت.

15- رافق عبد الكريم، العرب و العثمانيون 1516- 1916م، مطبعة ألف باء، دمشق1974م.

16- رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس1782- 1814م، منشورات الجامعة التونسية، تونس 1980م.

17- روسو ألفونسو، الحوليات التونسية، من الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، ترجمة و تقديم الوافي محمد عبد الكريم، ط1، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي ، ليبيا 1992م.

18- ريمون أندري ، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة فرج لطيف، ط1، دار الفكر للنشر و التوزيع، القاهرة1991م.

19- الزبيري محمد العربي، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر 1985م.

20- سالم أحمد، السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن 16م، نشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 2011م.

21- سامح عزيز ألتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا ال شما لية، ترجمة علي عامر محمود، ط 1، دار النهضة العربية، بيروت1989م.

22- سبنسر وليام، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب و تقديم زبادية عبد القادر، دار القصبة للنشر و التوزيع الجزائر 2006م.

23- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، القسم1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1992م

24- ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت2005م.

25- سعيدوني ناصر الدين، ورقات جزائرية (دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني)، ط2، دار البصائر، الجزائر 2008م.

26- سي يوسف محمد، أمير أمراء الجزائر علج علي باشا، دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر 2009،

27- شوفاليه كورين، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، 1510- 1540م، ترجمة حمادنة جمال، د م ج، الجزائر 1991م.

28- عميراوي أحميدة، علاقات بايليك الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، دار البعث، الجزائر2002م.

29- عودة محمد عبد الله، تاريخ العرب الحديث، دار الأهلية للنشر و التوزيع، عمان 1989م.

30- غطاس عائشة وأخريات، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م ، الجزائر 2007م.

31- فالنسي لوسيت، المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790- 1830م، ترجمة مرقص إلياس، ط 1، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت 1980م.

32- فيرو شارل، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة و تقديم الوافي محمد عبد الكريم، ط3، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي ليبيا 1994م.

33- قاسم أحمد، إيّالة تونس العثمانية على ضوء فتاوي ابن عظوم (1574- 1600م)، تقديم التميمي عبد الجليل، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس 2004م.

34- قنان جمال، نصوص وثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500 - 1830م، دار هومة، الجزائر 2007م.

35- ، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619- 1830م، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر 2007م.

36- المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492- 1792م، مج5، عالم المعرفة ن ت، الجزائر 2010م.

37- ، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766م ـ 1791م، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر، 2009م.

38- مروش لمنور، أبحاث ودراسات عن الجزائر في العهد العثماني ، القرصنة بين الأساطير و الواقع، ج2، دار القصبة للنشر و التوزيع، الجزائر 2009م.

39- مزالي محمد الصالح، الوراثة على العرش الحسيني و مدى احترام نظامها، الدار التونسية للنشر، تونس 1969م.

40- المطوي محمد العروسي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي و دورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986م.

41- المودن عبد الرحمن و بنحادة عبد الرحيم، العثمانيون في المغارب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية، ط 1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المغرب2005م.

42 - هلايلي حنيفي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط 1، دار الهدى للطباعة النشر و التوزيع، عين مليلة (الجزائر) 2008م.

43- هنية عبد الحميد، تونس العثمانية بناء الدولة و المجال، منشورات تبر الزمان، تونس 2012م.

44- نياني. ج. ت، تاريخ إفريقيا العام، مج4، اليونسكو، بيروت 1988م.

45- وولف جون ب، الجزائر و أوربا 1500- 1830م، ترجمة و تعريب سعد الله أبو القاسم، دار الرائد، الجزائر 2009م.

ثالثا- الدوريات:

1- أمين محمد، احتلال الجزائر سنة 1830م الأصداء والأبعاد، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 30، تونس 2004م.

2- بوشنافي محمد، مساهمة عروج بن يعقوب في مواجه ة الخطر الإسباني على المغرب الأوسط، 1512- 1518م، مجلة عصور، العدد 5/4، جامعة وهران، الجزائر 2004م.

3- التميمي عبد الجليل، عثمنة إيّالات الجزائر تونس و طرابلس على ضوء مهمة دفتري 1559- 1595م، المجلة التاريخية المغاربية، تونس 2006م، عدد 121.

4- الدولاتيلي عبد العزيز، أضواء تاريخية على بحيرة تونس، المجلة التاريخية المغربية، العدد3، تونس 1975م.

5- الساحلي خليل اوغلو، وثائق عن المغرب العثماني أثناء حرب مالطا سنة 1565م، المجلة التاريخية المغاربية، العدد8/7، تونس1977م.

6- ، الصراع بين قراصنة تونس و الجزائر والبندقية، في القرن السابع عشر، المجلة التاريخية المغربية، العدد4، تونس1975م.

7- ، إحداث لواء جديد في الجزائر في أواخر ق 16م يتركب من بلد العناب و باستيون و مبارقة وقلعة باجة، مجلة الأصالة، المجلد14، العدد34، منشورات الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر 2011 م.

8- العزيزي محمد الحبيب، محلة الشتاء والصيف، الكراسات التونسية، العدد172، تونس1996م.

9- محفوظ قداش، الجزائر في العهد التركي، مجلة الأصالة، مج 18، العدد 52، منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، الجزائر 2011م.

10- هنية عبد الحميد وآخرون، اتفاقيات مع أتراك الجزائر، حجة عدلية من أعيان أرق سنة 1626م في تبعيتهم لإيّالة تونس، كراسات الأرشيف التونسي، تونس2009م.

11- الهويدي سلوى، أعوان الدولة للإيّالة التونسية1735- 1814م، مجلة إيبلا، العدد205، تونس2010م.

III– باللغة الأجنبية:

أولا– الوثائق المنشورة:

1-De Card (Edgad Rouard), Traités de la France avec les pays de L'Afrique du Nord, Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc, Paris, A.PE'DONE, Editeur, 1906.

2- De Grammont(H.D), Correspondance des Consuls D'Alger (1690-1742), paris, Ernest Leroux Libraire-Editeur, 1890.

3- Plantet (Eugène), Correspondance des Deys D'Alger avec la cour de France, T1,(1579-1700), paris, 1889.

4- , Correspondance des Deys D'Alger avec la cour de France, T2,(1700-1830), paris, 1889.

5- , Correspondance des Beys de Tunis et des consuls de France avec la cour, T3, (1770-1830), paris, ancienne librairie, 1899.

ثانيا– المصادر:

1- Berbrugger (Adrien), Le Pégnon d'Alger ou les origines duGouvernement Turc en Algérie, Alger , Imprimerie Hasnaoui, 2013.

2- Dan (pierre), Histoire de Barbbarie et de ses corsaires, Paris, Seconde édition, 1646.

3- De Flaux(Armand), La Régence de Tunis au 19ème siècle, Alger, libraire Bastid, 1865.

4 - De Haedo (Fray Diego), Histoire des Rois D' Alger, traduit et annoté par H-De Grammont, Alger, Adolphe Jourdan libraire, 1881.

5 - , Topographie et histoire générale d'Alger, traduit, MM. Le Dr. Monnereau et A. Berbrugger,Paris, Imprime A' Valladolid, 1870.

6-De Paradis (Venture), , Tunis et Alger au XVIII siècle, Paris, sindbad, 1983.

7- , Expédition contre Alger le prince Charles-Quint à l'assaut de la Régence d'Alger en octobre 1541, Alger, Imprimerie Hasnaoui, 2013.

8-Laugier de Tassy, Histoire de royaume d'Alger, Paris, Edition, loysel, 1992.

9-Louis (Frank), Histoire de Tunis, 2éme Edition, Tunis, Edition Bouslama, 1985.

10-Maggil (M,Thomas), nouveau voyage a Tunis, publié en 1811, Paris, editeur de dictionnaire des sciences médicales, 1981.

ثالثا المراجع:

1-Arsène (Berteuil), L'Algérie Française, T1, paris, Dentu libraire, 1856.

2-Belhamissi (Moulay), Marine et Marins d'Alger 1518 -1830, T 1, Alger, bibliothèque nationale d'Algérie, 1996.

3- ,Histoire de la marine Algérienne 1515-1830, Alger, Entreprise nationale de livre,1983.

4 -Braudel (Fernand), La Méditerranée et le monde méditerranéen a' l'époque de PhilippeII, 2eme éd, Paris, librairie Armand Colin,T2, 1966.

5 - , Les Espagnols et la Berbérie de 1492 à 1577, Alger, l'imprimerie Hasnaoui ,2013.

6- Broughton, Six years residence in Algiers, London, Saunders and otley, 1839.

7-De Grammont (H. D), Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830), paris, Ernest Leroux Editeur, 1887.

8- DeVoulx (Alper), Tachrifat, Recueil De Notes Historiques, Alger, Imprimerie du Governement,1852.

9-Dunant (J. Henry), Notice sur la Régence de Tunis, Genève, imprimerie de ules-G-fick 1858.

10-Julien (Charles André), Histoire de l'Afrique du nord de la conquête arabe a 1830, Alger, Société nationale de l'édition ét de la distribution,

2eme édition, 1980.

11-Grand champ(Piérre), Auteure de consulat de frans a Tunis(1577_1881) ,Tunis, imprimerie j.aloccio, 1943.

12-Mercier (Ernest), Histoire de L'Afrique Septentrionale,T3, Paris, Ernest leroux édition,1891.

13- Paul(Masson), Histoire des établissements et du commerce Français, dans l'Afrique Barbaresque, 1560-1793 Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc, Paris, librairie Hachette, 1903.

14-Pellissier (E), Annales Algériennes, T1, Paris, libraires pour L'ART, Militaire, 1836.

15 -Perrot (A .M), La Conquête d'Alger, ou Relation de La Compagne d'Afrique, Paris, H. Langlois Fils, Éditeurs, 1830.

16-Rozet et Carette, L'Algérie, paris, Firmin didot frères,Paris, E'diteurs imprimeurs de L'institut, 1850.

رابعا الدوريات:

1 -Ben Youssef (Mohammed Seghir), Soixante ans d'histoire de la Tunisie 1705-1765 ,R.T,T7,n°25,Tunise1900.

2 -Braudel (Fernand), Les Espagnole et L'Afrique du Nord de 1492 à 1577 ,Alger, R. Af, n°69, 1928.

3 -DeVoulx (Albert), La Marine de la régence d'Alger, R.Af, n°13, septembre, 1869.

4 -Gsell (Stéphane), Notes chronologiques pour l'histoire de Constantine, Raf, n°39, 1895.

5 - Moalla Asma, le jund de la regence Tunisienne1574-1650, Arab historical review for Ottoman studies, n°29,Tunis, 2004.

6 -Pierre (Boyer), Le Problème Kouloughli dans la Régence d'Alger, R.O.M.M, Aix-en-Provence,n°8,1970.

IV- الرسائل الجامعية:

1- بيشي رحيمة، العلاقات السياسية التونسية الاسبانية في أواخر الدولة الحفصية 1494 – 1574م، مذكرة ماجستير غير منشورة، المركز الجامعي غرداية، الجزائر2012م.

2- العزيزي محمد الحبيب، ظاهرة الحكم المتجول في المغرب العربي الحديث، المحلة التونسية أنموذجا، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الجزائر، الجزائر2007م.

V – الموسوعات والمعاجم:

1- أبو عمران الشيخ ،سعيدوني ناصر الدين وآخرون ، معجم مشاهير المغاربة، منشورات دحلب، الجزائر 2002م.

2- حتامله محمد عبده، موسوعة الأندلس و المغرب العربي، مج4، ج2، دار المدار الثقافية، بيروت2009م.

3- الغنيمي عبد الفتاح المقلد، موسوعة تاريخ المغرب، ط1، ج5، مكتبة مدبولي، القاهرة 1994م.

4- ياقوت الحموي أبي عبد الله ، معجم البلدان ، مج5، دار صادر ، بيروت 1977م.

5 - Grand Larousse encyclopédique ,V6, Paris, Librairie Larousse 1962.

6-Robert (Mantran), L'evolution Des Relations Politiques entre Le Gouvernement ottoman et Les ODJAKS De L'ouest Du XVI en AUXIX Siècle, Karamanli (Fouad Ezgu) dans Islam Ansiklopedisi.

الفهـــــــارس

- فهرس الأعلام
- فهرس القبائل و الجماعات
- فهرس البلدان و الأماكن
- فهرس المحتويات

فهرس المحتويات فهرس الأعلام

(ن)

(ي)

فهرس القبائل و الجماعات:

فهرس البلدان و الأماكن

المحتوى **الصفحة**